

الكتاب الإلكتروني

مؤسسة روز اليوسف

السؤال الآخر



د. أسيد محمود القماني

السؤال الآخر

لوحة الغلاف للفنان :
عبد العال حسن

الكتاب الذهبي :
كتاب دوري
يصدر كل شهر

المراسلات :
٨٩ أ شارع قصر العيني
مؤسسة روزاليوسف
الكتاب الذهبي

طبع بمطابع
روز اليوسف

رقم الإيداع :

٩٨ / ٤٠٢٦

الطبعة الأولى
فبراير ١٩٩٨

مؤسسة روزاليوسف

تأسس عام ١٩٥٤

الكتاب
الذهبي

رئيس مجلس الادارة

محمود التهامي

المشرف على التحرير

محمد بغدادى

سكرتارية التحرير

أيمن التهامي

عصام زكريا

السكرتارية الفنية

أنور معروف

* الكتاب الذهبى يصدر شهريا عن مؤسسة روز اليوسف - فبراير ١٩٩٨ *

السؤال الأخير

دكتور
سيد محمود القموني

الطبعة الأولى
١٩٩٨

الإهداء
إلى شهداء مجزرة الأقصى :
قربان

على
سبيل
التقديم

السبيل
والآخرة

السؤال الأخير

هذا الكتاب هو مجموعة من المقالات والدراسات والحوارات التي سبق نشرها وإذاعتها عبر العامين المنصرمين، انشغلت بطرح مجموعة من الأسئلة والاستفسارات المصحوبة بمبررات طرحها العملية والعلمية والعقلية، والأهم «الوطنية». وقد تم وصف مثل تلك الطروحات المتسائلة بأنها أسئلة حرجة وصعبة أحياناً، وبأنها مُقلقة تهز أموراً تصورها الناس من الثوابت أحياناً أخرى، وأحياناً ثالثة بأنها تخوض في مناطق شديدة التخصص في علوم الدين، ولا تصح مناقشتها على الملأ، لأن إشراك العامة فيها مفسدة لهم، بل مثير للفتن والبلبل في المجتمع. وهي المعانى التي سبق ورددها الأستاذ فهمي هويدي في هجومه علينا وعلى كتابنا (الحزب الهاشمي) في أهرام ٢٣/ ٣/ ١٩٨٩. وهو ماسيكره هنا الأستاذ الدكتور كمال أبوالمجد بداخل هذا الكتاب.

وهنا بالتحديد تكمن أهمية السؤال الآخر المقلق الصعب الحرج، إذ نعتقد بشديد البراءة - أن أى أمر قابل للطرح وللمناقشة بالحجج العقلية والأدلة الاستنباطية والعلمية، حسبما تحتاج الظروف، وحيثما كانت مصالح العباد والبلاد فثم وجه الله. ولاشك أن إخفاء جوانب في مآثورنا وإبراز أخرى كان يرتبط طوال تاريخنا بمصالح انتهائية، بغرض التعمية على مناطق في تاريخ الإسلام المقدس أو في تاريخ الوطن، كان يمكنها فضح وتعرية لاءات الإعلام الموجه ولاءات الإرهاب المسلح معا.

ومن هنا ستجد داخل هذا الكتاب كثيراً من التساؤلات المزعجة، لأننا الآن وقبل غد بحاجة إلى كل إزعاج ممكن، فمن جانبنا ليس لدينا مانخشي خسارته سوى ذلك الوطن الذى يتسرب من بيننا إلى الضياع. وهنا محور التحدى والجرأة الواثقة المطمئنة إزاء جميع النفعيين والانتهازيين، سواء كانوا أشخاصاً أم مؤسسات أم أحزاباً أم أصحاب مناصب سيادية، والذين هم أشد فتكا بهذا الوطن من الإرهاب المسلح.

وهنا نحن لانفعل أكثر مما كان قاعدة لملايين المصريين الذين ما كان لديهم شيء يخشون عليه الخسارة، فصاغوا إسلاما خاصا مصرياً يتضفر مع حاصل تراث وثقافة مصر جميعاً. ولم يرهبهم منطق القداسة المتربيع بجوار العرش السلطاني، وتركوا تراثا هائلا لم يزل بعد بحاجة إلى التصنيف والتبويب والاحترام الكامل والعلمي. لنفهم أى عبقرى هذا الشعب؟

ولأن هذا الشعب كان كذلك، وكان كثير الدهشة ولا يخشى ملامة طرح السؤال، فقد كان على لسانه المثل قاعدة أتت بدورها فى صيغة سؤال يقول دهشا مستنكراً: (هوه السؤال حُرْمٌ؟!). وهو ذات الشعب الذى كان يرفض الأوضاع الخاطئة فى المجتمع، كما يرفض فى ذات الوقت الرشوة المقدسة بالحدود والحدود فى عالم الأبدية، فى مثله البسيط السائر (المحتاج يبيع نصيبه فى الجنة). لكن ما حدث هو مجموعة من المتغيرات والأسباب المتعددة كان منها دور مؤسسات التثقيف الرسمية، التى قامت عن عمد وسبق إصرار بتزييف وعى الجماهير، مما أفرز لدى المواطن المصرى وعياً زائفاً لاعلاقة له بالفرض الطبيعى للوطن، لذلك كان طبيعياً أن تخرج علينا جماعات الإرهاب المسلح بعد أن غاب مفهوم الوطن وقيمه لصالح ذوى المصالح، الذين عمدوا إلى إبراز مذهبيات دينية بدوية، برزت معها بالضرورة الدول التى ترعاها.

والسؤال هنا يخوض فى أعوص المناطق وأكثرها وعورة، ويسير فوق كل جحور الأفاعى دفعة واحدة، رغم أنه لم يتعرض لثوابت غيبية، إنما كان يتوجه مباشرة وبوضوح ربما كان صادما نحو المناطق التى تتعلق بمعاشنا وحياتنا. حتى يمكن إضاءة المساحات المخفية والمحجوبة والمسكوت عنها، لأن استمرار السكوت مع الوعى والمعرفة هو لون من ألوان خيانة الوطن بلا جدال، بعد أن جاء المنهج السائد بعدو البلاد عام ١٩٦٧ إلى حدود الدلتا الشرقية، وانتهى بنا الآن إلى مقلب نفايات الأمم.

وبينما تعلن الدولة تمسكها بكل لآات الحريات والحقوق الإنسانية، فإنها فى واقع الممارسة تفعل شيئاً آخر تماماً. فهى طوال الوقت تكرر لمنهج يكبح السؤال والإبداع الحر، ويدرب العقل على الطاعة الكاملة. وأنه لاخوف علينا فنحن خير أمة أخرجت للناس، تقف من ورائنا منظومة فكرية متكاملة ثم إنها قدسية، لا يدخلها الباطل أبداً، أى أننا نملك

الحقيقة المطلقة وكل علم ممكن، لأن لدينا فى تلك المنظومة كل الكشف العلمية حتى مالم يكتشف منها (!؟)، ولدينا قوانين تنظيم المجتمع، ولدينا قواعد الحريات السياسية والإنسانية، ولدينا قوانين الاقتصاد الكامل، وقوانين علوم التربية النهائية، وعلاج كل أمر فى كل شأن.

وهكذا، تم تكريس الواحدة الشمولية الدينية، مع تضخم الذات وتورم الأحلام فحصلنا على أجسام الديناصورات بالتكاثر والتناسل الذى نجده حقا وصدقا، لكن مع عقول دمرتها الخرافة والمناهج الواحدة، ونفوس تضج فى الصدور بألف علة وتشوه نفسى، أليست تلك جريمة وطنية عظمى بكل المقاييس؟ وعشنا خدر العصور البدائية وتصورنا أننا بكثرتنا العددية (نحن الغالبون)، رغم أن المصرى الخبير سبق وأكد فى مثله السائر: إن (العدد فى الليمون)، فأدرك حكمة انقراض دولة الديناصور من الوجود. ذلك المصرى الذى هضم وامتنص الأيديولوجيا الوافدة ليضفرها مع نظريته الفلسفية للكون، المعتمدة على بنية تحتية مخالفة لتلك الأيديولوجيا، وقام يحول الإله أوزيريس رب الزرع إلى (الشيخ زارع) الولي التقى صاحب الموالد، وأمون إلى (الحجاجي)، وإيزيس ربة الخضرة إلى الشبخة (خضرة)، وفى العاصمة أصبحت إيزيس ست الديوان السيدة زينب، لكن هذا الفرز الطبيعى لم يعد الآن كذلك نتيجة تدخل الآلة الجهنمية للإعلام الموجه داخل كل بيت.

إضافة إلى أن هناك أسبابا فصيحة واضحة معلومة لهذا الارتكاس، فإنى أزعم هنا زعما سيبدو شديد الغرابة أحسبه أحد أهم أسباب ذلك النكوص، وهو التعليم المجانى الموجه الذى اعتمدته ثورة يوليو ١٩٥٢ وحتى الآن، ليخترق المنظومة المصرية الأصيلة وخط سيولة الوعي، بقطع الشريان الواصل من القلب إلى العقل حيث جهاز الوعي، ووصل مكانه بمضخة التعليم الموجه مقابل مجانيته. ودفع الوطن مقابل هذه المجانية عقل أبنائه بل ربما وجوده المستقبلى على صفحة التاريخ. وقام هذا التعليم بضخ إلى الشارع بالآلوف من المؤدلجين الجاهزين دوما لتصفية الآخر المخالف للرأى الأحادى المطلق الصديق، وكان إرهاب اليوم هو جنى مازرعت أيدى هؤلاء بالأمس وحتى اليوم.

لقد احتاجت مؤسسة الدولة دوما تبريرات فقهاء السلطة المحترفين من العاملين بشئون التقديس، لمواقفها السياسية وسياساتها الاقتصادية وفلسفتها الشمولية، فكان ما كان.

لقد كانت مجانية التعليم غير مجانية بالمرة وعلى الإطلاق، فقد اشترت بهذه المجانية الأرواح والعقول وكل الشواهد تؤكد ذلك. ولأن التوجه كان عروبيا وحدويا فى منهج شمولي، كان لا بد من تكريس اللغة العربية، والتعليم بحاجة إلى وعاء اللغة، لكنها اللغة التى كان يسخر منها الفلاح المصرى ويتساءل مستنكراً رافضاً متوجساً: (إنت ها تكلمنى بالنحوى؟!). لقد كان (النحوى = العربى الفصحى) يعنى له أن هناك مؤامرة تختفى وراء الألاعيب اللفظية، ستمررها عليه الفصحى بأساليب ملتوية غير مباشرة. ولاشك أنها تحمل خدعة مبيتة. هذا رغم علم هذا الفلاح وإيمانه أن اللغة العربية لغة مقدسة، خاطب الله بها نبيه، وبها تحدث آدم فى الجنة مع الملائكة، وأنها ستكون لغة الحساب بعد البعث ثم لغة الأبدية.

المأساة تتضح بعد تحول الكثيرين من الأميين إلى متعلمين بل حاصلين على أعلى الشهادات التى لاتعنى الثقافة بمعناها العلمى الدقيق. وحملت إليهم العربية مع أيديولوجيتها الواحدة كل محيطها الذى ارتبط بها وأفرزها، أى المنظومة البدوية بكاملها. فكان أن اختفت كثير من مفردات اللسان المصرى الباقية فيه من راسبه القديم، وكذلك توارت كثير من النظم والعادات والتقاليد الأصيلة، ثم انقرضت الكرنفالات المصرية التى أصبحت حراما، رغم أنها كانت مساحة الإبداع الفكرى والفنى المصرى بمذاقه الخاص ونكهته المتفردة، وسر سيادته فى المنطقة. أقصد سيادته التى كانت.

وسادت العربية التى أصبحت تكرر على المسمع فى القرى والنجوع، فى الإعلام والتعليم، دون دراسة كافية عاشقة لمصر وعلمية فى الآن نفسه، لسبل التضييق التى صاغها المصرى عبر تاريخه، لتكون النموذج فى المنهج. لكن ما حدث ككل حياتنا كان عشوائيا، وكرس لملكات الحفظ، والحفظ يعنى التلقين والترديد كما يدرب على الطاعة. ومن هنا انتهى بعض من أفرزهم هذا المنهج إلى أن طاعة الله هى الأبقى، فقام يقتل الجميع حيث ثقفوه لأن الدين عند الله الإسلام، وقد أمر الإسلام بقتال غير المسلم وأيضا المسلم المرتد، وفى الفجوة ما بين التسارع فى إيقاع التكنولوجيا وتطورها وما يصحبها من بنية فكرية ونظم اقتصادية واجتماعية، وبين المنهج الثابت الأوحى الذى كرس له نظام تعليمنا وإعلامنا، وجد هؤلاء المبرر فقاموا يكفرون المجتمع كله ويرونه مرتدأ يستحق إعلان الجهاد عليه.

وكلامنا هنا لا يعنى بالطبع استبعاد العربية، أو المقدس، أو الثقافة العربية، أو مجانية التعليم، بل إن كل ما يعنيه أن الإعلام والتعليم الموجه قد تم بأسلوب غير علمي، وشابته الأغراض طوال الوقت، والمنهج غير العلمي ولا المصري في التفكير، لأن المنهج العلمي السليم والمصري الوطني هو عدم تغليب الثقافة العربية على المصرية، إنما نسج كليتهما في مصهر واحد، وأن هذا المصهر يجب دوماً وطول الوقت أن يكون مصرياً، وألا يغيب المشترك المصري عن أي خطة ولا لحظة واحدة.

والواضح لكل ذى عينين أن منهج التعليم المجاني قد عنى بتاريخ العرب وتاريخ الإسلام والمسلمين أكثر مما اهتم بتاريخ مصر المتصل، حتى تم إسقاط حقبة كاملة من حقب التاريخ المصري المعلن لأنها لم تكن عربية ولا إسلامية، فقط لأنها كانت قبطية.

لقد عنى منهج التعليم المجاني وحتى الآن بتكريس أسلوب الحفظ والطاعة مع نفى الآخر المخالف لمنظومتنا الشمولية، بل إن قتل ذلك المخالف شرعة وفريضة دينية تم مزجها بالوطنية، ومن هنا أسس هذا المنهج لكل القواعد المعادية لمفهوم الحريات الإنسانية، فكان أن خسر شبابنا حريتهم وتحولوا إلى آلات تنفيذ مصمتة، تعتدى على حريات الناس وحرمااتهم وأفكارهم وعقائدهم.

ومع الضعف والرخاوة للذين أصابا الدولة بعد حصدها نتائج منهجها، تحول أخطر أجهزة التنقيف (التليفزيون) إلى معرض للفكر الإرهابي، بل تعظيم الفكر وتضخيمه والتسليم له بالطاعة، وشاهدى هو البرنامج التليفزيوني الذي أذاعه تلفازنا الميمون في برنامج ديني مسائي ليلة الإسرائاء والمعراج وذلك بتاريخ ٢٧ نوفمبر ١٩٩٧.

لم يشغلنى ما قال المنتدون فيه حول عظمات وعبر ليلة الإسرائاء والمعراج، إن ماشغلنى حقاً في البرنامج، حشده لأعظم الوعاظ، ومع هذا الحشد الرفيع كنت - ومثلى كثيرون - نتوقع أن نسمع جديداً، وجرأة على الجمود والتقليد والثبات بعد حادث الأقصر الرهيب، وقولاً فصيحاً يطلب إيقاف تدفق سيل منهج المعجزات، الذى أدى بنا إلى الجلوس ننتظر معجزة الخلاص، نطيل اللحى ونحرص على المواقيت، ويحمل بعضنا الرشاشات لتحقيق فريضة الجهاد، حتى يكتمل أداء الفروض فتدخل السماء لتدمر لنا الآخر المتفوق، فى أمريكا أو إسرائيل لافرق، بدل أن نبذل نحن جهود تأسيس الحريات، التى تسمح لمناخ

العلم بالفرز، فنصعد نحن إلى مستواهم، لكن ماسمعناه تلك الليلة كان أكثر إملالاً من أفلام التليفزيون التي تكرر مفهوم سعادة الفقراء.

ولا أظن عاقلاً لم يملكه الفزع وهو يستمع من أصحاب المعالي على التوالي وبالذور قصائد المديح التي تذوب وجداً في الشيخ الشعراوي. حتى عندما جاء الدور على رئيس جامعة الأزهر المعروف بصوته الجمهوري العالي القوى، جاءت كلماته المادحة خفيفة الصوت هادئة الوقع. أما عبارة (شيخنا، أستاذنا، معلمنا) فكانت المفتوح عند كل فقرة من خطابات تقديم ختم الدولة ممثلة في مشايخها الرسميين، للخطاب الشعراوي. ذلك الخطاب الذي استمر ما يقرب من ثلاث سنوات أو يزيد ينفخ في نيران الفتنة الطائفية عبر تلفازنا المبروك، ويكفر علناً وداخلاً كل بيت إخواننا المسيحيين ويسفه عقائدهم، ذلك الخطاب الذي وقف بالمرصاد لما ينفع الناس فأفتى بتحريم زراعة الأعضاء حتى أغلق بنك العميون ضلفه أو كاد، ذلك الخطاب الذي شمت في أوجاع الوطن وكل حي أو ميت على أرض هذا الوطن، فقام يصلي صلوات الشكر لما حاق بنا من هزيمة كبرى. ذلك الخطاب الذي انشغل بالذات وبالنجومية ولم ينشغل بآلام الناس وأمانيتهم ولومرة. لقد حاز صاحب هذا الخطاب نجومية لم يصل إليها أحد قبله في التاريخ الإسلامي ومع ذلك لم ينشغل بالناس التي صنعت منه هذا الخطاب النجم.

لقد كان بإمكان صاحب الفضيلة - مع هذه الشعبية الكاسحة - أن يكون قيادة لجماهير الأمة لتحقيق مصالح الناس، كان بإمكانه أن يعلن الصيام ومعه كل المسلمين وكل المسيحيين حتى يتوقف الإرهاب الدموي على كل مستوياته، لكنه لم يفعل. كان بإمكانه أن يطلب من كل مصري بل من كل مؤمن بقدسية الإنسان وحرية في العالم، أن يجعل من حدث مجزرة الأقصر يوماً للحزن العالمي دعماً لدعوة الرئيس مبارك للعالم للوقوف ضد الإرهاب، لكنه لم يفعل.

كان بإمكانه رفع مظالم كثيرة لو قرر هو الصيام مفرداً حتى تُرفع. كان بإمكانه التحريض الشعبي في كل بلاد المسلمين على عدم التعامل مع إسرائيل أو المصالحة - بغض النظر عن الحكومات - حتى تخضع للمواثيق والعهود، لكنه لم يفعل. وكان بإمكانه أن يكون رمزاً عالمياً لطلب من كل شرفاء العالم الوقوف مع قضايانا، بنفس أساليبنا في الاحتجاج، وكان

يمكنه بذلك أن يقدم عن الإسلام وعن مصر صورة أنظف مما تقدمها جماعات الإرهاب اليوم. هناك الكثير كان بإمكان هذا الشيخ أن يفعله فى فرصة تاريخية حازها وشهرة نالها وتقدير وصل به حد التقديس، فرصة لا يوجد بمثلها الزمان مرتين، لكن الشيخ لم يفعل.

هذا هو المنهج الذى تمارسه مؤسساتنا الإعلامية الكبرى فى دولة تعاني من الإرهاب الدموى المسلح يأكل قلبها ويمتص رحيق الحياة فى كبدها. لذلك لم يكن غريبا أن نسمع من مرشد الإخوان طلبا باستبعاد المسيحيين من الجيش ودفعهم الجزية، أو نحاكم القول ونصادر الرأى، أو يظل تعاملنا مع المرأة باعتبارها مجرد نصف ذكر، ووسط هذا المناخ لم يزل مطلبنا عودة زمن الفتوحات لنستعمر البلاد ونسبى العباد، بينما نحن ملقون إلقاء فى قاع تراتب الإنسانية، فأى مرضى نحن؟!

إن هذا الكتاب الذى بين يديك يضم مجموعة مقالات تطرح تساؤلات أن لها أن تطرح أيا كانت العواقب على شخص الكاتب، تساؤلات تُصر وتكرر مطالبها بين موضوع وآخر، وهى المطالبات التى لن تتحقق إلا إذا سمحنا للسؤال الآخر بالمروء، واعتدنا سماع الرأى الجديد أو المخالف، وفتح النوافذ على العقل دون تقييد أو قمع، وأن تناقش الفكرة الأخرى ولا تطالب بمصادرتها أو تكفيرها. أن نحقق العلمنة على مساحة الثقافى على الأقل وهو أدنى المطالب. ساعتها يمكن القول أن هناك أملا فى أننا سوف نكون.

سيد القمنى

لماذا لا نحاكم
الإمام الفزالي
إذن؟!



لماذا لانحاكم الإمام الغزالي .. إذن؟!

«من المقرر لدى فقهاء الشريعة الإسلامية ، إن الردة هي الرجوع عن الإسلام، وركنها الصحيح بالكفر، إما بلفظ يقتضيه، أو فعل يتضمنه، ويعتبر كافرا من استخف بالقرآن الكريم أو السنة النبوية أو استهزأ بهما أو جحدهما أو كذبهما. أو أثبت أو نفى خلاف ما جاء بهما مع علمه بذلك عنادا ومكابرة.. أو تشكك فى شيء من ذلك».

هذا الذى قرأتم عالى، ليس تلاوة لقرار من قرارات محاكم التفتيش على المتهم قبل فصل رأسه عن جسده بالمقصلة، إنما هو اقتباس بالنص من حيثيات الحكم فى قضية نصر حامد أبوزيد.

هذه المرة يقف السؤال مع آخر جملة بتلك الحثيات وهى الجملة التى تصدر قرارا بتكفير أى مسلم يتشكك فى أمر من أمور الدين، وبالتالى فهى تعتبر الشاك مرتدا يستحق الإعدام. وبذلك وضعت فتوى أصبحت ضمن بنود القانون المصرى، حيث يتحول حكم محكمة النقض إلى سابقة قانونية ومادة يعمل بها فى الحالات المشابهة، وهنا لا بد من التساؤل عن حجم أنهار الدم التى ستسيل إذا تضاعف تصاعد ذلك المد السلفى. فمن منا لم يشك؟.

حجة الإسلام الإمام أبوحامد الغزالي وضع كتابا أسماه (المنقذ من الضلال) وضع فيه أصول الشك فى كل أمر من أمور الدين حتى وصل به المدى إلى التشكيك فى وجود الذات الإلهية ذاتها. ومن يقرأ هذا الكتاب سيشك حتما حتى لو لم يكن قد شك من قبل أبدا. والإمام الغزالي رحمه الله يأخذ بيدك فى طريق الشك يسكبه بداخل عقلك سكباً حتى آخر صفحة من صفحات الكتاب بعد أن تكون أميل إلى التشتت النفسى وأكثر ما تكون تشككا فى كل الثوابت الإيمانية، لترك يدك ويقول: أما أنا فقد قذف الله بنور من لدنه فى صدرى

فأمنت به. وهكذا كان حل المشكلة: نورا يقذفه الله فى الصدر، فإذا أنا قرأت الكتاب وانتطرت هذا القذف النورانى ولم يحدث فماذا يكون موقفى؟

فهلا حاكمنا الغزالى لأنه فقط لم يشك، بل إنه لم يترك قارئاً للكتابة دون شك، إن الرجل بذلك لا يستحق أبداً لقبه «حجة الإسلام» وللقب «الإمام» الذى كرمه به أسلافنا زمن العقل والانفتاح الحر على علوم الدنيا وقبل إغلاق كافة أبواب الاجتهاد وكل نوافذ العقل.



لكن هناك رواية أشد فصاحة من ضرب المثل بحجة الإسلام. وهى تروى لنا حدثاً هاماً قد حدث مع عمر بن الخطاب يوم صلح الحديبية، حيث رأى المسلمون نبيهم يقدم للمشركين تنازلات وتراجعات لها أسبابها الدبلوماسية التى لم يعها المسلمون، ولم يدركوا الأهداف البعيدة منها، فأصابهم غم شديد كلما قدم النبى تنازلاً، خاصة أنه كان قد وعد رجاله بدخول مكة عام الحديبية، فيروى ابن هشام أن النبى (ﷺ) قام من نومه ليعلن لأصحابه خبر رؤيا رآها فى منامه أنهم يدخلون معه مكة يطوفون بالبيت آمين، وعقب السهيلي فى شروحه بالقول «كان النبى قد رأى ذلك فى منامه، ورؤيا الأنبياء وحى» وصدق المسلمون نبيهم، لكنهم يفاجأون به بدلاً من دخول مكة يقف خارجها ويقبل صلحاً شروطه لصالح قريش، وفيه تنازلات اعتبرها المسلمون تهاوناً شديداً، وهنا تروى لنا كتب السيرة أن عمر بن الخطاب قد لقي من أمر هذا الصلح رهقاً شديداً استنفره استنفاراً حتى ذهب إلى النبى يقول: «ألم تعدنا أن نأتى البيت ونطوف به؟ قال: نعم»، لكن الإجابة بنعم يخالفها ما يحدث فى الواقع، فتأخذ الحيرة بعمر كل مأخذ مع رعدة غاضبة دفعته إلى الإسراع نحو أبى بكر ليدور بينهما الحوار المتوتر التالى:

عمر: يا أبابكر أليس برسول الله؟

أبوبكر: بلى.

عمر: أولسنا بالمسلمين؟

أبوبكر: بلى.

عمر: أوليسو بالمشركين؟

أبوبكر: بلى.

عمر: فعلام نعطي الدنيا في ديننا؟

أبوبكر: يا عمر إلزم غرزه فإنني أشهد أنه رسول الله.

وهنا يعلن عمر جهارا قوله «وما شككت منذ أسلمت إلا الساعة».

وهكذا كان عمر بصحبة النبي يراه ويعاشره ويدركه بحسه وروحه، وعاش نزول الوحي وعائنه، ومع ذلك شك في الأمر كله نتيجة موقف لم يدرك أهدافه الدبلوماسية البعيدة في صلح الحديبية.

وهنا يعقب السهيلي على موقف عمر عمر الذي شك ولم تحوله كتبنا التراثية إلى مناقق ولم يتهمه أحد بالارتداد، يقول (السهيلي):

«وفي هذا أن المؤمن قد يشك ثم يحدد النظر في دلائل الحق، فيذهب شكه، وقد روى عن ابن عباس أنه قال: هو شيء لا يسلم منه أحد»، وهكذا يستنتج شيخ شراح السير أن المؤمن قد يشك، بل إن ذلك الشك لا يسلم منه أحد على الإطلاق مستندا في ذلك إلى حديث عن حبر الأمة وراوى الحديث الثقة عبدالله بن عباس.

وفي الحديبية حدث من المسلمين عصيان عام على النبي ﷺ، وهو ما لا يدخل فقط في مفهوم الشك، بل في عصيان الرسول والله معا، لموقف لم يعجبهم من النبي، فقد أصابهم الكرب لما قدمه رسول الله ﷺ من تنازلات في هدنة الحديبية، وبعدما استكملت التوقيعات على الصحيفة قام النبي يأمر المسلمين باستكمال شعائر العمرة التي لم تتم قائلا: «قوموا فانحروا ثم احلقوا» لكن ليلخص لنا ابن الأثير رد المسلمين على نبهم، فقد تعصبوا جميعا عليه «وما قام أحد حتى قال ذلك مرارا فلم يقم أحد منهم» هكذا ظل الرسول يردد أمره ولا أحد يطيع على الإطلاق، ومع ذلك لم يصدر ضدهم حكما بالارتداد ولا فرق

بينهم وبين زوجاتهم، فقط عقب بالاستحسان على من حلقوا وبالاستهجان على من قصروا.

فقالوا له: يا رسول الله فلم ظاهرت بالترحيم للمحلقين دون المقصرين؟ قال: لم يشكوا، فقط ظاهرتهم النبي من لم يشكوا لكنه لم يطرد كل الذين شكوا من ألوف المسلمين من دين الإسلام. ولم يوقع عليهم أى عقاب.

وكتب السير والأخبار تكتظ بمثل تلك الأمثلة لعل أبرزها أن المسلمين أصحاب رسول الله رغم الوعد بالنعيم وبجنة الخلد، ورغم مصاحبتهم وملاحقتهم للنبي (ﷺ)، ورغم أنهم عاصروا وشاهدوا وعانوا ذلك الزمن العظيم زمن نزول الوحي، فقد فروا من حول رسول الله ﷺ فى غزوة أحد، حتى وقف وحيدا فى الميدان ينادى: إلى يافلان. أنا رسول الله فما يعرج إليه أحد والنبل يأتى إليه من كل ناحية» حتى قذف أبودجانة بنفسه فوقه ليحميه.

ولحظة الهزيمة وقف بعض الصحابة من قريش يقولون: «إن رسول الله قد قتل فارجعوا إلى قومكم فيؤمنونكم قبل أن يأتوكم فيقتلونكم» أليس مثل هذا القول شكاً فى الأمر برمته من الألف إلى الياء؟ (برواية البيهقي). وقول آخر قرر فيه بعض المسلمين اللجوء لرأس المنافقين عبدالله بن أبى ليستا من لهم من أبى سفيان وهو مارواه ابن كثير فى قوله: «فقال بعض أصحاب الصخرة - أى الذين احتموا فوق صخرة أثناء القتال - ليت لنا رسولا إلى عبدالله بن أبى فيأخذ لنا أمانة من أبى سفيان، يا قوم إن محمدا قد قتل فارجعوا إلى قومكم». أما البعض الآخر من المسلمين لما رأى الهزيمة فقد فروا على رأسهم عثمان ابن عفان، حتى ابتعدوا عن المدينة بحوالى ثلاثين ميلا (فرار من الميدان، ومن حول رسول الله بذاته)، ومع ذلك جميعه لم تصدر ضدهم أحكام تكفير وارتداد وتفريق، وكانوا صحابة رسول الله المقربين.



والسؤال الآن: ألم تقرأ هيئة المحكمة الموقرة ذلك ومثله كثير فى صحيح السير والأخبار الإسلامية قبل أن تصدر حكمها بأن من يشك قد كفر؟ وخاصة أن المتشدد إلى هذا الحد فى أمور الدين يجب أن يكون على علم بتفاصيله ودقائقه حتى لا يهلك الناس بأحكامه

ويهلك معهم بقصور علمه، ناهيك عما ينتظرننا إزاء مثل ذلك الحكم أمام موازين العدل الإلهية يوم الدين.

ولله درالإمام الغزالي وهو يقول في كتابه إحياء علوم الدين «من لم يشك لم ينظرومن لم ينظر لم يبصرومن لم يبصر يبقى فى متاهات العمى والضلال». طوبى للإمام حجة الإسلام زعيم الشكاك فى مرقده، وليغفر الله لمن لا يعلم فيتبختر فى متاهات العمى والضلال فخورا بأنه أبدا لم يشك، وليغفر لنا إذا لم نشك، وليهدنا إن شككنا، فالأمر كله معلق بإرادته الكلية الشاملة وليس لنا مع أمر الله أمر.

السؤال الآخر
في قضية نصر
أبو زيد



السؤال الآخر فى قضية نصر أبوزيد

«يعتبر كافراً .. من عبد أحداً غير الله أو أشرك معه غيره، أو أنكر وجود الله، أو أى من خلقه مما أخبر عنه الله فى القرآن الكريم. بأن أنكر الجنة أو النار أو الجن والشياطين أو العرش أو الكرسي».

القول المذكور عالى، نص مقتبس من حيثيات حكم الاستئناف والوارد فى صحائف محكمة النقض فى حكمها التاريخى بتفريق (نصر حامد أبوزيد) عن زوجته، لأنه كتب فى أعماله المنشورة كلاماً اعتبرته المحكمة موجباً لإصدارها قراراً بارتداد الرجل عن دين الإسلام.

وتعريف الكافر فى حيثيات هيئة المحكمة الموقرة يشرح لنا كيف يعد المسلم كافراً، بتعديد لمجمل معلومات دينية أخبر بها القرآن الكريم إن أنكر المسلم واحدة منها عُـد كافراً، لأنه ينكر بذلك معلوماً من الدين بالضرورة.

ولم يفـت هيئة المحكمة الموقرة أن تضع ضمن ذلك المعلوم أبعدـه عن قناعات العقل ومنطق المحسوسات وأقربه إلى المسلمات الغيبية. وذلك مثل: الملائكة والجن والشياطين والعرش والكرسى، وهى أمور ليست ضمن ما يندرج تحت قناعات العقل، فكيف يعقل ما لا يُدرك؟ أليست هذه بقاعدة العلم الأولى؟

ثم تضيف حيثيات الحكم أن (نصر أبوزيد) قد قال فى أعماله قولاً خطراً هو «أن هناك معركة تقودها قوى الخرافة والأسطورة باسم الدين والمعانى الحرفية للنصوص الدينية، وتحاول قوى التقدم والعقلانية أن تنازل الخرافة أحياناً على أرضها» وتعقب المحكمة بقولها: «وهذا من الكفر الصريح والأساطير معناها الأباطيل .. وهو ما نعت به الطاعن (أى نصر أبوزيد) الدين والنصوص الدينية، زاعماً أنهما ينطويان على أساطير».

هكذا ودفعة واحدة فسرت هيئة المحكمة كلام نصر على كيفها (أى والله العظيم على

كيفها)، ثم أخذت معنى واحداً من معانى كلمة (أسطورة) لتدعم رأيها المتفرد لإدانة الرجل، فالرجل أبداً لم يقل باحتواء الدين على أساطير، أو لوجه الحق هو لم يفصح بذلك، وكان هذا كافياً، فالمحكمة لاتحاكم الضمير لأن الحكم عليه لله وحده، الرجل قال إن من يفعل ذلك قوى الأسطورة التى تستخدم الدين ولم يقل الدين، لكن لأن حكم النقض كان آخر السلسلة الطويلة للوصول إلى الهدف، كان لابد من إدانة (نصر) وتكفيره. أما الأمر الثانى فهو أنها اقتصرت على معنى واحد لكلمة أسطورة، رغم أن لها من المعانى الكثير، فيقول ابن منظور علامة اللغة العربية فى لسان العرب وهو مرجعنا اللغوى جميعاً، تحت مادة (سطر).

«سطر: السطر هو الصف من الكتاب.. والجمع من كل ذلك أسطر وأساطير وسطور.. والسطر هو الخط والكتابة.. وقال الزجاج فى قوله تعالى: وقالوا أساطير الأولين.. معناه سطره الأولون.. وسطر سطر إذا كتب، قال الله تعالى: ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾، أى ما تكتب الملائكة.. والأساطير الأباطيل، أحاديث لانظام لها».

هذا ما كان من فهم المحكمة الأوحده، وتفسيرها الأوحده، لأمر عدد من التفسير كان يجب أن تؤول لصالح المتهم حسب القاعدة الشرعية والفقهية القانونية، لكن المحكمة رأت ما قررت أن ترى .

لكن ذلك يفتح باباً واسعاً لطرح أسئلة حيرى، ما دامت المحكمة قد فتحت بقرارها التاريخى، وأصبح من الواجب مناقشة مسألة الأساطير حسب الأصول.



هنا نعرف أن الاستعمال الدارج، قد درج على استعمال كلمة أساطير فيما بعد وبمرور الوقت، لوصف الأحاديث التى لاتخضع لقوانين العقل والمنطق، أو الأحداث التى تكسر قوانين الطبيعة وقواعدها الثابتة، لذلك أصبح المؤمنون بدين معين يفضلون وصف تلك الأحاديث والأحداث بكلمة (معجزة) لكنهم فى نفس الوقت يصفون شبيهها عند الأديان الأخرى المخالفة أو العقائد التى ينظرون إليها باعتبارها باطلة، يصفونه بأنه (أسطورة)..

ومثال لتوضيح ذلك ، نحن نؤمن باعتبارنا مسلمين، بقصة الإسراء والمعراج، كما أخبرنا

بها القرآن الكريم، كما نؤمن بوجود كائن غريب الشأن يدعى البراق، فهو دابة تعقل وتفهم، شكلها ما بين البغل والحمار، أشبه بالحصان، له جناحان، حمل سيد الخلق من مكة إلى القدس في المعراج، كما جاء في حديث المصطفى ﷺ.

وفي أقاصيص الديانة اليونانية، كان للإله زيوس دابة للركوب، هي حصان ذو أجنحة يسمى (بيجاسوس)، هنا يرى المسلمون أن قصة البراق معجزة حدثت بالفعل، أما بيجاسوس اليوناني فهو أسطورة. وهكذا أخذ معنى الأسطورة تحديده قياسا على المعجزة.

لكن ما لا يفوت لبيب هنا، هو أن الاختلاف هنا اختلاف اصطلاحى لفظى فقط، وليس خلافا حول معنى المضمون، فكلتا القصتين تتحدث عن كائن يخرج فى تكوينه على القوانين الطبيعية الصارمة، كما يخرج على مألوف العقل وقواعده، لكن المؤمن هنا يميل إلى تصديق مآثره وتكذيب مآثر الآخرين، وتسمى قناعته هنا إيمانا، أى تسليما وتصديقا قلبيا، لكنها لا تسمى معقولا، لأن الأمر لا يخضع لنواميس الكون وللقوانين العقل. بل يتم هنا التغاضى عن أبسط قوانين العقل وهو قانون الهوية، أى أن يلتزم العقل ذات الشروط فى ذات الموقف فلا يناقض نفسه، وهذا القانون هو ألف باء علم المنطق، أى أنه إذا صدق قصة البراق، فلا بد حسب قانون الهوية البسيط أن يصدق قصة بيجاسوس، وإن لم يقبل قصة بيجاسوس فعليه بالتالى ألا يقبل فكرة البراق، المقصود من هذا المثل توضيح أن الخلاف بين المعجزة والأسطورة خلاف شكلى فقط، لا يبنى الهجوم على الدين، ولا وصف بعض ما ورد به بأنه أباطيل، فقط هى مما لا يخضع لقوانين العقل ولا لقوانين الطبيعة، هى موضوع تصديق وإيمان. ولا محل هنا لتكفير إنسان على اختلاف تسمية اصطلاحية، مادام المتفق على المضمون خروجه عن المألوف وكسره لقوانين الطبيعة ومادرج عليه العقل من قواعد. فهل يمكن لأحد أن يختلف حول معناها هذا؟



لقد وردت فى كتاب الله الكريم وفى الحديث الشريف عن سيد الخلق ﷺ كثير من النصوص التى تحوى مضامين وسورا لاتخضع لنواميس الطبيعة ولا العقل، لذلك هى محل اعتقاد وتعتمد على أمر لا يمكن لبشر الحكم عليه، تعتمد على الضمير الداخلى الذى يقبلها أو يرفضها. وإذا كان اصطلاح أساطير يحمل فى معناه ماخرج على قوانين الكون والعقل،

فإن استخدامه لا مثلية عليه، فأساطير الأولين في ابن منظور هي مأسطره الأولون، وأن (ن والقلم وما يسطرون) معنى ما تكتب أظهر المخلوقات وهي الملائكة.

لذلك، ولأننا مسلمون، فنحن نؤمن تماما إيماننا قاطعا أن الملك سليمان كان يسمع حديث النملة الذكية، وأنه كان يحاور هدهدا لبقا، وأنه كان يركب بساط الريح، كما نؤمن أن صخرة قد حبلت وتمخضت فولدت ناقة الله، ونؤمن بالحصان المجنح الذي حمل رسول الله ﷺ من مكة إلى القدس، ونؤمن بالملكين هاروت وماروت وقصتهما مع الغانية رسول الغواية المعروفة بالحمراء أنثى كوكب الزهرة.

كما نؤمن أن الله قد أرسل على جيش أبرهة قوات جوية تمثلت في طير أبابيل تحمل حجارة جهنمية لتلقيها على جيش الفيل، فكانت أول قاذفات جوية في التاريخ، كما نؤمن أن نمرود العراقي كان أول رائد فضاء في التاريخ، عندما ركب صندوقا تحمله النسور يريد بجهله وطغيانه أن يصل إلى رب السماء ليقتله، كما نؤمن أن النار لم تحرق إبراهيم الخليل، وأن معدة الحوت لم تهضم يونساً رغم سكونه فيها ثلاثة أيام . ولا نعلم إلى أى حد تطلب هيئة المحكمة منا الإيمان حتى لانكون من الكافرين، فهناك أمور أشد استعصاء على العقل، وردت بكتب السير والأخبار، فهل يجب أن نؤمن بها بدورها أم لا، يعنى هل يجب أن نؤمن أيضا بأن النبي ﷺ كان يبصق على جرح مسلم يحتضر فيقوم لثوه سليما معافى، أو أن تشرب أم أيمن بوله فلا تمرض بعدها، ومثل ذلك كثير. أن مانريد أن نقوله أن تلك جميعا نماذج لاتدخل ضمن بنود العقل ولا تخضع لنواميس الطبيعة، فالصخرة حسب القوانين لا يمكن أن تلد، والريح لا يحمل بساطا، والهدهد لا يتحدث، والحصان لا يطير، والنار لا بد أن تحرق، لكن هذا جميعه محل تصديق وإيمان لأننا مسلمون. لهذا نحن نؤمن بها عن يقين، لكن يجب أيضا أن نعترف بهدوء أن الإيمان بها شىء، وأن قوانين العقل وفيزياء الكون شىء آخر، لذلك فالعقل لا ينتظر إمكانية حدوثها إلا إذا كان به خلل، وإلا خلطنا الحابل بالنابل، ودمرنا أنفسنا بأيدينا، وهو ما يحدث الآن فعلا نتيجة الخلط بين ما يفرضه الإيمان من تصديق، وبين ما هو ممكن الحدوث، حتى أصبح بالإمكان حدوث مثل تلك الأحداث الخارقة فى أى وقت إذا ما خلصت الضمائر، وساعتها سيتدخل الله فورا بمعجزات جديدة، لتخليص عباده المؤمنين مما أصابهم، ومثل ذلك ما قد حدث بعد

مجموعة الهزائم التى أصابتنا فرفعنا شعار ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يَغْيِرُوا مَا بَأَنفُسِهِمْ﴾، وانصب هذا التغيير على الجانب الطقوسى فى أداء الشعائر، وعلى الجانب الأخلاقى، (وإن كان فى مستواه النظرى والقولى دون العملى). وتصور الناس أنهم باتباع الفروض والسنن والنوافل وسيرة السلف، سيحوزون رضا الله فيتدخل فوراً لإنقاذهم بمعجزات، لأن الفرق بيننا وبين العدو قد أصبح لاتحله إلا معجزات. فكان أن هبطنا إلى مستوى لم نصل إليه من قبل، من كسل عن تحصيل المعارف العلمية اللازمة للارتقاء والتقدم، وجلسنا ننتظر فى بلاهة بليدة ذلك التدخل الإلهى الإعجازى. دون أن نتصور أن الممكن الحدوث فقط هو الأخذ بأسباب العلم والكد والعنت فى سبيله الذى هو سبيل ارتقاء الأمم، وساعة نفعل ذلك يمكن أن نقول أن ذلك قد حدث بفضل من الله وإحسانه.



مرة ثالثة ورابعة وخامسة، نؤكد إيماننا الذى لايهتز بكل ما أخبرنا به القرآن الكريم بالوحى الصادق، لكن مادمنّا قد تطرقنا فى الأمر إلى هذا الحد، فيجب الاستطراد بالقول: أن الإيمان أمر، وشروط العقل، والعلم أمر آخر، ويجب ببساطة أن نعترف أن بينهما تناقضا عظيما، لاتحله أبدا تلفزة مصطفى محمود التفسيرية، وربما تقف النفس حيرى بين شروط العقل والعلم، وبين الإيمان ومطالبه، تطرح السؤال الآخر، تطلب الاتساق بين ما وقر فى القلب، وما يجب أن يصدق العقل، لكنها أبدا لاتبغى من وراء ذلك شكاً ولا مروفاً ولا كفراً، فهى تعتزل بالإسلام وهى به عزيزة، فقط تريد الاطمئنان لطوية فؤادها حتى لاتصاب بالشيزوفرينيا، ذلك الفصام المخيف الذى أصاب جماهيرنا العريضة الغليظة، حتى أمست بلادنا مستشفى أمراض عقلية كبيرة، يكتظ بالمرضى، ويخلو من الأطباء .

وهذه المشكلة واجهها المفكرون المسلمون الأوائل وأرقتهم فتحدثوا فيها وتجادلوا، وحاولوا حلها تحت عنوان (التوفيق بين العقل والنقل) والنقل هو الوحى، فاعترفوا ببساطة ودون خوف أن هناك تناقضا وتنافرا يحتاج إلى توفيق، وحاولوا ولم تصدر ضدهم أحكام تفريق، ولهم أجر المحاولة.



لكن الدنيا منذ تلك الأيام تغيرت تغيرا سريعا، وحقق العلم منجزات لم تخطر على

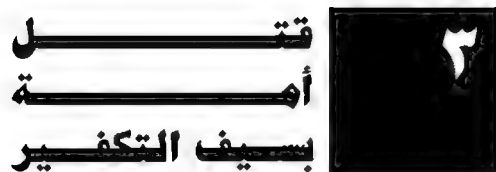
قلب بشر، وأصبح بالإمكان للإنسان أن يعلم ما فى الأرحام، وأن ينزل الغيث كيف شاء وحيث شاء وبالقدر الذى يشاء، وأمكن التدخل فى جينات الوراثة بهندسة الوراثة، والقادم طوفان من المعرفة أعظم - ونحن هنا نقف نتفرج وربما لانفهم ما يحدث، نبسمل ونحوقل (وفى اللحظة الحاسمة فى تاريخنا، ربما ذهبنا بعدها إلى مقلب نفايات الأمم) نصر على إغلاق أبواب الاجتهاد، ونرفع سيوف التكفير، ومن يحاول الاجتهاد مخلصا لوجه الوطن والناس والدين تدينه محاكمنا الوقورة بالردة.

أترون إلى أين يمكن أن يصل بنا حكم المحكمة؟

أيها السادة: لم يعد هناك وقت، فالدنيا فى تسارع هائل، وربما فات أوان اللحاق بها إن لم نلهث لهاثا صادقا، لكن الكارثة أن الواقع يفوح بغير ذلك، فنحن لم نزل ندفع مكافأة لمن حفظ القرآن من الصبية، أكثر مما ندفع كتقدير لعلماء مصر الأفذاذ، نحن لم نزل فى وادى الأفاعى والمصباح السحري وعفاريت سليمان.

أيها السادة : إما أن نفتتح نافذة السؤال دون حرج أو تحريم أمام العقل، أو أن نتكفن ونلتحد أشرف لنا، وقبل أن نذهب فى طوايا القرون الغواير غير مأسوف علينا.

أيها السادة: فقط افتحوا النوافذ أمام السؤال، واحلموا بقدر الممكّنات وتوقفوا عن التنادى بالمغازى والحديث عن الغنائم والسبايا، ألا ترون أنكم ذهبت بنا إلى المغانم لكن كنا نحن المغانم؟ اغمدوا سيوفكم العتريّة التى تكسرت أمام الأعادى جميعا ولا تشهروا علينا ما بقى بها من نصال صدئة. هناك الآن حرب أخرى أدواتها العلم وما يحتاجه من جهد وعنت ومشقة إن كنتم فاعلين، حاولوا أيها السادة أن تحاربوا معركة الحضارة ولو مرة إن كنتم تعقلون.



ضريبة الحرية شرط التقدم:

قتل أمة بسيف التكفير

بهدهوء شديد يجب أن نعترف أننا نعاني من أزمة حضارية طاحنة وصلت آخر مراحلها وأصبحت تهدد وجودنا على سجل التاريخ الآتى، فى مرحلة فاصلة من تحولات هائلة آتية تحدث على كل المستويات فى كوكبنا الأرضى، وأن نقربساسة أننا فى القاع نتنفس الخرافة ونستحلب الأسطورة ونستطيب الهيام فى العوالم السحرية. وإذا لم نلق الآن فى الماء الراكد بكل حجر تطوله أيدينا وبسرعة وبقوة ودون وجل أو خوف من سادة المنهج السائد وسدنته والمتفعين ببقائه جاثما فوق صدورنا ومضيبا لعقولنا، فربما لانكون بعدها أبدا، وإذا لم نفتح الآن كل النوافذ لتجديد هوائنا الآسن دون وجل من تحريمات ورعب من سيف التكفير المسلط على رؤوسنا، فعلينا أن نكتب آخر الحلقات فى يومياتنا قبل أن نذهب فى طوايا القرون الغواير، ويتلو التاريخ على الدنيا آياتنا عبرة مع عاد وثمود والهنود الحمر.

وإجمالا يمكن القول أن التاريخ العربى بعد ظهور الإسلام قد مر بمرحلتين متناقضتين، تحولنا فى الثانية عن الأولى، عن الثقافة المتحركة المفتوحة المتجددة إلى الثقافة الثابتة المغلقة الواحدة، ومن الطبيعى أن ترتبط كل ثقافة منهما بالمرحلة التاريخية التى أفرزتها ارتباطا منطقيا واضحا ومتسقا، فعندما كانت الدولة الإسلامية امبراطورية قوية عزيزة مقتدرة، لم تخش على نفسها من الآخر وثقافته، فانفتحت على كل علوم الدنيا وفلسفتها ودياناتها، وقامت حركة ترجمة واسعة نشطة لمعارف الدنيا وفلسفتها، ومنها كفر صريح من وجهة نظر دينية إسلامية، بل نجد بين كوكبة المفكرين الكبار والذين نحتفى اليوم بذكرى إبداعاتهم ونرفع راياتهم فى وجه من يتهمنا بالتخلف على إطلاقه من كان يعلن كفره وصريح إلحاده، لقد كانت الدولة قوية والذات القومية متحققة فلم يرم أحد هؤلاء بحجر، لأن التجربة حينها أوضحت بجلاء أن العلم لا يتزعزع إلا فى بيئة حرة تماما، تخلص من كل

ألوان التحريم، لذلك قبلوا ضريبة الحرية من أجل التحقق والتقدم، وقد وضعت لديهم ضرورة تلك الضريبة لأنها أسهمت بدور عظيم في إثراء السجال الذي حدث آنذاك. ثم تلت ذلك مرحلة التحريمات الكبرى بانتهاء زمن المأمون آخر الحكام المستنيرين، ومن يومها ونحن في انزلاقنا الكارثي نحو القاع، فإذا وعينا هذه الحقيقة البسيطة بدأنا أول كشفنا، وهو أن السبب في توقف بلادنا عن إنتاج مفكرين وعلماء كبار، هو غياب مناخ الحرية، فالعلم لا يتنفس مع القيود وأغلال التحريمات.

ولاشك أننا نفصح بجلاء أن منهج قراءة الدين كان وراء تغييب مناخ الحرية في بلادنا، وقد تم استخدامه انتهازيا على ثلاثة مستويات انتهت بنا إلى مانحن فيه الآن.

المستوى الأول: يتعلق بمنهج البحث في الدين ذاته، باعتبار بعض مناطقه من المناطق الممنوعة من البحث، وانتهى إلى إسدال ستار كامل من التحريمات على كل مناطقه، وتم أثناء ذلك استبعاد كل ما وصل إليه البحث في المقدس وشئونه إبان القرون الإسلامية الأولى، وتحويله إلى تاريخ موقوف وغير فاعل، يتم درس أغلبه من وجهة نظر تخالفه وتكفره، بل ويتم أحيانا إفقاد الذاكرة المتعمدة في المناهج التربوية وعبر وسائل تسمى وسائل التثقيف العام، بينما لم تعرف عصور الازدهار أي لون من التحريم المحرض وانتشرت علوم الكلام ومدارسه التي اجتترأت على كل أمر وأخضعته للبحث والتدقيق العقلي، وعلوم التصوف التي اصطنعت أردية ظاهرة الإسلامية لتخفى وراءها ثقافات وديانات البلاد المفتوحة، وعلوم الفلسفة التي لم تجد حرجا في مزج نظريات - تعد من الوثنيات - بأصول إسلامية لافروع، كما نجد نظريات الفيض عند الفارابي وابن سينا، وعلوم إلحاد ناقشت بالحجة ما رآته ليس من العقل في نصوص الدين وما قد تدحضه، كما نجد عند الطبيب أبوبكر الرازي وعند المعري وعند الحجة الكبير في هذا الأمر ابن الراوندي صاحب مخاريق الأنبياء، ومن أجل ذلك وضعت ثلاث قواعد تأسيسية لعصور التخلف والتردى هي: رفض وتكفير ونفى واستبعاد وربما تصفية كل بحث ينتهي إلى إنكار معلوم من الدين بالضرورة، وأنه لا اجتهد على الإطلاق مع نص، وأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. هذا رغم أن التاريخ يشهد أن تلك التقييدات الثلاثة قد تم كسرهما لصالح البلاد

والعباد بيد صحابة رسول الله أنفسهم إن قصدا ميّتا مع سبق إصرار وترصد، وإن سلوكا عفويا إنسانيا، فقد اجتهد ابن الخطاب إبان خلافته، ولما يمض على رحيل الرسول سنوات تعد على الأصابع، وكان اجتهداه مع نصوص واضحة، بل وأوامر قدسية، كما حدث فى إلغائه سهم المؤلفة قلوبهم، ومن قبله كان ذات الاجتهاد عندما ألغى أبو بكر سهم آل البيت وأخذ ابن الخطاب بخصوص السبب لابلفظ النص عندما فعل ذلك، وفى مواقف أخرى، كما فى إيقافه حد السرقة عام الرمادة، بل وأوقف حلالا كان معمولابه زمن النبوة عندما وقف على المنبر وقال: متعتان كانتا على عهد رسول الله وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما، متعة الحج ومتعة النساء.

هذا ما كان عن إنكار السلف للقواعد الثلاثة التى تأخذ بخناق البحث فى شئون المقدس عن قصد وعرض، وكان هناك إنكار آخر بالسلوك الإنسانى العفوى وصل إلى حد إنكار الدين كله، وكما حدث فى واقعة أحد، فرغم الوعد بالنعمة وبجنة الخلد عند الاستشهاد فى سبيل الله، ورغم أن رسول الله بينهم، ورغم أنهم عاينوا الأمر وعاشوه، فقد فرأجلة الصحابة من حول رسول الله بينما يناديهم «إلى عباد الله أنا رسول الله» ولا يغيثه أحد حتى أوقعه القرشيون فى حفرة وأصابوه إصابات بالغة وضربه ابن قمئة ضربة شديدة ظل يشكو منها شهرا، وفرعثمان بن عفان مع رفقة له حتى أبعد عن المدينة حوالى خمسة وعشرين كيلومترا، ووقف آخرون يحتمون بصخرة يقولون إن رسول الله قد قتل، وأن عليهم العودة إلى أهلهم، وأن يرسلوا لهم عبد الله بن أبى بن سلوب ليستأمن لهم قريشا: أليس فى ذلك إنكار للأمر كله؟ ومع ذلك لم يتعرض هؤلاء للتكفير ومحاكمات التفريق وكانوا صحابة رسول الله المقربين.

ولكن بمجىء القمع الفكرى والسياسى وتضافره مع القمع التحريمى والتكفيرى تم تععيد القواعد الثلاث لعصور الانحطاط، وهو الأمر الذى هوى بنا إلى ذلك السقوط الأمثلة، وأضر فى الوقت ذاته بالمقدس ضررا بليغا، بحيث تمكن ذوو النفوذ ووسطاء الدين المحترفين من التعامل مع نصوص الدين بانتهازية قبيحة لتسخيره للمآرب والمنافع وتبرير أشنع المظالم لذوى السلطان، وبالأمس كان صدام حسين يغزو جارا عربيا بعد أن رفع

لاءات الله أكبر على أعلامه، واستدعى رجال دين مشهود لهم بالكفاءة يقطعون الآيات التي تبرر بل وتسوغ بل وتدفع إلى احترام نمودجه، وفي الآن ذاته اجتمع رجال دين آخرون لا يقلون شأنًا بالعربية السعودية لتبرير على النقيض تمامًا، وبالأمس القريب غنينا للاشتراكية بآيات قرآنية، ومع التحول إلى الاقتصاد المفتوح على السوق، وجدنا أننا كنا خاطئين لأن الله قد فضل بعضنا على بعض في الرزق، والمدهش أن تجد بعض هؤلاء المحترفين هم هم بأشخاصهم في كلتا الحالتين، يستثمرون (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب) من أجل دمار البلاد والعباد والإضرار بالبليغ بالمقدس ذاته.

هذا ما كان على المستوى الأول لمنهج الهبوط العربى، أما المستوى الثانى فهو يرتبط بالأول ارتباطاً وثيقاً ويعبر بوضوح عن أسباب هذا السقوط المخيف، حيث تم تحريم أبحاث لاعلاقة لها بالبتة بالدين فيما يتعلق بالتكوين الكونى والكائنى، وقد اتخذ هذا المستوى سبيله على خط آخر يحاول التوفيق بين المنجز العلمى وبين النص المقدس، ليس من أجل العقل والعلم، ولكن من أجل تسفيه العقل والعلم، بالقول إن كل ثقافة ممكنة قد توافرت داخل مقدسنا وليس بنا حاجة إلى إعمال العقل أو البحث العلمى الذى قد يؤدي إلى نتائج مضللة وكافرة، وحتى الآن يمنع فى بعض مدارسنا العربية تدريس نظريات النشوء والارتقاء والتكيف البيئى، وهى الأساس الأول لعلوم كالطب وفروعه جميعاً، بل إن هناك فتوى صريحة صدرت بالأمس القريب بتكفير من يقول بكروية الأرض، وهكذا كان المستوى الثانى الذى اضطر شقه الثانى للتعامل مع المنتج العلمى الذى أصبح ذا أثر فى الحياة الإنسانية الآن، ولا يمكن رفضه فقام الوسطاء المحترفون والمتكسبون اللاعبون بمصير الأمة بالتعامل معه بعقلية قاطع الطريق، ليقولوا أننا قد اكتشفنا ذلك جميعه قبل أن يكتشفه العقل الإنسانى القاصر، عبر ربنا فى مقدسنا التليد.

وعلى المستوى الثالث تمكن الإنسان خلال قرون طويلة من النضال والكفاح والصراع الدموى مع القهر والعسف والجور أن ينتزع لنفسه مزيداً من الحريات لم تكن قد تأكدت زمن الدعوة الإسلامية، فتم إلغاء وصمة العار الكبرى فى جبين الإنسانية المتمثلة فى استرقاق الإنسان لأخيه الإنسان، نعم قدم الإسلام فى زمن الدعوة مساحات من الحريات

تعد تقدما قياسا على زمنه كالتحبيب والترغيب فى العتق، لكنه أبدا لم يبلغ الرق أو يجرمه، ولم تزل تتلى آيات العبيد وملك اليمين دون أن نحاول اجتهدا يعوض فارق القرون الطوال منذ عمر ابن الخطاب الذى خالف ومنع وحرم وأنكر ولما يمض على سكون الوحى بضع سنوات.

وضمن هذا المستوى تدرج حالات هى الكارثة بعينها، فنحن أبدا لم نحاول بل حاربنا وكفرنا أى محاولات لتحريك الثابت من أجل مصالح البلاد والعباد، كالموقف النصوصى من المرأة التى لم تزل حتى الآن نصف رجل جاهل بليد لا حاجة إليه وحتى لو كانت عالمة ذرة أو طبيبة أو مهندسة.

أصبح منهج الانحطاط والتردى لا يملك الحجة الكافية، ولم يعد لديه سوى منطق القتل والتجريم، إنه منهج الهبوط العربى.

الكـــوارث
الإلهيـــة



السؤال الآخر:

الكوارث الإلهية

قارئ مهلا، فأنا أعلم أن العنوان شديد الاستفزاز، لكنى قصدته قصدا، لعلمي أن الحس الإنساني لديك يفزع من الكوارث، ويستنكر أن يكون سببها مصالح أفراد أو جماعات، ويصاب بالهلع إن نسبناها إلى الله، لكن ما العمل؟ وهو المنهج الذى ران على تاريخنا المسترخى المتثائب طوال القرون السوالف، ولم يزل كذلك.

لاشك أن أى واحد منا ستتأذى نفسه من عمليات التطهير العرقى التى تمارسها عنصرية الصرب، ولا جدال أن ذات المشاعر تتابنا كلما تذكرنا الجريمة الكبرى فى حق الإنسانية فى هيروشيما ونجازاكي، أو كلما ورد على خاطرنا هتلر وما جلبته الدكتاتورية على البشرية من دمار، ولا جدال أن قلوبنا تقطر ألما كلما تذكرنا ضرب بغداد أو قانا الوحشى، أو حتى لو مر طائف الهولوكست بخيالنا، إن كان قد حدث، فنحن بشرو إنسانيتنا هى رقينا، وهو الرقى الذى يجعل أحاسيسنا تقشعر، وأنفسنا تنزع، عندما نعلم أن بشرا، أو حتى مجرد كائنات قد تعرضت لمذابح أو لفناء، بسبب أطماع أو مصالح أو تعصب، فى أى مكان على كوكبنا الأرضى.

فما بالنا لو أن هناك كوارث كبرى، تحمل دمارا رهيبا، ونيرانا تاكل الأجساد، أو صخورا تسحق العظام، وأن هذه الكوارث تحدث برغبة إلهية، ثم بفعل إلهى، هنا تقف النفس حيرى لأنها تؤمن بالله وتحبه، وتراه الكمال ذاته، والنقمة والأحقاد وإفناء الناس ليست من الكمال، فالله خير كله، لا يتسلى بتقتيل الناس، ولا تطيب نفسه لصراخ العجائز وهلع الأطفال، ولا يسعد بشقاء العباد ودمار البلاد، فنحن نحبه لأنه رحمة، وليس لأنه نقمة. لكن كل تلك المعانى الرفيعة تغيب عن بعض مشايخنا، الذين لا يخرجون أبدا عن منهجهم، يسرون عليه بالنعل حذو النعل، ولا يفتحون نافذة واحدة على العقل، ونموذجا لهؤلاء ماخرج علينا به شيخ عظيم السميت، جهورى الصوت، يشخط وينظر فى عباد الله الغلابة، عبر شاشة تلفازنا الميمون، ليقرعنا على ما أصاب بلادنا من زلزال عظيم، فنحن السبب،

ومن هنا يبطل العجب، فقد استثرنا علينا غضب الله، فقام يدمرو ويهدم ويسحق ويبيد ويهلك، يخلط اللحم بالحجر، والأسفلت بالدم، ويكتم صرخات الألم تحت الأنقاض، بل وأوضح فضيلته أن ذلك الزلزال كان مجرد بروفة تمهيدية إن لم نرتدع عن غينا، واستعراضا لقدرات الله علينا نحن الفقراء إليه، لقد كان الزلزال إنذارا وبيانا عمليا لما يمكن أن يفعله الله إذا غضب.

أبدا لم يشغل فضيلة الشيخ باله - وهو في عيشة الهنىء وطعامه المرىء - ودابته الميكانيكية الفاخرة، لإبدعاء الركوب ودعاء دخول الغائط، لم يشغل بقلوبنا وهى ترتجف هلعا على بلادنا وإشفاقا عليها، لم يشغل بوطن سادته العشوائية وسوء التخطيط والفساد، حتى بات على شفا ضياع دون حاجة إلى زلازل، فمصر فيها ما يكفيها، ترجف لها قلوبنا وتئن أكبادنا إشفاقا من أى جلل يحيق بها مع ظرفها الخاص وسدها العالى الذى يدفعنا إلى وضع الأيادى على القلوب هلعا، كلما حدث طارئ، لأن زلزالا عقابيا مما يتوقعه شيخنا سيذهب بالحرث والنسل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وساعتها لن يجد الشيخ دابته الميكانيكية، ولا حتى مجرد دابة، بل سيذهب هو نفسه مع الغابرين، بعد استعراض القوة العظمى التى يحذرنا من غضبها، كما لو كنا ناقصين قوى عظمى تستعرض علينا نحن بالذات، للمزيد من الهوان والإذلال.

لكن الشيخ وهو يؤنينا على خطايانا ولا نعلم إن كان بإمكانه بدوره أن يرمينا بحجر، إنما يسير على ذات المنهج الذى ران على عقولنا عبر القرون، منذ أيام التنين والعنقاء وعفريت المصباح السحري والحوث الحنون والنملة الذكية والهدهد اللبق، منذ قررت الأسطورة فى خطو العقل الابتدائى أن كل أمر مقدور لا فكاك منه، وهو ما تجاوزته البشرية فى خطوها التطورى لتفسير ما يحيق بها من أزمات، وتفسير ما يلحق بالناس من كوارث لها أسباب واضحة معلومة، فى قوانين بات يعرفها أطفال المدارس الابتدائية، لكن الشيخ لا يعلمها، لأنه حاصل على الدكتوراة، فهناك فرق.

وأحد العناصر التأسيسية فى هذا المنهج العريق، الذى لم يعد موجودا إلا فى كهوفنا، قانون من أشد القوانين تخلفا وظلما فى تاريخ الإنسانية، هو قانون: الحسنة تخص والسيئة تعم، قانون الثواب الخاص والعقاب الجماعى، حتى بات قانونا للسلوك على كل المستويات من المعلم فى مدرسته إلى الضابط فى كتبته إلى الأب فى بيته.

وبهذا المنهج ينسب الشيخ المفضل كارثة الزلزال إلى الله ويستخرج منها العظات أسفارا وملاحم أمواجا تتكسر على أمواج، دون أن يلقي نظرة واحدة على الإحصاءات التي تناولت الخسائر ليعلم أن أشد آثار الزلزال قد أصابت أكثر المناطق فقرا في بر مصر المحروسة، لأنهم لا يملكون ممتلكات المعمار القوي الذي يتحمل تلك الهزات، ثم لم يسأل نفسه عن مدى استحقاق هؤلاء الفقراء للعقاب زيادة على فقرهم؟ ثم لا يحاول أن يقرأ أعمار القتلى والمصابين وحتى دون أن يقرأ فالعقل السليم لا بد أن يستنتج أن النسبة الكبرى من الإصابات كانت في أبعد الناس عن الخطيئة التي تستوجب العقاب، فالكوارث الجماعية تأخذ أول ما تأخذ الأطفال الذين لا يملكون لأنفسهم شيئا، ولا يستطيعون الفرار، ثم الشيوخ الذين كلت حواسهم عن إتيان المعاصي، ويتطهرون استعدادا للقاء ربهم، ثم النساء لحرصهن الأمومي على نجدة أطفالهن، أما الناجي الحقيقي فهو الذي كان يستوجب العقاب، إنه القادر على إتيان المعاصي والقادر على النجاة بنفسه. وعلى مستوى آخر، فإن فكرة العقاب الجماعي تتنافى مع قدرات الله الكلية، ثم تتناقض مع صفاته تناقضا صارخا لأن الله لا يمكن أن يكون فاقدا لقدرة التمييز، أو عاجزا عن معاقبة المسيء وحده وبمفرده بإساءته دون إنزال الدمار بالجميع صالحا وطالحا، ومن جهة أخرى تتناقض فكرة العقاب الجماعي مع صفة العدل في الله، تلك الصفة التي نظمثن إليها، وهي وراء إيماننا الصادق به، ثم إنها سر هدوء نفوس كثيرة مقهورة، وفقراء بطمحوون إلى تدخله لإصلاح أوضاع دنيوية فاسدة، أو على الأقل للحصول على نصيب مناسب في جنته، يتناسب مع اختلال الأوضاع في الحياة الدنيا..

لكن لو قلنا هذا لقامت الدنيا ولم تقعد إلا على مشائخ ودماء ترضى النفوس المتعطشة إليها، بعد سيل تكفير وتسفيه وربما قالوا: إن في ذلك إنكار لمعلوم من الدين بالضرورة، وربما رأوا في أعمال العقل مفسدة لعيشهم اللين ورغدهم الطرى، ومن ثم ينطلقون بالسخائم على رأس المتسائل يصبون عليها صبا، لأن النصوص الدينية قد أكدت من وجهة نظرهم التي كلت لعدم استخدام النظر، إن الله كان يمارس العقاب الجماعي بالفعل، وإلا فماذا كان طوفان نوح؟ وأصحاب هود من عاد إرم ذات العماد التي حقت عليها اللعنة فبادت بشرا وحضارة وحيوانا ونباتا بغضب إلهي ماحق، أو أصحاب الناقة التي ولدتها صخرة فعقروها فدمدم عليهم ثم ماذا عن قوم لوط، وما أدراك ما قوم لوط، وغير ذلك

من الأمثلة كثير. ورغم ذلك، فإن العقل له شروط، وله مطالب كى يكون عقلا بالأصل، وهو منحة الله للإنسان، بل إن وظيفة التفكير فى ذلك العقل هى بضعة متناهية من القدرة الإلهية وعلمها اللامتناهى، وهذا العقل لا يرضى بمجرد سرد الأمثلة، فيقف معاندا لا يتزحزح كى يطمئن الفؤاد إلى طوية الإيمان، لكنه لا يجد من مفسرينا إجابة شافية، ولا تفسيرا مرضيا، لذلك يمسك بالعدل الإلهى، ويرفض مادون ذلك، قانعا أن هناك لاشك تفسيرا جديدا يرفع عن مأثورنا التناقض، ويحفظ للنفس ثقتها فى الله وحبها له لكنه التفسير الذى لم يطل زمانه بعد، فهلا حاولنا فتح نافذة عليه، وهلا أمكن الاجتهاد طمعا فى ثواب الأجرين، ولن نخرج بحسرة إذا حصلنا على ثواب الأجر الواحدة وتكفينا المحاولة.

ألا يمكن أن تكون تلك الأفاصيص من حكايا الأولين مجرد ضرب مثل، وعاه مؤرخونا ورجالاتنا الأوائل، فنحتوا له اصطلاحا نعلمه هو (الترغيب والترهيب).. ربما.. ربما كان ذلك ضربا من المثل الرمزي لعقول غير عقولنا فى زمن غير زماننا له مفاهيم غير مفاهيمنا ومستوى معرفى غير مستوانا.. ربما.

إن الإصرار على المنهج العتيق فى فهم لغة المقدس بقدر ما يضر بحياتنا بالتأكيد فإنه يضر بالمقدس ذاته، ذلك المقدس الذى نريد أن نحافظ عليه وعلى احترامه، لأنه جزء من تاريخنا الذى يشكل هويتنا.

أى علم
وَأى إيمان ؟



السؤال الآخر إلى الشيخ والطبيب التلفازيين :

أى علم وأى إيمان ؟

عندما بلغت الدولة الإسلامية أوج قوتها الإمبراطورية، كان طبيعياً أن تتحول عن خوفها الأول من الكتب والمؤلفات لشعوب المنطقة، وعلوم الحضارات القديمة في مصر وبابل وفينيقيا، بعد أن صلب عودها واشتد كيانهما، ولم تعد تخشى على نفسها من الآخر المخالف أو من ثقافته. لذلك انفتحت على كل ثقافات دنيا ذلك الزمان، على علوم مصر وفارس والهند، وعلى مختلف الديانات والعقائد الكتابية منها وغير الكتابية، وعلى فلسفة اليونان ورياضياتها. واتسمت الحياة الثقافية بقدر عال من التحرر، مع حركة ترجمة نشطة نقلت كل هذا إلى اللغة العربية، فى مناخ يتسم بروح إنسانية رفيعة من عدم التعصب، إلى الحد الذى تجاوز فيه المسلمون معنى التسامح مع ثقافة الآخر وعقيدته إلى معنى التواصل (كما عند المعري) وإلى معنى الاحترام المتبادل (كما عند ابن عربى مثلاً)، حتى وصل الأمر إلى حرية اعتقاد مقبولة من المجتمع ومن الدولة، وكان طبيعياً أن يفرز ذلك المناخ كل الاتجاهات الفكرية والعلمية، ووجد العلم مناخه المناسب فتنامى حتى قدمنا للعالم كوكبة عظمى من المفكرين، ووسط كل هذا الزخم العظيم لعلوم الدنيا والدين، نسمع عن الطبيب المعجزة (أبو بكر الرازى) وهو ذات الرجل الذى كان يعلن إلحاده دون ترميز أو موارد. ثم نسمع بين مدارس الاجتهاد، وحركة تدوين التاريخ، وعلماء الرياضيات، عن وجه آخر لحقيقة الحرية الثقافية، يمثله الداهية الكبير (ابن الراوندى)، الذى كرس عمره الذى وصل إلى قرن من الزمان، لدحض ما أسماه: مخاريق الأنبياء، وكتب فيما علمنا ما ينوف على تسعين مصنفًا، أسماها بمسميات الأحجار الكريمة، فهذا كتاب اللؤلؤة، وذاك كتاب المرجانة، وثالث كتاب الزمردة .. الخ، وعاش الرجل عمره الطويل يناقش بالعقل ما رآه ليس من العقل فى تاريخ النبوات والكتب المقدسة، ويكرس ما يدحض فكرها وينعى عليها منهجها، ولم يطلب أحد محاكمته، ولم تصدر كتبه، ولا أنقض عليه نجار مسلح جهول بمطواة قرن غزال . لكننا على أية حال فقدنا كل هذا ، ولم نعد نسمع مقولات ابن

الراوندى إلامن المقتطفات التى كتبها المتأخرون من مشايخ الأمة، بعد أن زال مجدها وحلت بها الغمة، لتسفيه أفكاره وتكفير ضميره، مع انهيار قوة الدولة وإغلاق نوافذ العقل، مع بداية عصر الخليفة المتوكل، الذى أغلق باب الاجتهاد وألغى دور العقل وحرّم الكتب المخالفة، ومن بعده وحتى اليوم نتحرك بسرعة الصاروخ، ولكن إلى الخلف.

لكن قبل أن تدخل الأمة فى التردى، وإبان حركة العلم والترجمة النشطة، تعالت فلسفات الفيوض الغنوصية التى استمدت أسسها الفكرية من عقائد مصر القديمة وديانات فارس القديمة، وصبتها فى قالب إسلامى، بحيث قامت فلسفات جديدة تكاد تكون عقائد جديدة بكل معنى الكلمة، تسمى عقائد الفيض، وأشهر الأسماء فى تلك الفلسفات الفيلسوف (أبو نصر الفارابى)، ثم (ابن سينا) الطبيب الفيلسوف.



أما فى علوم التصوف فحدث ولا حرج، عن عقائد قديمة من عقائد مصر وفارس والمسيحيين واليهود، تستخفى وراء عباءة إسلامية، حيث قامت الشعوب المفتوحة للغزو العربى الإسلامى، تحافظ على قديمها الوطنى تحت مظلة إسلامية. ثم أبدا لانسى علم الكلام، ذلك العلم الشديد الجرأة والاجترار، والذى كان نموذجا لديموقراطية الرأى وحرية القول وعلمنة المساحة الفكرية، واحترام الرأى الآخر مهما كان مخالفا، وقام يعلم الناس عدم الخشية من مناقشة أى أمر، فليس هناك كبير على العقل، وليس فى علم الكلام محرمات عقلية، فناقش الناس أيامها أمورا لوناقشناها اليوم لرجمنا بألف حجر. وبرزت بين مدارسه مدرسة المعتزلة التى أسسها (واصل بن عطاء) والتى جعلت العقل مرجعا لكل أمر، حتى لو اختلف الوحي مع العقل، فقد رجح المعتزلة اللجوء لحكم العقل.

ولو قدر لهؤلاء جميعا أن يعيشوا زماننا الأغبر لجلس الفارابى على خازوق فى ميدان التحرير، ولصُلب ابن سينا إلى جوار منه فى ميدان طلعت حرب، ولتطوى سباك من أمراء هذا الزمان بذبح واصل بن عطاء بباب أحد المساجد، ولمات ابن سينا بطلقات رصاص من أحد الصنایعية الذين تثقفوا بثقافة العفاريت السلیمانية .

نحن هنا لانمزج قدرما نأسف وننزف وجعا على الأمة، ولانستهين بقدردين أو فكر أو اعتقاد، إذ أصبحت هموم جماهيرنا الغفيرة العريضة الغليظة (فى الوقت الذى تنشىء

إسرائيل مفاعلها النووي الأكبر الجديد على حدودنا) هو كيف نوقف خطانا مع السلف؟ هل يرفع المسلم إصبعاً واحداً أثناء الشهادتين أم إصبعين؟ المسبحة الثلاث وثلاثون حبة أكثر شرعية أم التسع وتسعون؟، هل أكل الجبن الرومي حلال؟ أصبح كل شيء يدور حول لا شيء، وله مرجع واحد هو حياة السلف الصالح في أدق تفاصيلها مع ملاحظة شديدة البساطة أن كل تلك الهموم في فكر أمتنا قد تراكبت مع انحطاطها في قاع مزيلة الأمم.

هذا عن كيف يفكر رجل الشارع وغير المتعلم وأنصاف المتعلمين، فماذا عن الطبقة المتعلمة؟ (نقول المتعلمة وليس المثقفة فهناك فرق، كالفرق بين رواد حقل البرسيم ورواد حقل الياسمين). إن تلك الطبقة تنحون منحى آخر أسسه رجل همام تقلب من ذات الشمال إلى ذات اليمين، وما أدراك ما اليمين وما فيه من رغد ونعيم مقيم، يقوم فيه بدور المعلق وصاحب المنهج والرفيق المؤسس.. وهلم جرا، وجرا هلموا. ومع ذلك المنحى والانعطاف التاريخي لفكر شبابنا مع اللافتة المعنونة بـ (العلم والإيمان)، نقف نحاول أن نفهم، كيف نتمسك بالعلم؟ وكيف نحترم الإيمان؟

نحن مثل كل فرد في الأمة، نعرف معنى الإيمان، ونشهد لإله أو أحد ليس له كفواً أحد وليس له شريك، ونؤمن بمنظومة متكاملة لها كتابها الذي يحدد شروط ذلك الإيمان، ويضع للسلوك والنظم الاجتماعية قواعد محددة. لكننا أيضاً نوقن تماماً أن ذلك الكتاب الكريم ليس كتاباً في الفيزياء أو الكيمياء أو الهيدروليكا أو هندسة الوراثة، لسبب شديد البساطة، وهو أن القرآن الكريم كلمة الله الثابتة الواحدة التي لا تقبل التغير أو التقلب أو اللعب بها، هو موضوع إيمان في المقام الأول، أما العلم فطبيعته متغيرة متبدلة، لأنه بذلك يصحح نفسه باستمرار ويتقدم على هذا الأساس، فهذا منهج، وذاك منهج آخر مخالف تماماً، هذا إنتاج عقل بشري متغير، وذاك من مصدر إلهي قدسي لا يقبل الانتهازية والاستخدام النفعي، كما لا يقبل التبدل والتغير.

ولكن لأننا قد استقر بنا المقام في قاع مقلب نفايات الأمم، ولأن الأمم الأخرى قد تقدمت تقدماً علمياً هائلاً على كل المستويات فقوى شأنها وعظم أمرها، ولأننا بجوارها في حال ضعف وهوان، ولأن العلم لا ينمو إلا في مناخ حر، حرية مطلقة بلا حدود، يسمح بالرأي الآخر، ليس فيه تكفير ومحاكمات تفريق، فإن تربة بلادنا لم تعد صالحة لإنتاج العلم، لذلك اكتفينا باستهلاك منتجات العلم التي جهد عليها علماء الدول المتقدمة وأفنوا

فيها أعمارهم، وهنا طيب خاطرنا شيخ المفسرين التلفازي، الذي (تولى) علينا (متوليا) عافاه الله وأبقاه للأمة الإسلامية ذخرا ولمصر فخرا، فرأى أن عزاءنا في كون غير المسلمين يكدون ويتعبون ويشقون كالأنعام للوصول إلى كشفهم العلمية، بينما نحن بأموالنا وبترونا الذي منحه الله لنا، نأخذ نتاج هذا العلم ونستهلكه على الجاهز. فالدول المتقدمة مستعدة دوما لتوصيل الطلبات إلى المنازل فحمدا لله أنه قد سخر لنا أخيرا بنى الروم، فهل بعد ذلك نصر؟ وهل بعد ذلك فهم للعلم والإيمان؟



أما الدكتور الحجة، الموج المتلاطم من العلم المتراكم، مفتاح العلم وخزانته، الشيخ الطبيب بحر العلوم، صاحب البرنامج التلفازي المعلوم، فقد أخذ مبكرا، منذ أن سار مع عقارب الساعة، بحل آخر، يحل به مشكلة الأمة ليرفع عنها الغمة، بحل أساسى لعلاقتها بالعلم.

رأى الشيخ الطبيب (رأيا) أو (رؤيا) لانعلم، ثم قام يقولها فى سلسال طويل عبر شاشات التلفاز الميمون، ثم قال لافض فوه ذات الأقوال فى سلسال آخر من الكتب، التى أصبحت تملأ أرفف أدمغة شباننا . وكان الرأى والقول يؤكدان، أن حل مشكلة أمتنا يكمن فى إثبات أننا أصحاب كل الكشوف العلمية قبل زمانها بزمان، وحتى التى لم تكتشف بعد منها.

لكن كيف السبيل إلى ذلك ؟ لو كان الرجل موضوعيا لقال إننا قد شاركتنا الإنسانية فى تطورها العلمى، عبر ما قدمت كوكبة علمائنا فى العصور الخوالى، وبذلك لا يكون العلم حكرا على أحد، إنما نتاج مشاركة كل البشرية فيه، منذ عصر اكتشاف النار وحتى الآن، لكنه لم يرد ذلك، لقد أراد لنا الفضل كله بالتمام والكمال لا يخس مقدار جناح بعوضة، ويكون له هو الفضل كله فى ذلك الكشف العظيم.

كان الحل هو القول: إن القرآن الكريم يحوى كل علوم الأولين والآخرين، وهنا قام يفتش فى أفلام كد عليها العلماء، يتقى منها ما يلتقى مع تفسيره هولايات الكريمة، ليقص لها النظرية العلمية ويفصلها على قدها ومقاسها، نعم قد تأتى مرة فضفاضة، ومرة شديدة الضيق، لكنه وهو يفعل ذلك يرتكب جرما كبيرا، ثم يقع فى إثم عظيم.

أما الجرم فهو فى حق اثنين لانتنازل عنهما أبدا، الأول فى حق العلم نفسه، فهو يقدمه مجزوا، منقوصا، مشوها، يهدر ما بذل فيه من عناء وجهد بالعقل البشرى، خاصة مع تعقيباته وابتسامته الساخرة المعهودة، من ذلك العقل الغرالمفتون، الذى يحاول اكتشاف علوم عرفناها نحن قبله بقرون، عبر معرفة ربنا لها. أما المجنى عليه الثانى فى هذا الجرم، فهو زهرة شباب بلادنا، الذين عليهم المعتمد والأمل، فالعلم عناء وكد وتعب عظيم، يمكن بمنهج الطيب التلغزى الاستغناء عنه والاكتفاء بالقرآن الكريم، فيدمر الطيب المعجزة عقل الأمة ممثلا فى شبابها، ليتحولوا إلى صناع قتابل محترفين، وقتلة متمرسين.

بقى الآن الإثم العظيم وهو الأخطر، فالرجل أولا يريد إثبات صدق الله بمعارف الإنسان، هذه واحدة، أما الثانية فهو أنه يعرض لنا الأفلام العلمية ويتطفل عليها، ثم يبدأ فى السخرية من العقل البشرى القاصر الذى أنتج علومها المصورة، أترون أين الإهانة الخفية؟ إنه يثبت صدق الله بتتاج عقل إنسانى أبله، أليس ذلك ما يفعله الطيب المعجزة؟

ثم إن الإثم مركب، فالعلم متغير، والقرآن كلمة الله الثابتة، فهل إذا ربط السيد الطيب نظرية علمية اليوم بأية قرآنية، ثم ثبت بعد ذلك فساد النظرية، أفلا ينسحب ذلك على الآية القرآنية؟

وهكذا، ولأن الغرب دوما عدو، ولأن العلم منتج غربى فهو عدو (!؟)، لكن لأن العلم يساعد على تقدم الأمم، تم سحب شرف العلم منهم وتحييده وجعله خادما مطيعا لمنظومتنا، ولكن فى الوهم، وهكذا أصبح أعلم علماء العالم، فالعلم فى كتابنا وهنا الوجه الكارثى، فالقرآن كلام الله، ونحن نفخر به على أولئك الذين يظنون أنفسهم متقدمين وهم واهمون، وهذا يعنى أن رب القرآن رب خاص بنا وحدنا نتباهى به على الآخرين، رغم أن الله رب العالمين، ونحن نؤمن بذلك عن يقين.

ثم ألا يعنى ذلك الشعور بالدونية والقزمية، وإننا مجرد قبيلة لا تعرف شيئا وتتخبط فى الجهالات، لكن شيخها يعرف كل شىء، وعلى جميع أفرادها الاطمئنان إليه، وأنه سيتدخل لإنقاذها فى الوقت المناسب؟ ألا يعنى ذلك تحول الذات الإلهية الرفيعة العظمى إلى مجرد سيد لجماعة؟ وبالمناسبة أليس ذلك هو فهم يهود لمعنى الألوهية؟

وطبعا من حق الرجل أن يفخر، بعد أن سار وراءه العربان (ذرافات) أو (زرافات) لافرق،

وانتابهم هوس العلم والإيمان ، ليصيبهم ذلك الهوس بحمى العلوم الإسلامية، التي انعقدت لها المؤتمرات العالمية، التي علمنا مؤخرا من التقارير المنشورة أنها قد مولت من قبل المخابرات المركزية الأمريكية.

فإذا كان هناك مثلاً طب إسلامي، فلاشك أن هناك طباً بوذياً وطباً يهودياً، أما نحن إذا كنا مخلصين لطبنا فعلينا إغلاق كليات الطب في بلادنا، مع سحب شهادة الطب من السيد الطبيب التلفازي ومنحه شهادة تفوق في الطب الإسلامي مثلاً، كتعبير عن العرفان لما قدمه لأمة العربان.

والآن جاء موعدنا مع السؤال الدوري (السؤال الآخر):

بفرض أن كل ما فعله السيد الطبيب صحيح، وبفرض أننا لم نفهم المرامى البعيدة لخطته السديدة، فما هو الممكن تحقيقه من تلك الخطة لصالح البلاد والعباد، والخروج من القاع؟ بماذا أفادنا كل ما فعل ويفعل بفرض صدقه؟

يعنى هل يمكن للسيد الطبيب باعتباره الرائد في هذا الطريق أن يقدم لنا حلاً لتخلفنا؟ أو هل بإمكانه أن يكتشف لنا من المقدس أسلحة كالليزر ونسميه الليزر الإسلامي مثلاً؟

نحن نتظر تلك الجدية في السيد الطبيب بكل أمل، نعم ربما يطول انتظارنا حتى نموت فنبعث لنحاسب على ما قدمت أيدينا خاصة في حق أمتنا، لكننا على أية حال نطلب لأنفسنا وله المغفرة إن نسينا أو أخطأنا.

مرض المنهج: محاولة
للتشخيص المبسط



مرض المنهج

محاولة للتشخيص المبسط

من وجهة نظري أعتقد أن المشكلة أبعد وأعمق من الاستفسار عن مستوى المد السلفي أو جذره وانحساره، فالأمر يكمن في منهج تفكير سائد مستمد من المقدس ويعتمد عليه ويقوم به. ولأن للمقدس عدة وجوه وعدة قراءات قد تصل إلى حد التنافر المذهبي، فإن المسألة تتخذ شكلاً أكثر تعقيداً، حيث يتحول تعدد الفهم وتعدد التفاسير إلى تعدد في المناهج التي تطبع سلوك أتباع المذاهب بطابعها، ويسلكون في الواقع العملي بوحى من توجيهها، ويضبطون عليها حركاتهم وسكناتهم ورؤيتهم للماضى وللحاضر والمستقبل، ويحددون بها موقفهم من المنتج الثقافى الإنسانى، ومن الآخر المخالف، بل وبه يحددون خياراتهم السياسية وهنا الوجه الكارثى.

وقد يبدو هذا التعدد فى ظاهره رحمة، لكنه العذاب بعينه، فهو من جانب يؤدي إلى تصلب مذهبي شديد، ومن جانب آخر يضع التعامل العلمى معه من الخارج فى حالة استحالة، حيث ستختلف أساليب الجدل بين مذهب وآخر، وحول ما يراه هذا المذهب أو ذاك من صحيح التفاسير أو الأحاديث، ومن جانب ثالث فإنه رغم التعددية فإن الرؤى جميعاً تستند إلى فكرة تأسيسية ترى أن ما يملكه العقل المتمحور حول المقدس هو الرؤية المنهجية الواحدة الصحيحة صحة مطلقة لا يدخلها الباطل من بين أيديها أو من خلفها. بل تجتمع المذاهب جميعاً عند حقيقة تأسيسية مرجعية هى نصوص الكتاب والسنة التى انقضت على زمنها وظروفها التى أفرزتها ما يزيد على أربعة عشرين عاماً من الزمان.

وينبنى على ذلك شعور حاد بامتلاك الحقيقة النهائية والمطلقة لكل أمر فى كل علم ممكن، وهذا بحد ذاته هو المصيبة بعينها، لأنه يؤدي أو أدى بالفعل إلى استشرى وباء نفسى حاد، عندما يصطدم صاحب هذه الحقيقة المطلقة - بما يحمله من زهو نفسى يؤدي به إلى الاستعلاء والنرجسية - بواقع الأحوال وتقدم الآخر المخالف وتفوقه الحضارى.

فيزداد تمحورا حول الذات في محاولة يائسة للتمسك بهويته وإثبات ذاته، ليتداخل ذلك كله مع الانبهار الضروري بحضارة الآخر المتقدم — في تعقيدات أخرى — تنتهي إلى استثناء حالة فصامية جماعية ظاهرة الوضوح، تظهر أعراضها على كل المستويات حتى على المستويات القيادية، وماتخذة من قرارات وتخططات انتهت بنا إلى حيث نقبع الآن.

وإذا كنا لانغفل عن العوامل الأخرى التي أدت إلى الحال الراهن — وخاصة الجوانب الاقتصادية ومدى نضوج الأوضاع الاجتماعية المتفاوتة بتفاوت خصوصيات الأوطان العربية وعدم تبلور طبقاته بشكل محدد واضح، مع الانحرافات العنيفة التي أصابت الأشكال السياسية العالمية في مفاجآت السنوات الأخيرة — فإننا سنحاول تقديم مطالعة بسيطة في دور النصوص ووسطاء الدين المحترفين في تأسيس هذا المنهج وترسيخه.

النص بين الثبات والحركة

معلوم أن النص القرآني لم يأت به صاحب الدعوة في شكل كتلى، إنما جاءنا مفرقا منجما بالتبرير القرآني ﴿ليقرأه على الناس على مكث﴾، تغيرت أحواله وتبدلت بتبدل أحوال الواقع والمتغيرات زمن الدعوة، فتجادل مع أحداث الواقع وفعل فيها وانفعل بها واستجاب لضرورات المتغير الموضوعية، عبر ثلاث وعشرين عاما هي العمر الذي توترت خلاله النصوص القرآنية. وعبر هذا العمر تغيرت آيات وتبدلت أخرى، ومُحيت آيات ونُسخت أخرى ورفعت آيات وأُنسيت أخرى، وهو الأمر الذي وجد صداه في الآيات القرآنية التي تردد أمورا معلومة في أبواب علوم القرآن، كما في الآيات التي قيلت بمناسبة حديث الغرانيق: ﴿وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلا. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا﴾ (٧٣، ٧٤ / الإسراء).

كذلك الآية ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته﴾ (٥٢ الحج).

وبشأن محو آيات تقول الآية: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ (٣٩ الرعد).

وعن التبديل تقول الآية: ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون﴾ (١٠١ النحل).

وبشأن الإنشاء والنسخ تقرر الآية : ﴿ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها﴾ (البقرة ١٠٦). وغير ذلك كثير واضح الدلالة والمعنى.

وإعمالاً لذلك لابد من فهم أن هذا النص القدسي لم يأت كتلة واحدة متماسكة جامدة كألواح موسى، لكنه مر بمراحل تطويرية ارتبطت بواقع الحجاز زمن الدعوة وبتطور المتغيرات فيه ارتباطاً وثيقاً. لكن بموت صاحب الدعوة وانقطاع تدفق الآيات توقف هذا التفاعل وتحول النص على يد أتباعه إلى مقدس لا يقبل تبديلاً ولا تحويلاً. وثبتوا به، ومعه، عند تلك اللحظة الزمنية التاريخية بكل مالها وما عليها، ومع حراك الواقع الحراك الضروري بمتغيراته المتلاحقة، ظل المنهج واحداً ثابتاً لا يتزحزح ولا يتحرك، وأصبح الإصرار على فكرة الشخصية الثقافية الثابتة الواحدة سمة المنهج العربي المسلم، فى التفكير وفى السلوك، مما أدى فى النهاية إلى تخلف ثقافى هائل، قياساً على الحراك الضرورى الذى انتهى بالإنسان العربى اليوم إلى استخدام كافة المنتج الحضارى التقنى للعالم المتقدم من جهة، مع الإصرار على ثباته المنهجى والثقافى بمنظومته الواحدة فى الجانب الآخر.

وعبر القرون الخوالى السوالف تمكن الإنسان فى بقاع المعمورة عبر نضالات طويلة وتضحيات عظيمة أن يرسى مبادئ إنسانيته الحرة، مما أدى إلى تبدل عظيم وتغير هائل فى المفاهيم خاصة حول قضايا الحريات، بينما على الجانب الآخر ظل منهجنا هو المحافظة والثبات عند ظاهر ألفاظ النصوص التى أحيطت بكل التحريمات لعدم الاقتراب أو المساس أو حتى محاولة فهم صحيح يواكب المستجدات.

وحتى الآن يردد المسلم آيات ملك اليمين دون أى محاولات من جانب فقهاء المؤسسات الدينية الإعلان الواضح عن وقف العمل بأحكام هذه الآيات، باعتبار استرقاق الإنسان لأخيه الإنسان كان وصمة عار فى جبين الإنسانية على مر التاريخ.

نعم حض الإسلام على العتق وحب فيه فى مراحل الدعوة الأولى، لكنه أبداً لم يحرم الرق كما حرم مثلاً لحم الخنزير، ولم يجرمه، ومات الرسول (ﷺ) والصحابة ولديهم الأعداد المحدودة من العبيد، ونعم كان الإسلام بالتحبيب فى العتق والترغيب فيه نقلة تقدمية قياساً على زمنه، لكن الأمر اليوم قد اختلف اختلافاً تاماً. ومع ذلك لم تنزل أدعية ميكروفانات المساجد الكبرى فى بلادنا المحروسة تنادى المسلمين بالتهيه لئفل أموال غير

المسلمين وسبى نساءهم، الأمر الذى يطفح بالمراقب ويضعنا سخرية للعالمين ما بين واقعنا فى قاع الأمم وبين مطالبنا التى نرفعها إلى ربنا.

وضمن قضايا الحريات والتى تحتاج إلى كسر جريء وعميق فى جدار الثبات والسلفية، قضية المرأة، التى لم تزل حتى الآن نصف رجل جاهل بليد لالزوم له، رغم أنها قد تكون حاصلة على أعلى الدرجات العلمية وتعديل فى موازين العقل مئآت الرجال. وعندما حاول نصر أبوزيد - كمثال - الحوض فى هذا الأمر قامت الدنيا ولم تقعد إلا على تكفير وتفريق وشوق إلى الدماء، وهو الأمر الذى يدفع إلى التساؤل عن مدى جدوى التعامل من على ذات الأرض، لمنهج يستسهل دماء المخالف فى رأى، بل يراه أمراً جميلاً وعظيماً وسبيلاً إلى ملكوت الله.

وهنا يطيب لى أن أشرك القارىء فى طرفة مادمننا فى ميدان القراءة المبسطة، حيث كنت مؤخراً على الستالايت من القاهرة مع الشيخ يوسف البدرى بالدوحة على قناة الخليج الفضائية، وأذكر أنى قلت ساعتها أنى رجل قد لوثته الحضارة، يكره رؤية الدماء تسفك والأيدى تقطع والأجساد تجلد، فكان رده العجيب: وماذا عن سفك دماء المسلمين فى البوسنة؟ ويبدو أن منهج الرجل، وهو منهجهم عموماً يرى أن الغرب - وهو النموذج المبهر وغير المعلن فى مواطنهم - يمارس الذبح والقتل فلماذا لانمارسه؟ وأنه مادام الغرب المتحضر يمارسه فليس علينا ملامة، الكارثة أنه يريد أن يمارسه معنا أيضاً. ولا تعليق.

وهكذا يكون أى خلاف فى رأى حول تفسير آيات، أو محاولة الخروج من أسر الثبات، مدعاة لإهدار الدم بكل بساطة بل أحياناً بولع شديد. وهو الموقف أيضاً من قضايا الديمقراطية، ناهيك عما هو أبعد ما يكون عن مجرد السماح بمناقشته بينما قد أصبح مبدءاً إنسانياً راسخاً: هو مبدءاً حرية الاعتقاد، فدون مناقشته خرق القتاد وإسالة الدماء أنهاراً.

العلم والمعجزة

ولأن النص القدسى هو الثقافة الوحيدة الصحيحة والممكنة وفق هذا المنهج، فقد أصبح النص هو المرجع العمدى والأم لكل القضايا حتى لتجد أساتذة أكاديميين يشرفون على تخريج أجيالنا يتساءلون مع كل جديد: هل جاء ذكره فى القرآن؟!!

ولأن النص كان يعتمد في أحيان كثيرة إلى ضرب الأمثلة لأهل زمنه ترغيباً وترهيباً، للإيعاز بأن ضعف صاحب الدعوة والمسلمين الأوائل لا يعول عليه، فوراءهم تقف قوة الله والملائكة ظهيراً. وتأتى ضمن تلك المرحلة أحاديث النصوص مشحونة بالمعجز والملغز الذى يكسر قوانين الطبيعة والعقل معاً، فنجد قصة الحصان المجنح (البراق)، وحديث الصخرة التى تمخضت فولدت ناقة الله، وحديث الملائكة المحاربين يركبون الخيول ويحملون السيوف، وحديث الجن والعفاريت وبساط الريح السليمانى، وكل هذا لطيف وموعظة حسنة وإنذار للكافرين من أهل الحجاز زمن الدعوة، لكن اليوم ومع المفترض فى الإيمان أنه تصديق وتسليم، يصبح بالإمكان الوثوق فى تحقيق أشباه تلك الأحداث اليوم، فقط إذا خلصت الضمائر وصفت النوايا بالإخلاص كلية لكل تفاصيل المنهج الطقوسية، فبالإمكان بل بالضرورة عدم بذل أى جهد علمى حقيقى، ويتحول الشعور بالعجز والدونية إلى ارتكاس نحو زمن السلف الصالح تهيئة للواقع الأرضى لمجىء نصر الله والفتح. ولا يصبح هناك مجال سوى لإنشاء دولة دينية وساعتها سيدخل الله بنفسه لإنقاذ حزبه والخروج بخير أمة أخرجت للناس من القاع بقدرته وحده.

والوجه الكارثى فى أصحاب هذا المنهج أنهم يتعاملون مع المنتج العلمى الإنسانى بتعال وترفع، ولأن العلم قد ساعد على تطور الأمم الأخرى فقد أصبح محل نقیضين، محلاً للحب والكره، نستعمل منتجه التقنى لكن نختصر العلم فى ذاته، هو الشيطان الأعظم الذى ساعد الآخر المتفوق. ويتم تكريس هذه المعانى عبر وسائل التثقيف العامة كالإذاعة والتلفاز بل ودور التعليم على تنوعها. ومع الانبهار بهذا العلم وبالعقل المتفوق لا يملك الموفقون والانتهازيون وأصحاب المصالح والمتاجرون بمصير الأمة سوى ادعاء توفيقية رخيصة ومبتذلة بين العلم وبين نصوص الدين، تنتهى إلى تكريس العلم كله لله وحده وتحقير شأن العقل الإنسانى القاصر. وإبان ذلك يتم التعامل مع المنتج العلمى بعقلية قاطع الطريق، وبنفسية المريض بالذهان وبالشيزوفرنيا معاً، فيتم التأكيد على أننا أصحاب كل تلك الكشوف قبل أن يكتشفها الغرب الكافر بعقله القاصر، وأننا نعلمها سلفاً عبر علم ربنا بها، كما لو كان الله بهذا التصور التجزئى والقبلى شيخاً لقبلتنا وحدها ويكفي أن يعلم هو نيابة عنا، فهو المتصرف، وهو العالم، وما علينا سوى طاعة أوامر ونواهي وانتظار تدخله فى الوقت المناسب الذى لا يعلمه إلا هو. وهكذا، ورغم أننا شركاء مثل كل البشرية

فى صياغة العلم الإنسانى عبر مراحل متعددة من تاريخنا، نفى هذا العلم ونحيله إلى عدو شيطانى نجه ونخافه ونكرهه ونتمنى امتلاكه ونحتقره فى آن واحد. ثم نحول أنفسنا إلى مجرد كائنات بلهاء تعتمد على علم ربها فقط وهو العلم المخفى، وتستخدم كافة المنتج التكنى للعلم البشرى أفلايسىء ذلك إلى مفهوم الكمال الألوهى ذاته؟!

قوانين التخلف الثلاثة

رغم أن المسلمين الأوائل الذين عاينوا الدعوة وعاشوا زمنها، قد وعوا درس تجادل النص القدسى مع الواقع، فمدوا الخط على استقامته واستفادوا من حوارها مع المتغيرات، ثم جاءت الإمبراطورية الإسلامية فى عصر الثقة والقوة لفتتح كل الأبواب والنوافذ على حضارات الدنيا وعلوم العالمين آنذاك.

وبمجيء الخليفة المتوكل وتضعف قوة الدولة وما صاحب الأحوال بعدها من الدخول فى عصور الانحطاط والتردى، انتهى الأمر بتقعيد القواعد المكبلة للحريات الفكرية عبر تحريمات وضعت فى التعامل مع النصوص الدينية، تكبح أى محاولة للانطلاق بالمفاهيم من أسر الثبات لتواكب حركة التطور والمتغيرات.

وقد تمثلت تلك القواعد فى ثلاثة قوانين تأسيسية : أولها: تكفير من ينكر معلوما من الدين بالضرورة، ورغم أن هذا المعلوم من الدين بالضرورة لا يملك أحد تحديده وضبطه، لأن معنى ذلك هو الاطلاع على المقصد الإلهى منه بدقة وتواصل نبوى، فإن هذه القاعدة كثيراً ما استخدمت لإخراص السنة المعارضة على المستوى السياسى، كما حدث فى ذبح محمود طه بالسودان، وفى أحيان أخرى استخدمتها المعارضة السياسية المرتدية للزى الإسلامى، كما حدث منذ سنوات قليلة فى مقتل فرج فودة فى مصر ثم محاولة اغتيال نجيب محفوظ، وأخيراً ما حدث مع نصر أبوزيد.

وكانت القاعدة الثانية هى (لا اجتهاد مع نص)، والمقصود بالنص ذلك الواضح الدلالة القطعى الذى لا يختلف عليه اثنان وحوله لا تنتطح عنزتان، رغم ما نعلمه أن ذلك التوصيف بوضوح الدلالة والقطعية وعدم الاختلاف حوله قد تبدل وتغير ونسخ وتفاعل مع الواقع، ثم جاء رجال كبار فى تاريخ الإسلام فاجتهدوا مع نصوص من هذا القبيل بما يتعارض وما

استقرت عليه الدلالة، حتى أنهم أكسبوه دلالات أخرى وحتى وضعت بهذا الاجتهاد تحريمات وألغيت محللات، عندما مدوا الخط على استقامته ووعوا الدرس النبوى والقدسى فى تجادل النص مع الواقع، واستفادوا من حوار مع المتغيرات وجدله معها زمن الدعوة، حتى أن الخليفة عمر أوقف العمل بحدود كما حدث فى عام الرمادة، وحرم حلالا كمتعة النساء، بل وأوقف العمل بفريضة كمتعة الحج، بل وأوقف العمل بنصوص واضحة كآية المؤلفة قلوبهم. كذلك فهم الخليفة (على) ذات الأمر وأعلنه واضحا فى قوله: «إن القرآن لا ينطق بلسان بل ينطق به الرجال»، مُطلقا بذلك حرية تعدد الأفهام حوله.

أما القاعدة الثالثة فكانت قاعدة شديدة الانتهازية وترتبط بمصالح ذوى السلطان ووسطائهم المحترفين من رجال الدين بوضوح وجلاء لا يقبل جدلاً أو مكابرة، ووضعت لتبرير مظالم بغیضة لأصحاب السلطان، ضد مصالح الناس والوطن والدين نفسه. وبهذه القاعدة كان - ولم يزل - يتم نزع الآيات من سياقها الداخلى لتمرير أشفع المظالم. ولا بأس من اللجوء فى ظرف آخر إلى نقيض تلك الآيات لتبرير أمور هى على العكس تماما، نتيجة ما احتواه المصحف العثمانى من تجاوز للآيات الناسخة بجوار المنسوخة وما يصح العمل بحكمه إلى جوار ما توقف العمل بحكمه، والتغطية الكاملة على هذا الأمر والتعمية عليه حتى يمكن استثماره وقت الحاجة.

وإبان ذلك يتم إلغاء دور الإنسان وفاعليته تماما فى صياغة أى مأثور، وتحال الثقافة جميعا إلى عالم غيبى مفارق، ويدرب المسلم على الإفراط فى تقديس كل قديم بكل رموزه الممتدة فى الحاضر فيصاب برهاب اليورنيفورم المشيخى والعمامة، ويسلم له القيادة، مع تقديس لكل لحظة تاريخية ترتبط بأمر دينى، حتى اللغة ذاتها أصبحت مقدسة وتم تثبيتها عند زمن تواتر النص، ومُنعت من الحراك، وكبلت عن التطور.

وأصبح النص القدسى مصدر كل معرفة ممكنة، حتى المعرفة بالذات وبالهيوية وبالتاريخ الذى انقطعنا عنه بانقطاعنا عن لغته القديمة وهى وعاء الحافظ، ففقدنا الذاكرة التاريخية، ومع فقدتها توارى مفهوم الوطن والمواطنة خجلا أمام مفهوم أصولى يؤكد دوما أن الإسلام هو الوطن.

وتمحورت الأحكام على الفكرة أو على السلوك، أو على رأى، أو على الموقف

السياسى، حول الحلال والحرام والإيمان والكفر، وليس بحساب مصالح البلاد والعباد، وليس حول الحكم بالصواب والخطأ العقلى والعلمى والعملى، وتحول المأثور إلى وسيلة للمعرفة بدلا من أن يكون مادة للمعرفة والدرس تنقله من مستوى الرأى المُختلف حوله، إلى مستوى العلم الذى لا خلاف حوله.

خاتم الأنبياء
وبزوغ عصر العقل



خاتم الأنبياء وبزوغ عصر العقل

أبدأ لم تأت سور القرآن الكريم وآياته دفعة واحدة في كتلة متماسكة مثل ألواح موسى عليه السلام، بل تتابعت مفرقة ومنجمة ليقراءه النبي على الناس على مكث وعلى مهل حسبما قررت آيات القرآن ذاتها. وقد استمر تواتر آيات القرآن الكريم على مدى ثلاثة وعشرين عاما هي عمر ذلك الوحي بالمقاييس الزمنية البشرية.

ولأن تلك الآيات قد انضبطت حركتها الزمنية بشروط الزمن الإنساني وتكوين الإنسان ذاته، فانتهت بموت الوسيط البشري (النبي ﷺ) وتوقفت بتوقف زمانه على الأرض وشروطه الجسدية في علاقتها بالحياة وبالموت. وإبان تواتر آيات القرآن تواصلت تلك الآيات مع الواقع الإنساني الأرضي أخذا وعطاء في جدل ينفع بالواقع ويفعل فيه يتأثر بمتغيراته ويعود ليغير فيه، وهو ما يعنى أن هذا النص الجليل لم يهمل الواقع وحراكه الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، بل عمد عمدا إلى إبراز وإظهار تفاعله معه وتبدله بتبدل الظروف الإنسانية والموضوعية البحث، بكل ما للإنسان وبكل ما عليه بغرض تأكيد دور الإنسان الفاعل في صياغة الواقع وصناعته، بل إن الجانِب الإلهي في المقدس عندما كان يفعل في الواقع زمن الدعوة المحمدية، أبدا لم يكن يفعل بتدخل إلهي مباشر، بل كان يفعل بواسطة البشر أنفسهم، وبذلك كان مشاركا للإنسان والإنسان مشاركا معه من صياغة الواقع ودفع الحراك التاريخي.

ومن هنا جاءنا الناسخ والمنسوخ والحديث القرآني عن آيات رفعت وأخرى بدلت، وثلاثة محيت ورابعة أنسييت.. إلخ، وهي أبواب معلومة في علوم القرآن، قامت على شهادة المقدس ذاته بما كان يحدث، لكن مثل ذلك الحديث سيبدو غريبا لغير المتابع وللمن لا يقرأون في علوم دينهم وقرآنهم ويكتفون بتلقيها شفاهة، وعادة ما يكون مثل هؤلاء هم أشد الناس دموية ولا إنسانية وأعظمهم تعصبا لأنهم أشد الناس جهلا بمقدسهم.

ثم إن هذا المقدس نفسه قد قرر على الناس مناهج مقدسة، وهى فى حقيقتها مناهج إنسانية ورأى بشرى ثبت صوابه فأقره الوحي، وكم من حالة أقر فيها الوحي آراء الصحابة مثل أبى بكر وعمر بوجه خاص. لذلك تجد مساحة الإنسانى فى القرآن الكريم هى المساحة الكبرى والفاعلية العليا، خاصة إذا لم تنس أن هذا المقدس لم يأت من أجل الله، فهو أجل من الاحتياج لأى أمر كان، لكنه جاء من أجل الناس وصلاح معاشهم، ومن هنا جاء الجانب الإنسانى ليعطى المساحة الأوسع من الآيات والأعظم، بينما كانت الإلهيات والغيبات فيه التى محل تصديق أو تكذيب، إيمان أو كفر، قبول أو رفض إما أن تؤمن بها أو لا تؤمن، فهى قليلة محدودة حتى أمكن صياغتها فى جملة واحدة يمثلها قانون الإيمان الإسلامى «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره».

لكن عندما اجتهد مفكر مصرى وقال إن النص القرآنى بمفارقته لمصدره الإلهى قد تأنسن وأصبح ملكا للبشر قامت الدنيا ولم تقعد إلا على تفسير وتكفير وطبول حرب دينية ومحاكم ومحاكمات وأحكام تفريق وردة، كما هو معلوم، رغم أن آيات القرآن تتم قراءتها بلسان إنسانى وحنجرة وشفيتين، وتُرى بعين بشرية، وتتداولها الحواس بآلات إنسانية فيزيائية بحث، بل وتختلف حولها الأفهام باختلاف المجتمعات الإسلامية وباختلاف المذاهب والرؤى، بل تختلف من شخص إلى آخر باختلاف الثقافات ودرجتها بين الناس.

كان هذا هو درس الوحي الأول والأخطر والأكثر تمييزا للدين الإسلامى عن بقية الأديان، أنه مع التحرر ضد التسلط، ومع التغير والحركة ضد الثبات والجمود، ومع الإنسان وقوانين الواقع وشروط العقل ضد كل المستغلقات والأساطير والألغاز والأحاجى والخوارق، وعندما كان يرد حديث الخوارق والمعجزات كان يأتى من باب ضرب المثل للترغيب والترهيب ليقوم هكذا كانت ثقافتهم، وهكذا كان منهجهم فى التفكير، وهكذا كان مستواهم المعرفى.

أما التشريعات والأحكام فكانت هى ذلك المتغير الضرورى الذى أثبت سمته المتغيرة والمتحولة زمن النبى نفسه مرات ومرات، كما فى أحكام المواريث وزواج المتعة والموقف من الرق والموقف من الخمر.. الخ. ليعطى الدرس للمؤمنين به ألا يثبتوا عند منطقة زمكانية بعينها، فيتم تقديسها وتصبح مصدرا لثقافة واحدة ثابتة لا تتغير. ليعطى الدرس أن تلك اللحظة الزمكانية وزمانها زمن الدعوة منذ ما يزيد على أربعة عشر قرنا، ومكانها الحجاز

وحده، لحظة بدء وانطلاق وليست لحظة ثبات وجمود. أعطى الدرس بأنه جاء يفجر كل قيود المكان، فكان ملكا للبشرية جمعاء، ويفجر كل قيود الزمان بدرس تغير الوحي مع متغيرات الواقع الأرضي. أعطى الدرس أنه مع المدينة ومع المدنية عندما أصبح اسم يثرب هو المدينة المنورة وعندما هاجم كل نزعات الارتداد عن المدينة بهجومه الكاسح والمتكرر على الأعراب. وقد وعى المسلمون الأوائل ذلك الدرس، وكان الصحابة من الخلفاء الراشدين نموذجا أول وعى هذه الحقيقة فاعتبر مصالح الناس والبلاد وحدها هي سبيل الرشاد للأحكام والقرارات، حتى لو خالفت تلك الأحكام والقرارات العقلية الإنسانية نصوصا إلهية، وهو ما تكرر بعد الخلفاء الراشدين في مواقف فريق المعتزلة المعلومة بين العقل والنقل.

وهكذا كان دفع النص القرآني الحثيث للمؤمنين به نحو التغير والتكيف مع مقتضيات الأحوال الأرضية، والأخذ بالعوامل الموضوعية والابتعاد بالناس عن منهج الخرافة والتواكل وانتظار الخلاص السماوي. وقد صحب ذلك الدرس النظري دروس عملية في أكثر من موقف حاسم إبان زمن الدعوة ذاته. بل كانت تلك الدروس العملية تحمل قدرا شديدا من القسوة والردع لنزعة الثبات والتواكل لتأكيد منطقها الإنساني والموضوعي والعقلاني. فجاءت غزوة بدر الكبرى لتعطي درسا أمثلا للمؤمنين، فعندما راعوا الظروف الموضوعية للمعركة، ودرسوا مواطنها واختاروا مواقعهم وأرسلوا الجواسيس والعيون لأخذ الأخبار عن عدوهم (دون انتظار للملاك جبريل)، وتهيأوا عسكريا وتدريبوا تدريباً كافياً انتهى الأمر بنصرهم نصراً عزيزاً، وعندما ركنوا إلى التدخل السماوي بالملائكة في غزوة أحد، وأهملوا شروط الواقع الموضوعية أصيبوا بهزيمة شديدة المرارة كادت تفصل في مصير الدعوة الإسلامية سلباً. وهكذا صحب الدرس النظري التطبيق العملي في درس واضح البلاغ والبيان والإفصاح المبلغ المبين.

أما الأشد إفصاحاً وأنصح جلاء فهو القرار الإلهي الرفيع بأن النبي محمد (ﷺ) هو آخر حلقة من حلقات تدخل السماء في حياة الناس على الأرض. فوصف النبي (ﷺ) بصفة اصطلاحية تحمل كل تلك المعاني، فهو النبي الختم والنبي الخاتم.

والختم هو ضمانته توثيق العهد ونهايته بعد أن استوفى جميع شروطه وبثوده، وبذلك

يكون الختم هو خاتم العهد واستيفاءه شروط الصدق وبنوده. ويصبح نبي الإسلام هو ختم العهد السماوى مع الأرض بكونه كان آخر رسالة تواصل للسماء مع الأرض بعد تواصلها مع الإنسان عبر زمن وتاريخ طويلين قامت خلالهما بتوجيه وتصحيح السبل والمناهج الإنسانية وليست السماوية. حتى جاء النبي الخاتم كآخر حلقة فى تلك السلسلة من التدخلات السماوية فى عالم الإنسانية. لقد بلغت الإنسانية سن الرشد وعليها من تلك اللحظة التاريخية الزمكانية أن تعتمد على نفسها ولا تنتظر تدخلا سماويا آخر. جاءت لتعلن انتهاء التدخل الإعجازى السماوى وبداية عصر العقل الإنسانى على الأرض، والعقل هو بضعة من العلم الإلهى والروح القانونى الكونى، وهو رمز الله فى الإنسان هو سر الإبداع والإنتاج والتوافق مع النواميس الكونية المتحركة التى لاتعرف الثبات. وبهذا العقل أو الأمانة التى حملها الإنسان استحق الخلافة على الأرض كنموذج للإبداع الإلهى فيها رمزا عليه وعلى اقتداره واتساقه بذاته مع القوانين التى وضعها بنفسه، وضمن تلك القوانين: الاتساق وعدم التناقض، والله لا يتناقض مع قوانين هو واضعها، وتلك القوانين هى التغير الأبدى، لذلك جاءت دروسه للإنسان كى يعى قوانين التغير فى الكون، من هنا كانت دروس الإسلام النظرية والعملية التى جاءت تؤكد بدء عصر العقل والإنسان على الأرض، وأنه قد بلغ سن الرشد، وأن أوان اعتماده على ذاته وعقله ومناهجه وتجربته الإنسانية بعد أن اختتمت السماء شروط عقدتها مع خليفتها على الأرض بمجىء آخر تواصل للسماء مع الأرض النبي محمد (ﷺ) خاتم الأنبياء والمرسلين، وانتهاء عصر المعجزات.

الإسلام والقضية
الإسرائيلية



السؤال الآخر:

الإسلام والقضية الإسرائيلية

«اتبعوني أجعلكم أنسابا، والذي نفس محمد بيده لتملكن كنوز كسرى وقيصر».

كان ذلك نداء النبي ﷺ يجلجل في مكة يعد من يتبع صاحبه بكنوز عظمى وفتوحات أعظم، وقد ظل هذا النداء يتكرر حتى بعد قيام دولة الرسول النبوية الصغيرة في يثرب، خاصة في المناطق الصعبة وهو ما حدث في غزوة الخندق والمدينة محاصرة بالأحزاب قد يدخلونها على أهلها بين فينة وأخرى، وساعتها أعلن الرسول وعده للمؤمنين أن الله قد فتح عليه بلاد الفرس وبلاد الروم، وهو مادعا مسلما أنصاريا هو (معتب بن قشير) ليعقب في المساحة الواقعة بين الوعد وبين واقع الحال، فيقول: «كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط!! وكما هو واضح رد ساخرينعى هما حاضرا لا ينبيء بمثل ذلك الوعد العظيم. لكن خط سير التاريخ كان مع صاحب الدعوة وأمله الكبير.

كانت مصر وساحل أفريقيا مع فلسطين وبلاد الشام جميعا تقع حيثئذ تحت ظل عرش قيصر الروم، بينما كانت العراق وما والاها شرقا تقع تحت مظلة كسرى الفرس، وكل الدلائل تشير إلى فراغ سياسى واضح ناتج بالضرورة عن انهيار قوى الإمبراطوريتين بعد حروب دامت وطالت، ولا بد أن تملأ هذا الفراغ قوة جديدة.

وقد وعى عرب الجزيرة الدرس وقرأوه بامعان وأدركوا دورهم التاريخى المنتظر، فكانت دعوة النبي ﷺ، وكان الوعى النافذ لرجل من سادة الملاء القرشى عظيم، هو الشيخ (عتبة بن ربيعة) الذى كللت السنوات رأسه بالحكمة فقرأ خطوط التاريخ المقبلة قراءة واضحة بوعى ضفروه موقعه القيادى فى دار الندوة، فقام يحدد موقف الملاء القرشى من محمد ودعوته بنداثة: «يا معشر قريش أطيعونى وخلّوها بى وخلّوا بين هذا الرجل وما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكون لقلوبه الذى سمعت منه نبأ عظيم. فإن تصبه العرب فقد كُفّتموه بغيركم، وإن ظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به».

وهنا يطفر السؤال: هل كان معلوما لدى صاحب الدعوة، وفي خطة الوحي أن بلاد الحضارات الشرق أوسطية القديمة، مثل مصر والشام والعراق، ستقع ضمن حدود الدولة الإسلامية الإمبراطورية المنتظرة؟ وأنها ستتحول تماما لتصبح دولا عربية تتبنى العربية لغة وثقافة وقومية بل وربما عنصرا؟

المشكلة أننا لو سلمنا بذلك لوقعنا في مأزق حرج بين ما يطلبه الإيمان وما تطلبه همومنا الوطنية والقومية، فنحن اليوم في أزمة حضارية طاحنة تستدعي تمسكا شديدا بالهوية مقابل الآخر الغاضب المتفوق، والهوية في مصر مصرية تضرب بجذورها آلاف من السنين في أزمنة غواير، والهوية في العراق عراقية تضرب بحضاراتها المتعددة من أكد إلى بابل وأشور في عمق الماضي فحازت العراق لاسمها، وبلاد الشام بدورها لا يقل وجودها الحضاري القديم عن شأن جيرانها، ثم يجمع هؤلاء جميعا رابطة العربية التي تحققت خلال قرون بعد الغزو العربي لها، لكن مكن المشكلة أن اعتزازك بذلك القديم العريق الذي يحفظ لك التماسك النفسي والروحي ويضمن لك عدم فقد الذاكرة التاريخية، سيتصادم فوراً مع موقف الوحي القرآني الذي كرم بني إسرائيل تكريماً مقارناً طوال الوقت بأصحاب تلك الحضارات مع تسفيه هذه الحضارات لصالح التاريخ الإسرائيلي، لأنه يعتمد في موقفه على الإيمان والكفر وحدهما، وكانت تلك الحضارات حضارات كافرة برب الشعب الإسرائيلي. لذلك يغرق فرعون مصر وقومه المجرمون في لجج بحر ينشق بالعصا الحية، لأنه كفر برب موسى وهارون الإسرائيليين، وينهار برج بابل فوق نمرود وقومه لأنه جادل الحق الذي جاء به الخليل إبراهيم أرومة العبريين، ويموت جوليات الفلستيني قتيلاً وهو يدافع عن أرضه ضد الاستيطان الإسرائيلي لبلاده بقيادة الملك داود، لأن جوليات كان بدوره كافراً. ومن هنا تطرأ الأسئلة الملحة والمشروعة إيماناً ووطنياً وقومياً، والتي تفرضها متغيرات واقع الأحوال منذ جاءت هذه المواقف وحيا مع بدء دعوة النبي ﷺ وحتى الآن أسئلة تبحث عن السواء النفسي والاتساق مع الذات ومع الإيمان ومع منطق الأحداث. تبغى التمدد في هويتها العريقة احتماء وتماسكا، وتريد في الوقت ذاته احترام المقدس وقواره حتى تطمئن إلى ما وقر في القلب حتى يصدق العقل ويطابقه العمل. وحتى يمكن ذلك سنحاول قراءة حركة التاريخ على مستويين: الحركة الأولى إبان تواتر الوحي في مكة والمدينة حتى وفاة الرسول ﷺ وتوقف الوحي والحركة الثانية منذ توقف الوحي، وحتى الآن.

وقائع الحركة الأولى

وعلى محور الحركة الأولى نطالع الدعوة الناشئة فى مكة وهى فى بدئها تبحث عن ملاذ وحلفاء وأتباع، وتمثل هذا البحث فى سعى صاحب الدعوة إلى كسب الولاء لدعوته، بعرض نفسه على شتى القبائل وعلى المستوى الاستراتيجى كان أهم نقطتين يجب التركيز على حلف أحدهما يتمثل فى مدينتين تقع كليهما على الخط التجارى الدولى الذى يمسك بعنان تجارة عالم ذلك الزمان. المدينة الأولى هى الطائف التى تقع على عصب طريق الشتاء اليمنى، والثانية هى يثرب الواقع عند عنق طريق الإيلاف الصيفى إلى الشام.

ويحكم المصالح التجارية المشتركة التى تربط أهل الطائف بالأرستقراطية التجارية المكية رفضت الطائف عرض التحالف مع الدعوة الجديدة، وبالمنطق نفسه - منطق المصالح - قبلت يثرب حلف صاحب الدعوة. بعد أن دفعها إلى ذلك أمران:

الأول: أن قريشا قد أسقطت يثرب من حسابات مكاسبها التجارية نتيجة لضعف يثرب الشديد بعد مجموعة الحروب الأهلية التى دارت بين بطونها وأحلافها، حتى لم يعد بإمكانها القيم بفعل مناسب على طريق الإيلاف الشامى للضغط على قريش، حتى تنال نصيبها من تلك المكاسب التجارية الهائلة. وقد رأت يثرب أن التحالف مع صاحب الدعوة هو الفرصة المثالية للوقوف ندا لمكة التجارية. بل وتشكيل تهديد حقيقى تمثل فى قمته فى قطع الطريق التجارى تحت قيادة زعيم قرشى من قريش ذاتها، قريش مكة التى سبق وأهملت يثرب من معادلتها الاقتصادية.

أما الأمر الثانى الذى دفع يثرب إلى هذا التحالف أو ساعد عليه بالأحرى، هو خثولة النبى وآل هاشم فى بنى النجار من الخزرج اليثاربة تلك الرابطة القرابية التى دعت الأخوال فى يثرب إلى استقبال ابن رحمهم الهاشمى، وفتح مدينتهم له لتكون نواة الدولة وعاصمتها المقبلة. ولا يغيب علينا دور الإيمان العظيم لأهل يثرب بالدعوة الجديدة، وهو الإيمان الذى هياهم له ومعاشرتهم لفكرة التوحيد الإلهى عبر أهلها من يهود يثرب، لكن ذلك تحديداً كان سببا فى جعل يثرب مدينة إشكالية لوجود العنصر اليهودى بها، مما استدعى - فى التعامل معها - تكتيكا من نوع خاص، أراد به الله إعطاء الدرس الموضوعى للمؤمنين.

من نافلة القول التأكيد أن يهود يشرب إنما كانوا عربا بكل معنى الكلمة، فقط كانوا يدينون باليهودية. ومثلهم مثل بقية يهود الشتات كانوا ينتظرون نبيا من بنى إسرائيل، يعيد لإسرائيل مجدها ويقيم لها دولتها الغابرة التى أنشأها داود وولده سليمان ، على أن يكون هذا الآتى من نسل تلك الشجرة وحين ظهوره سيمسح بالزيت المقدس مسيحا ليقم عمدا دولته ويعيد بناء الهيكل الذى دمره طيطس الرومانى عام ٧٠ ميلادية.

وقبل ذلك بزمان عانت الدولة السلیمانية من قوة جيرانها، فقد وجه الفرعون شيشنق لها أولى الضربات زمن رحبعام بن سليمان، ثم تبعه الآشوريون الذين قضوا على النصف الشمالى من دولة إسرائيل لينهى الأمر نبوخد نصر البابلى باحتلاله نصفها الجنوبى وسبى أهله. وهنا لم يبق أمام أنبياء شعب الرب سوى استمطار اللعنات على أعداء إسرائيل المتمثلين فى حضارات المنطقة القديمة، والتنبؤ بانتقام سيقوم به الممسوح المسيح الآتى بعد أن يقيم دولة إسرائيل على أنقاض دول المحيط المعادى لها. ومن هنا كثرت نبوءات الكتاب المقدس بنبى آخر الزمان الآتى من سحف الغيب.

وعندما ظهر النبى محمد ﷺ فى مكة، أرسل إعلانه يدوى بين فيافى الجزيرة ليصل من يهمهم الأمر يؤكد أنه نبوءة موسى وبشرى عيسى وأنه أحمد النبى المنتظر. وتم دعم ذلك بقصة الذبح التى كاد يتعرض لها أبوه عبدالله لتتناغم مع قصة الذبح التى كاد يتعرض لها إسماعيل ابن إبراهيم، حيث كان الذبح علامة على التواصل مع السماء. وقد تم تعويض ذلك الذبح فى اليهودية بذبح شاة أو بذبج جزئى للطفل بجراحة الختان التى أكدت التوراة أنها بصمة العقد الذى تم بين إبراهيم ونسله وبين الله، وبموجب هذا الختان/ الختم/ تم توثيق العقد والوعد بوراثه النسل الإبراهيمى الإسرائيلى للأرض ما بين نهر مصر إلى نهر الفرات.

ولكن لأن شرط النبوة التورانية أن تكون فى بنى إسرائيل، ولأن النبى محمد ﷺ ليس من بنى إسرائيل، فقد أمكن إيجاد الصلة مع الوعد بإرجاعه ليس إلى يعقوب المسمى بإسرائيل لكن إلى الأب الخليل صاحب الوعد والعقد الأول، إلى إبراهيم نفسه. وحيث إن إسماعيل كان أول من اختتن قبل شقيقه إسحق، أمكن القول بإمكان مجيء نبى آخر الزمان من الفرع الإسماعيلى ، دون شرط اقتضاره على الفرع الإسرائيلى من نسل إبراهيم. وهكذا تم ربط صاحب الدعوة بالمشروع الإسرائيلى، ليكون محقق الوعد لكن عبر النسل الإسماعيلى.

وهو الأمر الذى وعاه مؤرخونا الأوائل وعبروا عنه بهذا المعنى.



لازلنا على محور الحركة الأولى التى حددت علاقة النص المقدس بواقع الأحداث التى أصبحت تاريخاً، إبان تواتر الوحي فى مكة وقبل الهجرة إلى يثرب، فى دفعات متتالية من الآى القرآنى الكريم للتأثير فى يهود يثرب توطئة لهم لقبول دعوة النبى، بل وقبوله هو نفسه فى يثرب. فجاءت آيات الكتاب الكريم تتحدث عن مكانة بنى إسرائيل فى التاريخ السياسى والدينى للمنطقة، وكيف فضلهم الله على العالمين مع تأكيد أن محمداً إنما هو استمرار للنبوات المتوارثة فى البيت الإبراهيمى، مع تكرار لقصص أولئك الأنبياء منذ نوح وإبراهيم عبوراً على إسحق ويعقوب والأسباط وانتهاء بداود وسليمان وعيسى، باعتبارهم كانوا توطئة لخاتم النبوات. ومن جانبها كانت الأحاديث تؤكد أن محمداً كان غرة بيضاء فى جبين آدم تناقلتها أصلاب الأنبياء والطاهرين التى شخصت بميلاده.

ومن هنا جاءت الآيات تترى تؤكد لليهود يثرب الذين يترقبون ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ (٤٤ المائدة)، ﴿إنى رسول الله إليكم مصداق لما بين يدى من التوراة﴾ (٦ الصف). مع احترام واضح حتى للتفاصيل التوراتية الصغيرة وتوقيعها والإشارة إليها فى الآيات، كذكر شعيرة اليهود المقدسة التى كانوا يحملون بموجبها تابوتاً يعتقدون أن ربهم يرقد بداخله، وجاء ذكر هذا التابوت فى الآيات ﴿إن آية ملكه أن يأتىكم التابوت فيه سكينه من ربكم﴾ (٢٤٨ البقرة)، أو مثل كتابة الله للتوراة (بأصبعه فيما تقول التوراة) على ألواح الشريعة ﴿وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة﴾ (١٤٥ الأعراف). ثم تلى ذلك الموقف العملى للنبي عند حلوله كريماً على يثرب لتستنير به وتحمل اسم مدينة الرسول المنورة، فقد استقبل مع أتباعه قبلة اليهود فى الصلاة، بل وصام معهم يوم كيور/ الغفران/ يوم غرق المصريين وخروج بنى إسرائيل من مصر، ثم عقد الصحيفة مع يهود يثرب للتعاون والدفاع المشترك، مع كفالة تامة لحرية الاعتقاد. وإعلان عدم التناقض العقدى بين ديانة يهود وبين ما جاء به محمد، وهو ما تنطق به آيات كثيرة من قبيل ﴿وهو الحق مصداق لما معهم﴾ (٩١ البقرة)، ﴿وهو ربنا وربكم ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم﴾ (١٣٩ البقرة). وكان ذلك بالنسبة ليهود يثرب لونا من ممكنات مستقبلية تحول مركز الجزيرة وقلبها عن مكة إلى يثرب، وما سيعود نتيجة ذلك من منافع عظيمة، لكنهم أبداً لم يروا فى محمد النبى

الإسرائيلي المنتظر، بينما كانت خطوات النبي تلك تسجل على الجانب الآخر تباعدا مؤقتا عن أهل مكة في إنذار واضح لقريش كي تغير موقفها، وتستمع إلى التاريخ وهو بحث خطاه نحو تغير التكتيك من أجل سيادة عربية بقيادة قرشية مقبلة.



وبمرور الوقت لم يبق وداد الود على حاله، فقد استمر يهود يثرب يهودا دون اندماج كامل يضمن لدولة المدينة تماسكها، ثم تأتي غزوة بدر الكبرى لتضع بيد المسلمين القوة المادية سلاحا ومالا، وتمنحهم الثقة النفسية والقوة المعنوية، وهكذا آذن فجر الأيام البدرية بمغرب مرحلة آن لها أن تغرب. وأخذت آيات القرآن ترى تحمل روح سياسة جديدة، تنسخ ما قد سلف من حرية اعتقاد سمح بها في ظرفها، آتية بجديد يوطيء لخلاص يثرب الكلام لدولة الإسلام، لأن الدين قد أصبح عند الله فقط هو الإسلام ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (١٩ آل عمران). ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (٨٥ آل عمران).

وأخذت الجفوة في الاتساع لتتحول إلى عدا جهير صحبتته معارك طاحنة انتهت بخروج يهود من يثرب نهائيا، مع إيضاح جديد تحيطنا به الآيات علما في قولها: ﴿مَنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ (٤٦ النساء). ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ﴾ (٧٥ البقرة)، ناهيك عن تقرير القرآن أن القائلين بأن الله ثالث ثلاثة قد كفروا، قد صحبتته معلومة لم تكن معلومة بالتوراة، وهى أن يهود تقول عن الله الذى لم يلد ولم يولد أنه قد أنجب عزيزا ابن الله.

هكذا كانت حسابات الجدل المتفاعل بين صدق الواقع وبين الوحي الصادق الذى طابق الواقع وتحرك معه فى درس عظيم من البرمجة والتخطيط، بدأ على أمر وانتهى إلى أمر، وقفت بعده دولة الرسول موحدة شامخة بعد الخلاص المنكر الإيمانى الحى لدعوة الرسول، يهود يثرب.

لكن ماعلاقة كل هذا بسؤالنا التأسيسى عن أزمة مؤرقة بين ما يمليه الاعتقاد وبين همومنا القومية والوطنية؟ الإجابة رغم وضوحها فإنها سيبين فيها الخط الأسود من الخط الأبيض مع قراءة المحور الثانى للحركة التى تبدأ من وفاة الرسول ﷺ وتوقف الوحي حتى الآن.

وقائع الحركة الثانية

عملاً بخطة الرسول ﷺ التي استنتها بنفسه قبل رحيله إلى عالم البقاء، قامت الخلافة من بعده بحروب الفتوحات الكبرى التي انتهت بإدخال دول غير عربية تحت مظلة الدولة الناشطة، بل وتم استعرا ب سكان البلدان المفتوحة لغة وثقافة وعقيدة ومنهج حياة، فكان أن دخلت فى صفائر العروبة بلدان ذات حضارات عريقة، كان لها مواقف عدائية مع اليهود الغوا ب، وتتلو فى مقدسها مواقف تشين جذورها الحضارية وتقتلعهم منها، عبر الإيمان بكفر أصحاب تلك الحضارات من أجداد كانوا لنا عنوان الفخار، مع وجوب الإيمان بصدق الآخر الإسرائيلي وتبجيله إزاء الوطنى العريق. خاصة مع مرور زمان تمكن فيه يهود العالم من إقامة مجد داود وسليمان فى أورشليم مرة أخرى باقتطاع أرض عربية من أهلها لصالح شعب الرب والدولة الموعودة بالكتاب المقدس.

لقد كان الموقف قبل انجلائه فى بدر، يسعى لتأكيد العلاقة مع التوراة وأصحابها، بسرد القصص التوراتية فى آيات قرآنية تؤكد صدق نبوة النبى ليهود يثرب، وضمن تلك القصص تم تكفير حضارة مصر ممثلة فى قوم فرعون الذين أجرموا فى حق بنى إسرائيل فغرقوا عقابا واستحقاقا، كما انتصرت الآيات للملك داود الإسرائيلي وهوى قتل جالوت الفلسطينى وقيم على أنقاض الفلسطينين دولة إسرائيل، ثم تم الوقوف من حضارة العراق القديم ذات الموقف لأن ملكها النمرود جادل إبراهيم أرومة العبرين فى أمرربه فاستحق هو وإله دمار برج بابل والعذاب.

السؤال الملحاح لا يتخرج ولا يتراجع عن الاجتراء الحريئساء: ألا يكفر هذا الموقف فىنا نصف هوئنا إن لم يكن معظمها، ويكفر الأسلاف والتاريخ، ويقطع مع الماضى، ويفقدنا الذاكرة الوطنية؟ وإذا كانت خطة الوحى قد استدعت نسخ مصالححة يهود وكل ما ارتبط بها من آيات، لكن الحكمة الإلهية لصالح الوقف الجديد المعادى لليهود، لم تدخل ضمن خطة النسخ بقية البنود المرافقة لقصص مثل قصص فرعون وجالوت ونمرود، لكن ألا يشرخ ذلك فى الذات القومية تجاه الآخر المعادى المتفوق المحتل؟

فكيف نحل هذه الإشكالية دون أن نستهن بأى عنصر فى ديننا الحنيف الجليل، ودون أن نفقد تواصلنا مع أصولنا الحضارية التى تشكل هوئنا.

لا أتصور حلا يليق بجلال الوحي وتوقيره سوى إعادة قراءته غير منزوع من سياقه مرتبطا بواقعه وأحداثه لنعلم حكمة السبب، حتى لا يتصادم الإيمان مع العزة الوطنية بأسلافنا العظماء، ولا يتضارب الوطني مع القومي، ولا يتناقض القومي مع الإيمانى.

وهذا النوع من القراءة هو وحده الكفيل الآن برفع الالتباس فى علاقة الإيمانى بالقومى أو ما يمكن تسميته فك اشتباك، ومن جانب آخر يحقق مصلحة ضرورية هى رفع الانتهازية والاستخدام النفعى للدين ونصوصه حسب مصالح ذوى النفوذ، فنحارب إسرائيل بآيات ونصالحها بآيات ونبنى الاشتراكية بآيات ونفتح المجتمع الحر على السوق بآيات، وبحيث يظل النص القرآنى فى مكانه اللائق من ثقافتنا، دون مصادمات تفرز الأسئلة الصعبة، وربما نكون قد أصبنا، وربما نكون قد أخطأنا، لكننا نحاول لوجه مصر ولوجه الله مانبغى سوى الفهم وهو مطلب إنسانى طبيعى.

الثقافة الصالحة لكل
زمان ومكان حكمة
تحتاج إلى مراجعة



الثقافة الصالحة لكل زمان ومكان حكمة تحتاج إلى مراجعة

الإيمان هو التسليم والقبول والتصديق بموضوعات لاتخضع للدرس والنظر العقلي أو التجريبي، فهو تسليم بغيب أخبر عنه صاحب الدعوة، وهذا التصديق يعد مقياساً للالتزام بالديانة من عدمه، وصلاح الإيمان من فساده. ونموذج ذلك في الإسلام ما أخبر عنه القرآن الكريم، أو ما ورد في شكل أحاديث منسوبة للنبي محمد ﷺ، مثل التسليم والإيمان بوجود إله كامل مفارق للمادة خالد أزلى أبدي، ورسالات سبقت دعوة نبي الإسلام، وبآيات إعجازية كبرى حملها الأنبياء والرسل كدلالة صدق تكسر قوانين الطبيعة لأنها لاتخضع لنواميس العقل ومنظومته وقواعده، ومثل التسليم بوجود كائنات مجنحة نورانية تسكن السماء وتحف بعرش الإله ويحمل ثمانية منها ذلك العرش، كل تلك وغيرها كثير من الغيبات هي من شروط الإيمان، هي موضوعات لاتقبل البحث والبرهنة عليها، ومناقشتها من الأمور غير الممكنة، لذلك هي محل تصديق أو تكذيب، إيمان أو رفض، فإن صدقتها دخلت في زمرة أتباعه لتسليمك بها إيماناً بصدق المبلغ بها والداعى إليها، وإن رفضتها لا تدخل في زمرة هؤلاء. هي موضوعات محلها القلب والوجدان والضمير الداخلى، هي محل قبول أو رفض، يصلح دوماً عرضها على الناس الأمس واليوم وغداً، وتصح الدعوة إليها فى أى مكان، لأنها لاتطلب سوى التصديق القلبى والإيجاب والتسليم والانقياد بإيجاز هي قابلة للعرض على الناس فى كل مكان وزمان.

ومثل تلك الغيبات موضوع الإيمان يمكنك أن تجدها فى أى كتاب مقدس فى أى دين، لذلك سمي ديناً، ومثل هذا المقدس فى أى عقيدة، أمر يعتقد أتباعه ومن آمنوا به أنه صالح دوماً وأبداً لكل مكان ولكل زمان. ومثل هؤلاء جميعاً يعتقد المسلمون أن القرآن الكريم صالح لكل مكان وكل زمان، باعتباره كلمة الخالق الأزلى المبدع التى لاتقبل تبديلاً. لكن ذلك لم يمنع المدارس العلمية من مناقشة الكتب المقدسة والتعاطى معها

بالعقل وقوانينه وبمنهج العلم وشروطه، حتى أصبحت مدارس نقد الكتب المقدسة مرجعاً لاغنى عنه اليوم فى جامعات العالم - خاصة المتقدم - للباحثين فى شتى التخصصات، سواء على مستوى درس البعد التاريخى للنصوص أو أصولها الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية.

ورغم أن القاعدة تفترض صلاحية النصوص المقدسة لكل مكان وزمان بذاتها وبمحتواها وقوتها الذاتية، فإن التقدم العلمى الهائل والمتسارع إضافة إلى التطور الاجتماعى والسياسى الذى شهدته المجتمعات الإنسانية، أوجد مساحة ضخمة بين ثقافة ثابتة وتصلح رغم ثباتها لكل المتغيرات، وبين ما يحدث فى واقع الحال فعلاً من تباعد واضح من جانب منهج التفكير العلمى عن تلك الثقافة الثابتة، بل أصبحت فكرة الثقافة الثابتة الصالحة دوماً فكرة خارجة عن مفاهيم العلم وشروطه وعن قوانين العقل ومنظومته.

من هنا قام المفكرون المتممون لهذا الدين أو ذاك بمحاولات التقريب بين النصوص المقدسة وبين ما أفرزه ذلك الحراك الإنسانى المستمر والمتسارع من قواعد ومفاهيم ومعارف جديدة تماماً لم تكن معروفة زمن تدوين ذلك المقدس. وهو بالتحديد ما حدث مع الكتابين المقدسين التوراة والأنجيل تحت عنوان مدرسى هو: مدارس نقد الكتاب المقدس BIBEL. والواضح لدى الجميع أن الاتجاه الكهنوتى المصر على الثبات قد سجل مجموعة عظيمة من التراجعات أمام التقدم العلمى الهائل، كما لوحظ تحول هؤلاء عن العنف إلى التراجع السلمى، بعدما رسخت مفاهيم الحريات خاصة مبدأ حرية الاعتقاد، بل وبدأت هذه التراجعات. بمبادرات من رجال الكهنوت أنفسهم، بعدما بدأ الأمر فى فجر العلم التجريبي صراعاً دموياً عظيماً أدى إلى سفك دماء البشر أنهاراً مع أول بادرة نقد أو خلاف كانت تظهر.

الإسلام دين الحراك

لكن الحال مع الدين الإسلامى يختلف اختلافاً بيناً، حيث بدأت محاولات التوفيق بين العقل والنقل مبكرة جداً فى مدارس العرب، وأدت إلى نشوء فرق فلسفية تم تصنيفها جميعاً تحت عنوان مدرسى واحد لعلم جديد هو (علم الكلام). ونادراً ما أهدرت دماء مسلم لاختلاف حول أمر من شئون المقدس، قد أرست مدارس علم الكلام أقدامها بثبات منذ

فجر الدولة الإسلامية، مما فتح أبواب الاجتهاد على مصراعيها، حتى انتهت مدرسة المعتزلة إلى ترجيح حكم العقل إذا تعارض أو اختلف مع نص. وكانت تلك المدارس – والمناخ السائد الذي أدى إلى طمأنينة وسلام أفرزها – رحمة بالمسلمين، إذ تم إرساء حق الاختلاف حول أمور الدين مبكراً، بحسبان الإسلام تحديداً ملك جميع المسلمين وليس فيه أية سلطة كهنوتية تفرض رأياً بعينه في فهم النص دون فهم آخر، ومن ثم فقد أمسى راسخاً لكل مسلم واع واجب الاعتراف بحق تعدد الأفهام حول النصوص، وأصبح هذا الحق متاحاً للجميع على اختلاف مذاهبهم ومعارفهم.

وإذا كان ضمن عناصر المقدس موضوعات لا تقبل المناقشة هي الغيبات فإنه يحتوى ما يتعلق بالشرائع ومعاش الناس ومصالحهم، وهو الجانب الذي نصر على أن نطرح بشأنه أسئلتنا الأخرى، مع الابتعاد عن مناقشة الغيبات، رغم أن مناقشة الغيبات ذاتها ليست ممنوعة ولا هي مناطق محرمة، ولم يتوقف الباحثون المسلمون الأوائل عند الجانب المتغير بتغير الزمان والمكان وهو الجانب الحقوقي في الشرائع، بل تجاوزوا ذلك إلى بحث موضوعات الإيمان الغيبية، بل وتم بحث ودرس ومناقشة وجدل واختلاف عظيم حول أمور بحثية هي من الغيب المطلق مثل ذات الله وصفاته، وهل هي حقيقة أم مجازية؟ وهل القرآن مخلوق محدث أم قديم أزلي؟ لكن ذلك كان زمن القوة والافتقار، زمن العزة والثوق بالذات، عندما كانت الأمة عفية صبية قوية لا تخشى على ذاتها من حرية البحث بل وحرية الاعتقاد. لكننا نسمع اليوم كلاماً غير الكلام، ودعوة للعودة إلى سلف دون سلف، وإلى موقف متقن دون آخر، كما لو كان أسلافنا من باحثين عقلانيين ليسوا ضمن هؤلاء الأسلاف، رغم أنهم كانوا دوماً مصدر اعتزازنا وفخارنا. ونرى مواقف آنية تشير إلى حالة مستعصية من الخصاء الذهني المشتبك مع ذهان عقلى واضح، تسفك بموجها دماء بريئة باسم الدين والقرآن ويحاكم الناس على رأى أو قول، بل ويحاكمون في الأغلب على ضميرهم ونواياهم. ويصدر الأمر بالتنفيذ!

ولعل السبب الواضح هو حالة الانحطاط والتردى التي وصلنا إليها بين أمم العالمين، فكان رد الفعل هو التمسك الشديد بالذات، وبعدم فقد الإنسان علاقة الأمان مع الوطن تحولت الهوية من الوطن إلى الدين، من باب تجميع أكبر حشد من الأنصار والمؤيدين خارج إطار حدود الوطن. وتحولت تلك الهوية الدينية نحو المفهوم القبلى، وحيث نتحدث

عن بشردون الحديث عن حدود وطنية، فنحن نتحدث عن منظومة قبلية، فالقبيلة وحدها هي التي تتحرك باستمرار ولا تعرف أية حدود وبالتالي ليس لها وطن بعينه، لذلك استبدلت من فجرها مفهوم الوطن بمفهوم الحمى الذي يتحرك معها أينما تحركت، مفهوماً معنوياً وليس مادياً، يرمز له سلف القبيلة البعيد وسيدها القديم الذي عادة ما يكون هوربها الضامن عزتها وتماسكها اللزج الضروري إزاء تحركها الدائب وغير المستقر. لذلك كان استبعاد الوطن كهوية والإبقاء على الدين وحده يحيل بالضرورة إلى الشكل القبلي والفهم القبلي لتجميع الأمة متعددة الأوطان في قبيلة واحدة، يكون الخروج عليها إضعافاً لها، وبقوانين القبيلة العتيقة القديمة يكون هذا الخروج جريمة تستوجب التصفية والاستبعاد من دنيا الأحياء والمشكلة تكمن في تكييف شكل هذا الخروج، ولأنه عادة ما يتم تكييفه قانونياً فإنه يكون عرضة للتطرف في الفهم والحكم ويصبح أى قول أو مناقشة مدعاة لنعته بالخروج، وبالتالي للحكم والتنفيذ.

الشخصية الثقافية الثابتة

وقد اتخذ التمسك بالهوية خشية الذوبان في الآخر المتفوق وثقافته شكل الشخصية الثقافية القديمة الثابتة المقدسة، لنكون شعباً مقدساً يتحد بالله القوى، ألسنا خير أمة أخرجت للناس؟ وبذلك يمكن مواجهة الآخر القوى وثقافته المتغيرة دوماً بثقافة لا تتغير أبداً.

ولأن العلم المتقدم بكل منتجاته وكشوفه واختراعاته المبهرة قد ساعد الدول التي تم تصنيفها معادية، بل معادية للإسلام تحديداً، فقد تحول هذا العلم في نظر أصحاب الرؤية الثابتة إلى شيطان مريد مقتدر يساعد الآخر على التفوق كراهية في الإسلام. ومن هنا كان المزيد من التمسك بالشخصية الثابتة والهوية الدينية لإقامة حزب الله في مواجهة حزب الشيطان أو حلف العلم، ولأن الواضح والظاهر أن حزب الشيطان هو المتفوق حتى الآن، فإن النبوءة هي أن حزب الله هو الغالب بالتأكيد، مع محاولة استيهامية مريضة تؤكد دوماً أنه حتى هذا العلم قد تمت معرفته لدينا قبلهم عبر معرفة ربنا بكل تلك العلوم قبل أن يكتشفها العلم الغربي، وأنها محفوظة في كتاب الله من الأزل.

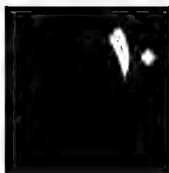
وإعمالاً لذلك قررنا الوقوف عند لحظة زمكانية، زمنها هو لحظة تواصل السماء مع

الأرض منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً، ومكانها بلاد الحجاز من جزيرة العرب. وتم تثبيت كل الزمن الماضى والزمن الحالى والزمن الآتى عند تلك اللحظة، لتتجاوز التخلف الحالى بتفوق قديم تمثل فى ذلك الدين القويم الذى أقام للعرب ديناً ودولة ودنيا وامبراطورية سامقة. غير مدركين أن الدنيا بعد تلك اللحظة قد تحركت تحركاً هائلاً وعظيماً. ودون أن ندرك أن ذلك التفوق القديم كان قياساً على زمنه وعصره، وأن الوقوف عند كل تفاصيله الدقيقة وتبنيته ثقافة لليوم . هو التخلف ذاته. ولانرى أن موقفنا اليوم من التغير والحركة مع المتغيرات هو ذات موقف من عارضوا الدعوة الإسلامية فى فجرها وقالوا: هذا ما وجدنا عليه آبائنا. وغير مكرثرين بالتناقض الصارخ بين القول بثقافة ثابتة وبين الموقف الواجب اتخاذه لصالح حالنا الراهن، كما تتناقض مع رغبة دفينه فى التغير وملاحقة الزمن، نبغى تطويع الكون المتغير لثقافتنا الثابتة بتأكيد أن أى تغيير يطرأ يوافق بتمامه وكماله ما نعلمه من موقعنا الثابت وثقافتنا التى وضعت من الأزل فى لوح محفوظ لتوافق كل تغيير ممكن حتى نهاية العالم.

ومن ثم لم نعد نفهم درس التغير الذى كان هو درس الإسلام الأول، ولم نعد نعى ما وعاه المسلمون الأوائل، بل لم نعد نقرأ ثقافتنا قراءة واعية، ناهيك عن الثقافة العالمية. وحولنا ثقافتنا من ثقافة إلى تمانم وتعاويد سحرية ندعوها على الأعداء كما ندعوها المطر إلى السقوط. ويمكن ببعض الأداء الطقوسى الرمضى استدعاء ملائكتها ومعجزاتها وكل كائناتها الغيبية لتحارب لنا معركتنا وتفعل فعلها فى الواقع، دون أن نبذل من جهد أكثر من مسواك ومسبحة وسجادة وترتيل وتنفيذ الأوامر فى السلوكيات. وبهذا يمكن لقوى السماء أن تدمر لنا الآخر المتفوق وكفى المؤمنين القتال، وهو غاية المراد من رب العباد.

إلا أن الواضح الظاهر الجلى أنه لا هذا ولا ذاك يحدث، وكل ما يحدث هو تفوق المتفوق، ومزيد من الهبوط والانحطاط والتردى على جانبنا. مع استهتار واضح بالمقدس ذاته بتبنيته عند تلك اللحظة التاريخية وتجميده، فى قوالب ثابتة ومفاهيم محددة لدى السلف، كما لو كنا لانملك عقولاً كما كانوا يملكون، ناهيك عما وصلنا إليه من انهيار شبه تام أصاب حياتنا ومعاشنا وفق تصور أننا نملك الحقيقة الكاملة والمطلقة والثابتة.

حول ما هو أهم من
تصريحات (الأب
الروحي) المشهور !!



حول ما هو أهم من تصريحات (الأب الروحى) المشهور !!

عراب مافيا الإسلام السياسى الأستاذ (مصطفى مشهور) ألقى القفاز فى وجه الدولة المدنية، وقذف بالكرة إلى ملعب دنيا المتنورين فأقام الدنيا ولم يقعدھا، رغم أن الرجل كان صريحا واضحا بسيطا صادقا مع نفسه ومع ما يعتقد ومع أهداف جماعته المعلنة، ومع الأيديولوجيا الشمولية التى يتبنى إليها. فلم يكذب ولم يدلس ولم يلتو، إنما قال ما يؤمن به سافرا فاضحا، حيث قال - فض فوه - فى حوار صحفى: إن جماعته تطلب تحصيل الجزية من أقباط مصر مع استبعادهم من الجيش تحسبا لخيانتهم للوطن. الرجل لفق على المسيحيين نعم، لكنه لم يلفق فيما يعتقد ولم يقف فى مناطق الوسطية الانتهازية النفعية المائعة وقال كلمته بشجاعة جسور.

والغريب فى الأمر جميعه أن الهجوم تعامل مع الرجل، كما لو كان قد قال فرية أو جديدا لانعلمه، كل مافى الأمر أنه نفخ الرماد الهش الذى يخفى تحته الجمار الملتهب، ونحن نأنس للرماد لأنه يساعد على إخفاء الحقائق والتناسى. ونسيان يلقيه من يزعمون التقدمية والتنوير على لهب لايجرؤون على الاقتراب منه لأنهم يحذرون المناطق المملوغة، بل ويرتعبون من مجرد مساندة من يقتربون منها حقًا ويحترقون بها صدقا، بمنهج علمى واع رصين وبروح وطنية فدائية لاتعرف تعدد الألوان حسب المصالح والهوى. إن هؤلاء البعض الذين هاجوا وماجوا وأرغوا وأزبدوا هم أكثر زيفا من كل إفك وتلفيق، فهم يريدون الأمور على هواهم، ولا يريدون ريحا مفاجئة تطفئ شموع طرقهم السرية فى تحالفات مصلحية مقبلة.

نعم ربما صفق هؤلاء المستنيرون لباحث عاشق حقيقى لوطنه تثن كبده وتنزف روحه ولها عليه، بمنطق التصفيق للفدائي أو الجندى المجهول، لكنهم فى الوقت ذاته يصمتون صمت القبور ويكمنون كمون البوم إزاء أبحاث صادقة حقيقية رفيعة علمية هادئة لاتبغى

نفعا سوى وجه هذا الوطن، تخوض عش الثعابين وتصارع بروح قتالية عالية وفدائية نادرة. تؤمن بهذا الوطن وتحب هذا الوطن وتتعشقه حتى الموت فرحا باختلاط دماؤها بثره. ويكتفى المستنيرون الكبار بإعلان الإعجاب بهذه الأبحاث العلمية فى ندوات ديوانية جانبية وجلسات ثقافية بيتية، وعادة ما يكون الإعجاب أقرب إلى الهمس لأن الصوت المسموع يضر بالمصالح والتوازنات وألعاب السياسة البهلوانية، ولأنه قد يودى بالحياة وهم يحبون الحياة حبا جما. وإذا اضطروا لإبداء الرأى إزاء هؤلاء الباحثين المهمشين عمدا، المعتم على أعمالهم قصدا، فإنهم عادة ما يسلكون سلوك العاقل الرصين المتزن الثقيل، فيقولون أقوالا مرسله لاهى مع ولاهى ضد، أما بعضهم من أنصار تحالف المستنيرين مع عقلاء الفكر الدينى فإنهم عادة ما يشجبون، وربما باعوا تلك القلة النادرة والفذة من مفكرى مصر المخلصين مع أول صفقة سلطانية ليذبحوا وتهتر دماؤهم أو ينفوا من بلادهم، ولا بأس أثناء ذلك من بعض التمثيليات المبتذلة التى تشجب وتدين الإرهاب الفكرى، ويعود الجميع بما غنموا من عزاء واجب وماداييم إلا وجه الله.

وهؤلاء ذاتهم من شرعوا كل سيوفهم العتريّة وتنابدوا بالأقلام عندما أعلن مشهور ما يعلمونه جميعا يقينا ويغمضون عنه العيون وتبلىد أفهامهم إزاءه بجبن رخيص، وتتم المتاجرة بالوطن هنا وبالله هناك. ناهيك عن السماسرة المقتدرين من رجال شئون التقديس المحترفين على الجانبين الإسلامى والمسيحى، الذين يميعون كل المواقف بلثم لحي بعضهم بعضا فى تظاهرات إعلامية مقيّنة ورخيصة و(يدفونه سوا) وسرا وهو أشد فتكا بالوطن من النفايات النووية، تحت غبار هش لا يصمد مع أول نفخة، وهو ماتكرم (مشهور) بعمله ببساطة، وبكل بساطة ودون أن يرتكب إثما دينيا، بل ولاحتى وطنيا. ألا ينص دستورنا التليد الخليط بكل أنواع السلطة إسلامية على اشتراكية على ليبرالية على سمك على لبن على تمر هندى، عملا بالشعار الرفيع والأسمى: كله عند العرب صابون؟ ألا ينص الدستور أن لدولتنا المدنية دينا رسميا (!؟) هو الإسلام، وأن الشريعة الإسلامية هى المصدر الرئيسى للتشريع، فأين أخطأ الرجل؟

لقد ببح صوتنا حول هذا الأمر لكن لحياتة لمن تنادى، ولأن هذا الكلام ليس أوانه، ولأنه خوض فى محظور خطر، رغم أنهم يعلمون يقينا أنه إذا فات أوان اليوم، ونحن على هذه الحال، فلن يكون لنا بعد ذلك أوان.

وعصبة الإخوان أقوياء بضعف موقف هؤلاء السادة وحذرهم الشديد أمام التابوهات، وجميع فصائل الإسلام السياسى تعلنها صريحة أن ما يفعلونه ليس ناتج فكرة أو آرائهم الشخصية، إنما هو تنفيذ لأوامر إلهية صريحة واتباعا لسنة فعلية وقولية صريحة، حتى القتلة الإرهابيين منهم يستندون إلى نصوص لا تقبل لبسا، ومع ذلك لا يجد مشايخ السلطة أى بأس من الكذب والتدليس فى تلفازنا المبارك أسكت الله له حسا، فيلجأون إلى منهج انتقائى باطل من النصوص للرد على نصوص الإرهابيين رغم أنهم يعلمون بحسب علوم القرآن، ومن أبواب النسخ أن آية السيف قد نسخت كل آيات حرية الاعتقاد، والناس جميعا تعرف ذلك، ومع كل هذا يجلس مشايخ السلطنة يلققون رغم أن الكل يعرفون، وتستمر التمثيليات العشبية دون قلم جرىء مجتهد واحد يطلب مثلاً إعادة النظر فى مفاهيم النصوص ذاتها بما يتفق وظرفنا وزماننا، حتى أننا لم نقرب حتى اليوم من نصوص الرق والسبايا والعبودية إطلاقا، ولا حتى طالبنا مجمعا دينيا بإصدار ما يفيد بإيقاف العمل بأحكامها، قياسا على اجتهادات جريئة أخرى مماثلة سبقتنا. فأى كارثة نعيش أيها السادة؟

وفى الحوار الذى سبب الأزمة مع عراب الإخوان يقول الصحفى المحاور (خالد داود) أن (مشهور) لم يكف عن ترديد أنه لا يقول قول جماعة ولا يرفع مجرد شعار ورأى خاص ولا قول مشهور، إنما هو يتحدث عن نصوص صريحة فى القرآن وفى السنة وفى الشريعة، وأن الجزية جزء أصيل فى شريعة الإسلام. لكن حول هذا الجزء الأصيل لم يتكلم أحد من عناترنا، بل كأنهم لم يسمعه أو يقرأوه ولم ينطق أحد وتغابت عنه جميع الأفهام ووجهوا نحو الرجل دون الأصل كل إداناتهم. فأثبت المهاجمون للرجل أنهم دونه شجاعة وأكثر مداورة وأشد التفافا حول الحقائق. وقد عبر الصحفى (خالد داود) عن ذلك بقوله: «إن هذا قول كاف لزرع الخوف والرعب فى قلب أى محاور لأنه ببساطة يوجه الحديث إلى مناقشة أمور عقيدية». والمطلوب بنفس البساطة التغافل عن ذلك والتعامى عنه وعدم المناقشة.

وهذا طبعا لا يعنى صدقا حقيقيا فى المواقف المعلومة للأب الروحى وعصابته المشهورة، فهو فى ذات الوقت الذى طلب فيه تطهير الجيش من المسيحيين، أكد بكل كذب مفصوح وتلفيق أشرأن المسيحيين يريدون تطبيق الشريعة الإسلامية هكذا (١٩)، وبغض النظر عن هذه الصورة الكاريكاتورية، فإنه حتى هذا الكذب له مسوغاته من زمن الرعيل الإسلامى الأول وزمن الصحابة وأيام تدوين الأحاديث، فهو الكذب المستحب،

بالضبط كالأحاديث النبوية المكذوبة لكنها المستحبة.. وأنها رغم كذبها فهي فى سبيل الله. وأن مثل هذا الكذب الشرعي ليس جديدا، فقد أسس له أبودياناات المنطقة وأبو أنبيائها سلفا عن خلف، عندما كذب ثلاث كذبات توصف بأنها جميعا (فى الله)، وذلك عندما ادعى السقم وعندما قال فعلها كبيرهم هذا، وعندما قال لملك مصر عن سارة زوجته (هى أختى). فحتى الكذب عند السيد مشهور ولو كان مضحكا فهو كذب شرعى مشهور، لم يناقض الرجل فيه نفسه ولا تاريخ منظومته.

أما المستنيرون الأعلام المنتشرون فكانوا هم أهل المداورة والالتفاف والكذب البواح الصراح، يمسكون كل شىء من منتصف ليميلوا مع ثقل أحد الطرفين حسب المستجدات من ظروف ومتغيرات، لذلك لم يقترب أحد ممن حدثونا من جوهر وسر الداء السدين، ومناقشة الأصول دون الفروع. كل الكلام كان عن زمان وكان ياما كان من حب ولهيب مشتعل من الغرام بين المسلمين والأقباط، ولطالما عانق الهلال الصليب، وكلنا حلوين وكلنا طعمين، رغم ما يغص به تاريخ مصر من ألوان اضطهاد رسمى وشعبى على مر التاريخ وحتى الآن. بل لقد تم إسقاط ما يقرب من ألف عام من تاريخ مصر، لأن شقها الأول كان ثورة قبطية ضد الرومان لاتشغلنا كما لو كان المسلمون غير مصريين، وهو منطق يشع يؤصل دوما لفكرة غزو عربى طويل الأمد طالما لم يشغل المسلم بتاريخ وطنه وتركه للأقباط. أما الشق الآخر من تلك المدة الطويلة المنسية، فقد كان ثورة مصرية ضد الغزو العربى مُسحت أيضا مسحا من تاريخنا لأنها قبطية كما لو كنا لسنا بدورنا أقباطا، أعنى مصريين؟!

هؤلاء السادة لم نسمع لهم صوتا حول هذا الأمر- مثلاً أيضا مجرد مثل - ولم يملكوا شجاعة العراب المشهور على مواجهة الحقيقة من أجل حسم كثير من الأمور التى تقف عثرة كبرى ومصدر خطر عظيم، لنعطى ماله لله وما للوطن للوطن، وهو الأمر الذى نلح عليه ونقدم فيه جهودا معلومة ولن نتنازل عنه، مهما ظل هؤلاء يشيخون عن المطلوب الأساسى برعب غير خاف من الاقتراب من مواطن التحريمات والتكفيرات، حيث هناك الفزع الأكبر.

علينا أن نفتح كل نوافذ البحث الرصين على مآثورنا، ونعترف بما فيه ببساطة دون تأويلات مخلة لاتخدم الحاضر، وقد تضرر بالدين نفسه، ولا بالاتقاء منه حسب المناسبات أحيانا وحسب هوى السلاطين أحيانا أخرى، والنموذج هنا من ذلك المأثور أن

النبي ﷺ عندما قيل له في غزوة أحد عن استعداد حلفاء المسلمين من يهود يثرب للقتال في صفه قال: نحن لانستعين بأهل الشرك على أهل الكفر، ورفض العرض، مشهور لم يخرج بذلك على ما يعتقد، لكن المطلوب بعد الاعتراف إعادة نظر شاملة في فهم النصوص المقدسة، وفي أحكامها وفيما يجب اليوم العمل بحكمه بقانون مصلحة العباد الذي شرعته علوم الفقه ولم تجرمه، بل حضت عليه وحرضت، وما سبقنا إليه السابقون من مستنيرين، منذ أزمان حين قال أبو الفضل الأندلسي والسنون تردد صداه:

قل لمن لا يرى المعاصر شيئا	ويسرى للأوائل التقديما
إن هذا القديم كان جديدا	وسیغدو هذا الجديد قديما

تقييب على لقاء
نتانيا هو بالمتقين
المصريين



تعقيب على لقاء نتانياهو بالمثقفين المصريين

ولأقصد هنا التعقيب على الحوار أو على كل ما قال السيد نتانياهو، لكن فقط على فقرة واحدة قالها فى هذا اللقاء، وأوردها الأستاذ عبدالستار الطويلة فى عدد ٣/١٠ من روز اليوسف.

يقول الأستاذ عبد الستار: «وهو- أى نتانياهو- لا يعدم حجة يقلب فيها حقائق التاريخ، فهو يقول فى براءة شديدة وهو يسيّر احتلال يهودا والسامرة، كما أصر على تسمية الضفة الغربية بشكل مستمر طوال اللقاء: نحن لسنا الأمريكيين أو الفرنسيين الذين ذهبوا لاحتلال فيتنام والجزائر، هؤلاء غرباء عن الأرض والشعوب هناك ولا حق لهم فى ذلك، أما نحن فهذه الأرض هى أرضنا، والذي حدث أننا طردنا منها ونريد استردادها».

وكنا نظن أننا قد تجاوزنا هذا المنطق من حقبة الستينيات لكن السيد نتانياهو بالتزامه العقدى الواضح والمعلن قد أعادنا مرة أخرى إلى تلك المنطقة من التاريخ بمنطق يدعى الحقوق المؤسسة على التاريخ.

لن أكرر هنا القول المأثور إن كان ذلك كذلك، وكان لابد من إعادة الأراضي المسلوقة عبر التاريخ إلى أصحابها، فعلى العالم المتقدم الذى يأخذ بهذا المبدأ أن يعيد القارة الأمريكية إلى الهنود الحمر.

ولن أكرر هنا أن الحقوق الدينية لا تعطى حقوقاً فى الأرض، وإلا كان للمسلم الأفغانى والصينى والأندونيسى حقوقاً فى أراضي الحجاز، وهو ما لم يدعه مسلم عاقل أورشيد.

ولن أكرر ما سبق وقلته فى أعمالى المشورة عن كون إسرائيلى اليوم أمراً يختلف تماماً عن بنى إسرائيل التوراتيين، وإلا كان على السيد نتانياهو أن يقدم لنا أهم وثيقة تؤكد تلك الحقوق، وأنه وفق منطق هو عليه أن يقدم لنا شهادة إثبات نسب تعود به رأساً للنبي يعقوب المعروف بإسرائيل.

نعم نحن نعلم أن في الأزمنة الخوالي كانت هناك العقود المكتوبة بين أفراد مجتمعات الأمم المتحضرة لتؤكد الحقوق، أما القانون كما في مصر القديمة فقد كان للعالم مثلاً، ولكننا نعلم من توراة السيد تانياهوان أولئك الذين يتسبب إليهم لم يكونوا ممن يفكون الخط، لذلك عمل يعقوب مع خاله الآرامى رجمة حجارة لتكون علامة شاهدة على عقدهما أسماها (يجر سهدوثا)، وأعطى إبراهيم سبع نعاج لأيمالك ملك جرار الفلسطيني وزرع شجرة أثل عند بئر سبع (لذلك سميت كذلك) كى تكون شاهدة على عقده مع أيمالك حول ملكية أحد الآبار- وليس شيئا كالنيل مثلاً- أو بالنص التوراتى «وأقام إبراهيم سبع نعاج من الغنم وحدها، فقال أيمالك لإبراهيم ماهى هذه السبع نعاج التى أقمته وحدها، فقال أنك سبع نعاج تأخذ من يدى لكى تكون لى شهادة بأنى حفرت هذا البئر، لذلك دعا ذلك الموضع بئر سبع لأنهما حلفا كلاهما هناك، فقطعا ميثاقا بئر سبع.. وغرس إبراهيم أثلا فى بئر سبع/ سفر التكوين ٢١/٢٨ - ٣١»..

وهو ذات الأمر الذى تكرر مرة أخرى مع أيمالك الفلسطينى لكن البطل هذه المرة لم يكن إبراهيم بل ابنه إسحق، وكان النزاع حول البئر التى سميت بئر سبع أى بئر القسم/ القسم الذى أقسموه على عهد غير مكتوب فهى تعنى الرقم سبعة كما تعنى القسم أو الحلف (انظر سفر التكوين ٢٦/٢٢ - ٢٣).

مجرد بئر كانت البداية، وحولها تناقضت رواية التوراة مما يشير إلى بطلان القصة بكاملها من أول سرد لها بكتاب ينعت بالمقدس.

نعم نحن نعلم أنهم لم يكونوا من بين الشعوب التى تعرف الكتابة حينذاك، حتى أن العهد الأعظم وهو المزعوم قد حدث على ذمة التوراة بين إبراهيم وبين الله لياخذ أرض فلسطين من الله، كان بموجب عقد موثق مختوم بخاتم واضح، وكان أى ختم؟ وأى توثيق؟ كما تقول التوراة: «وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدي أنت ونسلك من بعدك فى أجيالهم، هذا هو عهدي الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك، يختن منكم كل ذكر فى لحم غرلتكم (أى فى القضيب الذكري) فىكون علامة عهد بينى وبينكم/ التكوين ١٧/٩ - ١١).

وبالطبع ليست تلك هي الوثيقة التي نطلبها من السيد نتانياهولتؤكد الحقوق التاريخية التي يدعيها، فلا هو يستطيع إبراز تلك الوثيقة للإعلام العالمي، ولا أى محكمة يمكنها أن تأخذ بهذه الوثيقة المعتمدة بختم الطهارة (بالطبع هي غير الطهارة الثورية). ناهيك عن أنه إذا كان هذا الختم وتلك الوثيقة إعلانا عن امتلاك بترسبع (البتر فقط وليس المدينة) فلاشك أن المطالبين بحق الملكية وما يملكون من صكوك إثبات لن تكفيهم آبار الدنيا (للعلماء النفس رأى فى تلك القصة وهى عندهم تعبير عن الفعل الجنسى، فالقضيبي معروف والبتر رمز الفرج).

والغريب فى أمر نتانياهوا أنه يؤكد حقوقه اليوم فى فلسطين اعتمادا على حقوق الآباء الأولين وإقامتهم فى فلسطين، رغم أن توراة السيد نتانياهوا تؤكد وتعيد وتزيد أن أرومة العبريين إبراهيم ذاته كان غريبا على أرض فلسطين، وهو الأمر الذى ظل يكرره أخلافه من بعده، مما يجعل كلام السيد نتانياهوا غريبا غرابتهم على فلسطين. انظر معى ياسيد نتانياهوا توراتك إذ تقول بلسان إبراهيم وأخلافه :

١ - فخرجوا معاً من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان تكوين ١١ / ٣١.

أى أن القبيلة الإبراهيمية جاءت إلى فلسطين وافدة من أرض أخرى وبلاد أخرى، وقد أثبتنا فى كتابنا (النبي إبراهيم والتاريخ المجهول أن أور الكلدانيين هذه تقع فى بلاد أرمينيا الحالية ولا علاقة لها بالمنطقة).

٢ - وقال الرب لإبراهيم اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التى أريك. تكوين ١٢ / ١.

٣ - أنا الرب الذى أخرجك من أور الكلدانيين ليعطيك هذه الأرض لترثها. تكوين ١٥ / ٧.

٤ - لأكون إلهك ولنسلك من بعدك وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان. تكوين ١٧ - ٨، ٧.

ولعل القارئ لاحظ - كما لاشك يعلم السيد نتانياهوا يقينا - أن التأكيد على غربة تلك القبيلة عن أرض كنعان تكاد تتكرر فى كل إصحاح، نكتفى منها بتلك الأمثلة لأن إحصاءها يحتاج صفحات طويلة من الملل.

وهكذا جاء السيد نتانيا هو بافتراء واضح على التاريخ بل على توراته ذاتها التي يعرض عليها بالنواجذ. لقد وصل أسلافه قادمين من بلاد بعيدة غرباء على أرض كنعان. الرجل ذكى ومذاكر توراة كويس، سيرد علينا نعم كان أهل الأرض كنعانيين وهم شعب سامى لايمكن لأحدنا أن يدعيه لنفسه دون الآخر. لأن كلينا سامى لكن لديك أيها السيد فى توراتك ذاتها مايشير بوضوح إلى أن الفلسطينيين قد سكنوا تلك الأرض قبل مجيء أجدادك إليها من أرمينيا أو من حيث ألفت، ولم يكن فقط سكانها الكنعانيون، لقد وصل إبراهيم وكانت تلك البلاد لاتسمى بلاد الكنعانيين رغم سكن الكنعانيين فيها، لكنها كانت تسمى أرض الفلسطينيين.. هكذا بوضوح فصيح تسميها التوراة أيها السيد المؤمن وقد ورد ذلك فى قصة طريفة لاتستحي التوراة من ذكرها فلاحياء فى الدين، والتوراة كما تعلمون أيها السيد لاتعرف الحياء.

كان إبراهيم جدك البعيد حسبما تزعم، وإن كنا فى شك عظيم فى ذلك لوناقشناك، لكننا على يقين فى عدم نسبتك إليه دون أن نناقشك، كان جدك هذا قد نزل مصر يستجدى القوات بعد مجاعة حلت ببلاد فلسطين، ونستمع معا إلى تراويل التوراة إذ تقول : «وحدث جوع فى الأرض فانحدر إبراهيم إلى مصر ليتغرب هناك لأن الجوع فى الأرض كان شديدا. وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لساراي امرأته : إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون هذه امرأته فيقتلوننى ويستبقونك، قولى أنك أختى ليكون لى خير بسبك وتحيا نفسى من أجلك/ تكوين ١٢ / ١٠ - ١٣»

ثم نفهم من بقية الرواية أن ادعاء سارة الأخوة لإبراهيم لم يكن اتقاء إبراهيم للقتل، إنما لسبب آخر تروييه التوراة تذكرا للعالمين إذ تقول : «فحدث لما دخل إبراهيم إلى مصر أن المصريين رأوا المرأة أنها حسنة جدا، ورآها رؤساء فرعون ومدحوها لدى فرعون. فأخذت المرأة إلى بيت فرعون فصنع إلى إبراهيم خيرا بسبها وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وإتن وجمال. فضرب الرب فرعون وبيته ضربات عظيمة بسبب ساراي امرأة إبراهيم، فدعا فرعون إبراهيم وقال : ما هذا الذى صنعت بى لماذا لم تخبرنى أنها امرأتك؟ لماذا قلت هى أختى حتى أخذتها لى لتكون زوجتى. والآن هو ذا امرأتك خذها واهب، فأوصى عليه فرعون رجلا فاشيعوه وامرأته وكل ما كان له/ تكوين ١٢ - ١٠ - ٢٠».

سنفهم الآن المراد والمقصود عندما نعلم أن ذات الأمر قد تم تدبيره للملك أبيمالك، فنقرأ: «وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرب في جرار وقال إبراهيم عن سارة امرأته هي أختي، فأرسل أبيمالك ملك جرار وأخذ سارة/ تكوين ٢٠/ ١، ٢» وكانت النتيجة «فأخذ أبيمالك غنما وبقرا وعبيدا وإماء وأعطاها لإبراهيم ورد إليه سارة امرأته وقال أبيمالك هوذا أرضي قدامك اسكن في ماحسن في عينيك وقال لسارة: إني قد أعطيت أخيك ألفا من الفضة/ تكوين ٢٠/ ١٤ - ١٦». وتكررت القصة ذاتها مع ولده إسحق بحذفيرها لكن لنسمع هنا القول: «فذهب إسحق إلى أبيمالك ملك الفلسطينيين، إلى جرار/ تكوين ٢٦/ ٢». التوراة هنا تنتهي إلى تعريف أبيمالك بأنه ملك الفلسطينيين، لقد كان الفلسطينيون قد استقروا في الأرض وأقاموا فيها ممالك أدت بالنبي صفييا إلى مناداتها في سفره «يا كنعان يا أرض الفلسطينيين/ صفييا ٢/ ٥». حيث هناك زعم تروجه جامعات العالم يقول: إن الفلسطينيين - أو كما ذكرهم التاريخ (البلست) - قد قدموا من كريت إلى فلسطين، فحتى لو كان ذلك هو الحادث تاريخيا فإن التوراة تقول بمجيء أرومة العبريين إلى بلاد كنعان وقد عرفت باسم أرض الفلسطينيين، لقد كان البلست قد أقاموا في فلسطين زمنا كافيا قبل ذلك ليمنحها اسم الفلسطينيين.

ومع منظومة أخلاقية كتلك المنظومة التي حدثتنا عنها التوراة لا يكون هناك مجال للقول ببقاء الجنس الإسرائيلي مع هذه البداية التي لا تبشر بخير، ناهيك عن كون هذا النقاء الجنسي ظلما لطبيعة الإنسان فمن المستحيل أن تقنعنا ببقاء هذا السلسال خلال ألوف السنين، وأن البذرة الإسرائيلية ظلت تتناقل في أرحام الطاهرات حتى وصلت يهود اليوم. لأنه من جانب آخر هناك مغالطة تتم بموجيها المطابقة بين مفهوم الدين اليهودي وبين العنصر أو الجنس الإسرائيلي، بحيث يبدو وفق تلك المغالطة أن يهودي الفلاشا الزنجي ويهودي روسيا الأحمر ويهودي المنطقة السامي ويهودي أمريكا المهجن، هم جميعا يعودون بالنسب إلى جدهم يعقوب إسرائيل.

فنحن كبشر لانستطيع التسليم بلون خارق من العفاف الجنسي المنقطع النظير عند بنات يهود، حتى تحمل البذرة الإسرائيلية خالصة، ولن نضرب هنا أمثلة ضربناها كثيرا في أعمالنا المنشورة عما يروج به الكتاب المقدس من صخب جنسي وصهيل شبقى لبنات

صهيون على الشباب الفتى لأمم غير إسرائيلية. (انظر مثلاً سفر إرميا ٣٠، ٥٠، ١٣ وحزقيال ١٦.. الخ). ولهذا السبب تحديدا وضعت دولة إسرائيل قانونا لا يعتبر الفرد بموجبه يهوديا إلا إذا كانت أمه يهودية.

لكن المشكلة أننا إذا طبقنا هذا المبدأ على مؤسس دولة إسرائيل الملك داود، ثم على أشهر ملوكهم الملك سليمان، فسنجد الأول حفيد راعوث، ولم تكن لإسرائيلية جنسا ولا يهودية دينا إنما كانت موآبية، أما سليمان فقد رزق به أبوه داود من امرأة حيثية لا يهودية ولا إسرائيلية. وطبقا للقانون وإعمالا لبنوده فإن كليهما لم يكن يهوديا ولا إسرائيليا وإنما فلسطينيان لأن الأمهات فلسطينيات، وتكون المؤسسة الكبرى من البدء دولة فلسطينية تم سلبها لصالح يهودا.

يبدو هكذا أنه لم تصبح لدى السيد نتانيا هوأية وثيقة تعطيه حقوقا فى الأرض حتى أساطيره لاتسعه، وبالطبع لن نقبل منه الوثيقة التأسيسية فلدينا منها الأقوى والأكبر والأكثر عددا ونفيرا.

حدود الاجتماع
(منافسة)
تلفزيونية) - ١



مناظرة تمت على شبكة تليفزيون الأوربت الفضائية بين سيد القمنى ود.عبد الصبور مرزوق بتاريخ ١١/٣/١٩٩٦ ..
والبرنامج تقديم عماد الدين أديب، البرنامج يقدم على الهواء مباشرة ويسمح للمشاهدين بالمشاركة تليفونيا.

حدود الاجتهاد

(مناظرة تليفزيونية) - ١

المقدم : مساء الخير، واضح أن قضية الأمس والحوار الذى دار بالأمس مع المفكر الأستاذ نصر حامد أبوزيد كان بالفعل قضية خطيرة جدا، نصر حامد أبوزيد الذى أثاره من جدل ومن نقاش حتى الآن لم يهدأ، ومازالت المكالمات ومازالت الفاكسات تتوالى علينا من أجل مناقشة مقال مايين مؤيد ومايين معارض وبين مستفسر، أنا وصلنى منه اليوم فاكس من حيث هو موجود فى أوروبا أحب أقرأه عليكم ومن حقه علينا أن نعطيه فرصته كى يقول كلمته الأخيرة فى هذا الأمر.

يقول : الأستاذ فلان السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فى نهاية البرنامج وبالأمس طلبتم منى أن أرد فى ثلاثين ثانية إن كنت أقبل مناقشة من أخرج القضية من إطار البحث العلمى فى الجامعة حيث واجه الفكر بالفكر والاجتهاد باجتهاد مقابل إلى ساحات المحاكم حيث لا يمكن حسم الخلافات الفكرية إلا بإجبار الرأى على الخضوع للرأى الآخر وفى مدة الثلاثين ثانية المتاحة قلت إنى لا أقبل مناقشة شخص اعتبره عدوا، وحتى لا يساء فهمى أود أن أوضح للمشاهدين أنى قصدت بالعدو من اتخذ منى ومن اجتهاداتى موقفا مسبقا دون مناقشة علمية موضوعية، بل وحتى فى كثير من الأحيان دون قراءة مؤلفاتى، وأكثر من ذلك نقل الأمر كله من خلاف الفكر إلى منازعة قضائية انتهك من خلالها حرمة حياتى العائلية واتخذ التفريق بينى وبين زوجتى وسيلة للإرهاب الفكرى.

وهو ما يفضى دائما إلى غلق باب الاجتهاد نهائيا. أما غير ذلك فإننى مستعد لمناقشة كل من يخالفنى فى الرأى مناقشة علمية موضوعية هادئة. فأنا من أشد المتمسكين بالمبدأ الفقهى العظيم رأى صحيح يحتمل الخطأ ورأى خصمى خطأ يحتمل الصواب وأنا فى النهاية لأبغى من اجتهاداتى الفكرية سوى وجه الله سبحانه وتعالى والدفاع عن نصرة وجه الاسلام.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

«نصر حامد أبوزيد»

إذن الأستاذ الدكتور نصر حامد أبوزيد على استعداد لمناقشة فكرية والدخول في أي مناقشة مع من يريد الدخول في هذه المناظرة معه، وأوربت كالعادة تؤمن بالرأي والرأي الآخر هي ستفعل كل ما في جهدنا من خلال هذا البرنامج أن تتاح فرصة هذه المناقشة.

تحقيقاً لهذا المبدأ، الرأي والرأي الآخر اليوم يستمر النقاش في هذا الموضوع ولكن نقله إلى درجة أخرى وهي حق الاجتهاد وحدود الاجتهاد. نحن نسأل: هل أغلق باب الاجتهاد؟ ماهو الاجتهاد؟ وماهى حدوده؟ هل هناك قضايا مسلمة لا يمكن الاجتهاد فيها؟ وهذه القضايا التي تعتبر مسلمة واجتهد فيها فهل يحق للآخر إذا كان ذلك خطأ أن يعيد فتح باب النقاش فيها؟ الإسلام دين الحرية وأيضاً دين العقل ولكن هل هناك حدود لهذه الحرية وضوابط لهذا العقل؟ القضية بالفعل معقدة وليست بسيطة. وتحتاج منا إلى طرح الرأي والرأي الآخر.

معنى في الأستوديو اليوم طرفان يعبر كل منهما عن وجهة نظره عن مدرسة من التفكير.. معنا فى الأستوديو الدكتور عبد الصبور مرزوق رئيس رابطة العالم الإسلامى سابقا والمفكر الإسلامى المعروف ورئيس المجلس الأعلى للدعوة الإسلامية وهو رجل له آراؤه الواضحة والمعروفة وأحد الذين يؤمنون بالحوار، الحوار على كل اتجاهاته، لكن هناك أيضا نقاطا له فيها وجهة نظر وأيضاً معنا فى الأستوديو صاحب هذا الكتاب (يرفع الكتاب أمام الكاميرا) الدكتور سيد القمنى صاحب كتاب الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية وهذا هو أكثر الكتب التى أثارت جدلاً فى مصر فى الآونة الأخيرة بالنسبة للفكر الإسلامى وهذا الكتاب أثار جدلاً يكاد يكون أكثر من كتب الدكتور نصر أبوزيد، وصف الأستاذ المفكر فهمى هويدى، وصف الأستاذ الدكتور سيد محمود القمنى بأنه أسوأ من سلمان رشدى وأكثر خطراً. إذن نحن معنا فى الأستوديو رجل يعبر عن مدرسة من التفكير الإسلامى التقليدى المتعارف عليه، وآخر يعتبر من الذين يجتهدون فى التفكير، وهذا الاجتهاد وصف من بعض المفكرين الإسلاميين بأنه أخطر من سلمان رشدى. إذن علينا أن نعمل الجدل والحوار فى هذه الحلقة حتى نجيب عن الأسئلة هل أغلق باب الاجتهاد؟ ماهو الاجتهاد؟ ماهى حدوده؟ تسمحوا لى نبدأ هذا الحوار.. أبدأ مع أستاذنا الدكتور عبد الصبور، أستاذ عبد الصبور ماهو الاجتهاد؟

د. عبد الصبور مرزوق

بسم الله الرحمن الرحيم الاجتهاد في مفهومه العميق والصحيح هو أعمال العقل للوصول إلى الحقيقة فيما ليس فيه نص لا يقبل التأويل، هذا الاجتهاد يعتبر إحدى القسمات الأساسية في الفكر الإسلامي منذ نزول القرآن حتى هذه اللحظة. لأن القرآن ليس كتاب تشريع فقط وليس كتاب هداية فقط ولكنه دستور الأساس بالنسبة للإسلام ككل وللدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي.

القرآن كما نعلم يحترم العقل احتراماً كاملاً ويدعو إلى إعماله في كل الاتجاهات، يدعو الإنسان إلى التفكير وإلى النظر وإلى السير في الأرض.. كما هو معروف ومن ثم يعتبر إعمال العقل الذي هو الاجتهاد فيما لا نص له قسمة من قسمات الإسلام الحضارية التي تحسب دائماً لهذا الفكر الإسلامي وحدد هذا الاجتهاد : أولاً هذا الاجتهاد يبدأ منذ التعامل مع النص، فيه مقولة بتقول أنه لا اجتهاد مع النص، أنا باعتقد أن هناك اجتهاداً مع النص في فهم النص وفي محاولة الوقوف على مرامي وأهداف وأعراض النص التي تنتهي أو تصل في النهاية بالمجتهد إلى أن يلتمس أو يتلمس جوهر الإسلام التي قد لا يكفي النص في عرضها أو في توضيحها للقارىء.

الحدود التي يتحرك فيها الاجتهاد نأخذها ببساطة شديدة من مقولة سيدنا رسول الله ﷺ لما أراد أن يرسل القاضي المعروف إلى اليمن – لا أتذكر الاسم الآن غاب عني – هو معروف، فقال له بماذا تقضى؟ قال: أقضى بكتاب الله. فقال: إن لم تجد؟ قال فبسنة رسول الله. قال فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي. فربت الرسول على كتفه وهنا حمد الله أن يكون في الأمة المسلمة من يسلك مثل هذا السلوك. إذن فتح باب الاجتهاد.

مقدم البرنامج : إذن فتح باب الاجتهاد، لكن فعلاً هل كان من الممكن أن يذهب هذا القاضي إلى اليمن ويقول أن الخمر حلال.

د. عبد الصبور مرزوق : اسمه معاذ بن جبل.

مقدم البرنامج : هل كان من حق معاذ بن جبل أن يحلل الخمر يحلل ما حرم الله ويحرم ما حلل الله، والاثنين قضيتين مشكلة كبيرة.

د. عبد الصبور : لهذا السبب أنا قلت في البداية أنه إعمال العقل فيما ليس فيه نص

قاطع لا يجوز تجاوزه واحنا لما نقول نص لا يجوز تجاوزه لايعنى هذا الحجر على العقل أو التفكير لأنى قلت أيضا أن هناك مساحة لإعمال العقل حتى فى النص نفسه. فى محاولة فهم النص الفهم الصحيح بما يتفق مع روح الإسلام.

مقدم البرنامج : د. عبد الصبور تسمح لى أسأل الدكتور سيد القمنى ماهو تعريفك للاجتهاد من وجهة نظرك؟

سيد القمنى : أخى الكريم ليس هناك خلاف على ماقاله الأستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق، هو إعمال العقل للوصول إلى الحقيقة (فيما ليس فيه نص يقبل التأويل/ تحتاج إلى وقفة) بمعنى أن الأستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق قال إنه يجوز الاجتهاد مع النص للوقوف على مراجعة لتلمس جوهر الإسلام. حين لايكفى النص أن يكون شارحا موضحا شاملا فى وقائعه وتفصيله، بمعنى أنه قد أعطى إعمومات كلية ولنا أن نجتهد فى الجزئيات، هذا إذا كان فهمى موافقا لما قاله الدكتور مرزوق.

الدكتور مرزوق: تمام الموافقة.

سيد القمنى : لكن ربما أخالف السياق العام للدكتور مرزوق لأنى فهمت من حديثه الطيب أن باب الاجتهاد لم يغلق أبدا حتى الآن ، وأنه منذ البدء وضعت حدود الاجتهاد منذ زمن صاحب الدعوة نفسه عندما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن فى القصة التى سمعناها الآن. لكن من وجهة نظرى باعتبارى أعايش هذا العصر وأقرأ أيضا فى نصوص دينى والاجتهادات السابقة وكتب السير والأخبار أجد هناك ماتمكن الإنسان عن الوصول إليه بعد كفاح ونضال طويل، حتى وصل إلى تأسيس مبادئ لحرياته، فهل هذه الحريات اليوم مسموح بها فى ضوء مسألة حدود الاجتهاد أن له حدودا بعينها. مثلا (لااجتهاد مع النص) .. الخليفة عمر اجتهد مع النص.

د. مرزوق : نعم ..

سيد القمنى : واجتهد إلى حد أتصور أنه لو أن أحدا منا حاوله اليوم لحوكم وطورد وفرق عن زوجته وربما عن مجتمعه وبنيه بالنفى، أى أن هناك مجموعة من التحريمات تلحق هذا الاجتهاد وتكبحه عن ممارسة البحث الحقيقى من أجل صالح البلاد والعباد والدين. ونموذجا لذلك شرط أو قيد الاجتهاد مع النص هناك قاعدة أخرى قننت تكبح الحريات

فيما يتعلق بالتعامل مع النص الدينى أيضا، مثل القاعدة التى تقول العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب.

مقدم البرنامج : ماذا تعنى هذه القاعدة لبعض المشاهدين غير المثقفين وأنا منهم، ماذا تعنى هذه العبارة.

سيد القمنى : هذه تعنى ببساطة أنك تستطيع فى، أى لحظة تصادفك إشكالية آنية الآن أى تجد لها فى لفظ الكتاب الكريم مايدعمها أو ينفيها بغض النظر عن كون هذا اللفظ قد قيل فى أى مناسبة وماذا كان سعيه الحقيقى الذى حدث زمن صاحب الدعوة وزمن تواتر الوحى.

مقدم البرنامج : هنا يمكن الرد عليك من العامة بأن القرآن الكريم صالح لكل مكان وزمان. مارأيك يادكتور عبد الصبور.

د. عبد الصبور : أنا سعيد أنك قلت القرآن لكل زمان ومكان لأن هذا جوهر الموضوع الذى تفضل به الأخ الأستاذ الدكتور سيد وهو قضية أسباب النزول : هل النصوص القرآنية التى نزلت فى مناسبات معينة يتوقف الحكم على زمنها ولا يصلح أن يستمر فى مجتمعنا المعاصر أم لا؟ والأصوليون قالوا هذه القاعدة : العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب. أيا كان السبب الذى نزلت معه الآية، لكن الحكم قابل للاستمرار والصلاحية عبر الزمان والمكان، وهذا موضوع يحتاج توضيحا. هناك مبدأ لا يمكن إغفاله فيما يتعلق برسالة محمد ﷺ وهل هى كغيرها من الرسائل السابقة؟ خاصة بيئة معينة، بناس معينين أو قبيلة معينة؟ مثلما قال القرآن ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا﴾ ﴿وإلى ثمود أخاهم صالح﴾. وهكذا يعنى هنا الرسالة مختصة بقضية فلان أو إعلان، لكن لما جاء الإسلام خاطب الرسول قائلا : ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾، ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا﴾، خرج بالرسالة من الإطار المحدود، لأعرب ولاعجم ولاقرشين إلى العالمية. ومعنى الخروج إلى العالمية أن الرسالة بشريعها وجوهرها وفلسفتها مستمرة عبر الزمان والمكان، إذن هى قابلة للتطور ويجب أن تكون قابلة للتطور والتغيير عبر الزمان والمكان وتلائم المتغيرات التى تحدث فى الأزمنة المختلفة والأمكنة المتغيرة. لذلك سنجد أن الوقوف عند سبب النزول لأن الحكم ينبغى أن يمتد ولاسيما فى عموم الرسالة، وهذا مادفع الإمام الشافعى لكى يغير

حكمه بتغير المكان الذى يعيش فيه، فعندما جاء إلى مصر غير أحكامه وآراءه بتغير المجتمع الذى يعيش فيه. وهكذا فإن ما تفضل الدكتور سيد وأشار إليه فى هذه القضية فإن ربط الحكم بسبب النزول يلغى عموم الرسالة وعالميتها وتجدها، ثم هناك أمر مهم فى هذا الجانب أن التعلق بهذا تعلق ضعيف، لماذا؟ لأن حصر الآيات وأسباب النزول كما عند الواحدى أو فيما كتبه السيوطى فى اللباب ستجد النسبة كلها عند الاثنين لاتزيد على ٧٪ عند كليهما، فالنسبة بالفرض ١٤٪ إذن بذلك أنا أهدر ٨٦٪ من الآيات وأكاد أنحيها عن التأثير فى حياة الناس، فهذا الكلام يحتاج إلى وقفة جيدة ومراجعة مقولة النص هو الحكم.

مقدم البرنامج : بدون لف بدون دوران، دكتور سيد من الذى يقف ضد الاجتهاد من وجهة نظرك؟ الان!

سيد القمنى : كل المتفعين والانتهازين الذين يلعبون بحياتنا وبمسيرنا وبمستقبل أولادنا وبالدين نفسه. كيف؟ لماذا أقول أننا علينا أن نعرف الأسباب الحقيقية للنص القرآنى الكريم ولللسنة النبوية المطهرة؟ نحن عانينا من انتهازية «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» طويلا عندما نريد أن نبني مجتمعا اشتراكيا نقول إن النص نص اشتراكى؟! ونقتطع منه ومن سياقه الداخلى ومن سياقه التاريخى ومن سببه الحقيقى، لنأخذ به لنرضى الجالسين على كراسى الحكم فى هذه اللحظة. ويتغير الرجال الكبار وتتغير مؤسسة الدولة وشكلها ودستورها، فيأتى نظام الاقتصاد المفتوح والحر فنجد... (مقاطعة من الأستوديو)

استراحة ثلاث دقائق

مقدم البرنامج : قبل أن نبدأ برنامجنا بقليل كان على إحدى القنوات الفضائية الشيخ يوسف القرضاوى وهو عالم إسلامى جليل وقال إنه كان يتمنى أن يكون مشاركا فى حلقة الأمس التى أجريناها مع نصر حامد أبوزيد. وهاهو مفكر إسلامى موجود، والدكتور نصر حامد أبوزيد قال لنا بالفاكس أنه مستعد لهذه المبارزة الفكرية مع هؤلاء الذين يمثلون الفكر الآخر...

معنا فى الأستوديو اليوم الدكتور عبد الصبور مرزوق والدكتور سيد القمنى والمناقشة الآن حول سؤال كنت أسأله للدكتور سيد سؤالا واضحا : من الذى يقف ضد فتح باب الاجتهاد؟

فقال :المتفعون ووصف منهم بعض الحكام.. اتفضل أكمل..

سيد القمنى : ليس بهذا الشكل الذى تقول : نحن نقول : القاعدة «العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب» يتم بواسطتها استخدام كلام الله فى غير موضعه أحيانا ولأغراض انتهازية دائما، فبنى الاشتراكية بآيات، ونفتح البلد على الاقتصاد الحربايات أخرى، وإنك لتجد أن بعض الذين أدلوا هنا وأدلوا هناك من رجال الدين بالمؤيدات الشرعية من الكتاب ومن السنة يكادوا يكونوا هم نفس الأشخاص، وفى هذا ضرربليغ بالدنيا وبالدين. والأمثلة كثيرة على هذا، صدام حسين احتل بلدا شقيقا هو الكويت، واستقطب فى عاصمته بغداد عددا لاحصر له من المشايخ المشهود لهم بالكفاءة من العالم الاسلامى قاموا يؤيدون احتلاله للكويت بآيات قرآنية وأحاديث نبوية. فى الوقت نفسه عقد مؤتمر فى مكة ليرد على ذلك. فكيف يمكن أن نمتهن النص القرآنى إلى هذا الحد، ونعامله بهذه الانتهازية.

مقدم البرنامج (مقاطعا) : هناك مشاهد هو الأستاذ عبد العزيز النفيسى يقول – وكان الأستاذ صلاح منتصر قد أشار إلى ذلك – يقول: كيف تتم المقارنة ما بين مؤتمر يعقد فى مكة منبع الوحي بحضور كبار العلماء من العالم الاسلامى، وبين مؤتمر إسلامى إذا صح التعبير أقيم فى بغداد يحلل ما قام به صدام ضد الكويت بدعوة من صدام حسين الذى يتبنى ويتسمى إلى حزب البعث الاشتراكى الذى تنص فيه التوصية الرابعة من مقررات المؤتمر القومى لحزب البعث : يعتبر المؤتمر القومى الرجعية الدينية أحد المخاطر الأساسية التى تهدد الانطلاقة التقدمية.. إلى آخره..

سيد القمنى : نحن يا أخى لسنا فى مقام تقييم هذا رجل وطنى، هذا حاكم عميل، هذا ليس مجال الكلام، نحن نتحدث عن علاقة حرية التفكير بالعقيدة والحدود المسموح بها، وعلى أى درجة يجب أن نجتهد.. وعند أى درجة يجب أن نتوقف؟ هذا هو موضوعنا، فنحن نضرب مثلا. والمكان ليس شرطا ياسيدى الكريم لعقد مؤتمر كى يكون هذا المؤتمر مبروكا أم لا؟! إطلاقا (يوافق د. مرزوق بقول : نعم، نعم) وإنما صيغة العمل والأهداف المرجوة منه هى التى تحدد مدى نفعه وقيمه وماذا سيقدم للناس؟

ما أريد أن أصل إليه هو أننا نستخدم بهذه القاعدة نصوص الدين استخداما انتهازيا

يضر بنا ويضر ديننا وبخصوص الاجتهاد علينا أن نتذكر أن الخليفة عمر بن الخطاب قد اجتهد مع النص. نحن نريد أن نطمئن إلى طوية الفؤاد، يجتهد نصر أبو زيد فيفرق عن زوجته ويكفر، يقتل فرج فودة، يضرب نجيب محفوظ بسكين، أنا أصبح مثل سلمان رشدي أو أسوأ منه. إلى آخره. مثل هذا...

مقدم البرنامج : (مقاطعا): أنصار المدرسة الأخرى يقولون أنكم تعديتم المسموح وممكن في التفكير الإسلامي. وأنكم اتخذتم هذه المواقف بغرض الربح التجاري، بمواقف متشددة، مواقف خارجة على المنطق، من أجل إثارة أكبر قدر من الجدل، وذلك مثل الاتهام الموجه إليك بأنك في كتاب الحزب الهاشمي وتأسيس الدولة الإسلامية، تتحدث عن أن ما حدث في بداية عهد الرسول ﷺ أنه كان صراع السلطة، وأن عمه أراد أن يوصله إلى الحكم من أجل ثأر قديم بينه وبين القبائل الأخرى.

سيد القمني : هذا تفسير أسقط على كتابي.

.. سيدى الكريم أنا قدمت في هذا الكتاب قراءة للواقع الموضوعي في جزيرة العرب، للمجتمع وهو يتحرك للاقتصاد وهو يفعل، للسياسي.. لكذا وكذا، وقدمت قراءة لصاحب الدعوة الإنسان. قيل إن هذا محاولة للقول إن الدعوة الإسلامية مجرد حركة سياسية ابتغت بها القبيلة أو العشيرة الهاشمية الاستيلاء على مقدرات الحجاز وحكمه. يا أخى الكريم أنا قلت ما حدث لأن هذا ما حدث بالفعل، وفي الواقع نحن طول الوقت نقرأ القراءات المعتادة فلنفتح نوافذ على الواقع الموضوعي في قراءتنا، ثم إن ذلك لا يتعارض ولا يتناقض ولا يتضارب مع الناموس الإلهي. الله سبحانه وتعالى بكماله لا يتناقض ونفسه. إذن في هذه الحالة عندما يرسل رسولا محملاً برسالة، لا بد أن يهيء له الواقع الأرضي ويضبط حركات هذا الواقع وسكناته كي تلتقى مع الرسالة المرجوة كي نفهمها وكي نستقبلها وكي نتفاعل معها، فهذا أمر لا يتعارض.

مقدم البرنامج (مقاطعا) : يا د. عبد الصبور مرزوق.. الدكتور سيد القمني تعامل في كتابه مع الرسول كإنسان كما ذكر وتفضل. هل حينما يتحدث عنه كإنسان فقط فهل هو يجرده من نبوته؟ ويجرده من كونه شخصا غير عادي تلقى رسالة من السماء؟

د. عبد الصبور مرزوق: هناك مسألة حول ما قاله الدكتور سيد عن المتفاعلين

والانتهازيين، وعن أولئك الذين يطوعون أى نص للحكام، وأشار إلى مؤتمر بغداد وما يتصل به. الحقيقة أنا عشت هذه التجربة وكنت أحد المشاركين فى المؤتمر الذى أشار إليه الدكتور سيد، وفى لحظة كنت أقول كلمتى بالمؤتمر، فإذا بصدام حسين يدخل، تصفيق فى القاعة، وتوقفت إلى أن دخل.. قلت ننتهز فرصة وجودك معنا هنا - الكلام ده مثبت ومسجل وظل تليفزيون وإذاعة بغداد يذيعانه - لكن أحب أقولك على حاجات: (الكلام موجه من فضيلة الدكتور الشيخ لصدام حسين) لقد قلت أنك ستحرق نصف إسرائيل إذا اعتدت على أى بلد عربى، وأتمنى لو تحرقها كلها إن استطعت، لكن فى تقديرى أن الأيديولوجيا التى ينتهجها حزب البعث لا يمكن أن تفى بهذا. وإذا أردت أن تصل إلى قوة تساعدك على إسرائيل لابد أن تفتح على الإسلام، وأن يتغير فكر كريس، والأمر الثانى أن العمق البشرى للعراق جميعا لا يفى أبداً بهذه الطموحات لأن إسرائيل قوة ضخمة، ولا يمكن أن يقف كفؤاً لها سوى القوة الإسلامية، وقلت له: أنا مش عايز أتكلم اتفضل أنت فالناس بتحب تسمعك.

ونزلت وجلست فى مكانى بين الشيخ الغزالي رحمة الله عليه وأخينا الدكتور سيد طنطاوى الذى أصبح فيما بعد شيخاً للأزهر، وإذا بصدام حسين يقول: أنا سعيد أنى بأسمع هذا الكلام، وأحب أقول لأخونا اللى اتكلم إنى أنا منذ بدأت أغير اتجاهاتى وبدأت أتجه للتعبير عن القومية كانت لى متغيرات وإنى أصبحت أتجه الاتجاه الإسلامى، وأصبحت أتعامل مع الرؤية اللى أنت اتكلمت عنها تعامل آخرباعتبارها هى طريق الخلاص، والدليل على هذا - كما قال صدام حسين - إن أنا بدأت أفرج عن الأسرى الإيرانيين وبافتح الباب الآن لنوع من التسوية.. وأثناء كلامه قام من خلفى شخص عراقي وقال له: ياسيادة الرفيق.. كذا وكذا.. فإذا بصدام حسين يرفضها ويقول له: كلمة رفيق دى كانت زمان، نحن الآن نتكلم باسم الإسلام، وأنت ما سمعتش أخونا بيقول إيه؟ يقصد الكلام الذى قلته - مقدم البرنامج (مقاطعا) : هل الإسلام هو تغيير مسميات، ويكتب على العلم..

سيد القمنى : الله أكبر.

مقدم البرنامج: يكتب على العلم الله أكبر، وهذه كلها شكليات.

د. عبد الصبور : أصل الأخ الدكتور سيد قال إن هناك بعض الانتهازين، وإذا كان من يصفهم بالانتهازين فلا يجب أن يتم تحميل الإسلام وزرهم على الإطلاق.. وهؤلاء موجودون في كل مكان وزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وأنا بعد أزمة الخليج كان لي كتاب عنها (الحقيقة الغائبة في أزمة الخليج)، وأعطيته للشيخ الغزالي قبل أن أذهب إلى المغرب في ندوة، ووقفت فيه أمام ما أشار إليه الأخ الدكتور سيد، وقلت إن الإسلام هو الذي دفع الفتاورة في الحالتين لأن كليهما كما قال الدكتور سيد يستخدم النص. إما مع صدام أو ضد صدام. لكن هذه ليست القضية..

مقدم البرنامج (مقاطعا): نحن الآن نناقش ما قاله الدكتور سيد، وأنه تحدث عن الرسول عليه الصلاة والسلام كإنسان، هل يعنى هذا أنه سحب منه نبوته.

د. عبد الصبور مرزوق: أنا لم أقرأ ما كتب الدكتور سيد، لكن إذا كان كما قيل عنه، وأنه يجعل النبوة والرسالة كلها انعكاسا لواقع سياسى أو واقع اقتصادى أو قبلى، فقطعا يكون هناك شيء لا يمكن الموافقة عليه على الإطلاق. لأن الرسالة وحى غير مرتبطة بمتغيرات الواقع القبلى أو الجاهلى لأسرة الرسول ﷺ.

مقدم البرنامج (موجها كلامه إلى د. سيد) : حضرتك عندما كتبت تحدثت عن الرسالة باعتبارها وحيا؟

سيد القمنى : ياسيدى الكريم، لا يستطيع أحد هنا أن يكتب كتابا منشورا ينكر فيه وحيا أو نبوة، لسبب بسيط هو أننا فى النهاية نريد أن نصل إلى غاية نتفق عليها فى قراءة النصوص المقدسة. لأن سرتلك الخلافات يعود إلى أن هناك خلافا تأسيسيا فى قراءة لفظ القرآن الكريم وفهمه. نفس الأمر الذى يقع مع أى نص حتى مع النص الإنسانى. مثلا نصوص نصر حامد أبوزيد يختلف عليها، أنا شخصا أرى أنه رجل شديد الحرص على الإسلام مدافع عن وطنه وعن مستقبل هذه الأمة. هناك آخرون رأوه بشكل آخر. المشكلة أن كلام نصر شىء، وكلام المقدس أمر آخر.. لماذا؟ هذا كلام بشر، كلام إنسان، أما ذلك فكلام قدسى، لذلك نتحرى الحذر والحيلة فى التعامل معه، لذلك يشغلنى أن أتحدث عن الحدود الموضوعية للاجتهاد التى أعتقد أنها تقف بينى وبين حرية التفكير والتعامل مع هذا النص. بحيث إن هؤلاء الانتهازين وأنا لا أقول أن الكل انتهازيون.

مقدم البرنامج (مقاطعا): ماهى شروط الذى يجتهد؟

د. عبد الصبور مرزوق: الكفاءة العلمية رقم واحد، وأن يكون المتقدم للاجتهد دارساً دراسة جيدة للقرآن ولتفسيراته ولكل ماكتب حوله، ويمتلك المقدرة العلمية التى يستطيع بها أن يتعامل مع نصوص القرآن، مع المذكرات الشارحة كالسنة النبوية بحيث يخرج منها فى النهاية إلى فهم معطيات الرسالة، وأمر آخر شخصى أقترحه، أن يكون المجتهد لا يستخدم اجتهاده مطلقاً لغاية دنيوية، وكانت من ممارسات من تعرضوا للاجتهد، وبذلك نضمن أن الاجتهاد غير موجه لأى غاية شخصية أو قبلية أو حزبية.

مقدم البرنامج : إذا اجتهد وأخطأ ماهى العقوبات؟

د. عبد الصبور : المعروف شرعاً أن من اجتهد وأخطأ فله أجر ومن اجتهد وأصاب فله أجران، وهذا يعطى علامة وإعلاناً كبيراً عن أن الاجتهاد فى الإسلام مطلوب ومرغوب ودائم حتى لو أخطأ ماحدث له عنده حاجة، لكن فى قضية نصر أبوزيد كانت القضية فى البداية قضية ترقية جامعية ومراجعة بحوث ترقية، واللجنة قالت إن البحوث لا ترقى إلى مستوى الترقية ولا تؤهل الأستاذ الدكتور نصر أبوزيد للترقية. تبقى القضية بذلك قضية جانبية، لكن من نقل القضية إلى مستوى آخر بعض الإخوة الذين هم فى تقديرى لا يملكون الرؤية السليمة ولا الحس السليم وجعلوا منها قضية كفروا بموجبها نصر أبوزيد وفرقوا بينه وبين زوجته ونقلوها من الجامعة إلى المحاكم. أنا قرأت عن نصر أبوزيد فى إحدى الصحف أنه يعلن إسلامه وتمسكه بكل أركانه ولا يقول أنه كافر، وأنا لم أقرأ كتبه، فقط أقرأ الآن نقد الخطاب الدينى على حلقات بصحيفة العربى، لكن اجتهاد الدكتور نصر اجتهاد بشرى كما قال الدكتور سيد، ويمكن الرد عليه. والأمريختلف مع النص المقدس.

استراحة ثلاث دقائق

مقدم البرنامج : قضية اليوم هى حدود الاجتهاد فى الإسلام، وهذه القضية بالغة الخطورة والأهمية، لذلك معنا الآن فى الاستوديو الدكتور عبد الصبور مرزوق الباحث الإسلامى المعروف والدكتور سيد القمنى وهوباحث فى شئون الأديان وأصدر عدة كتب فى تاريخ الأديان أثار جدلاً واسعاً منها سبعة كتب هى مثار جدل كبير حولها. لو تسمحوا لى بتصحيح، فالمؤتمر الذى كان يتحدث عنه الشيخ مرزوق ليس هو ماتحدث عنه الدكتور

القمنى، لأن الذى تحدث عنه الدكتور مرزوق كان قبل غزو الكويت وليس المؤتمر الذى حدث بعد غزو الكويت، فالأول كان بخصوص حرب الخليج بين العراق وإيران، أما الثانى فكان بعد غزو صدام للكويت وكان فى بغداد، ثم كان هناك آخر فى مكة تسمحوالى نأخذ الاتصالات الهاتفية.

مين معانا على الخط ؟ ألو، الأستاذ فيصل المرزوقى، اتفضل يا أخ فيصل.

المشاهد (فيصل المرزوقى) : فى الحقيقة عندى تعقيب على حلقة الأمس التى جرت مع نصر أبوزيد، فأنا أعتقد أن مقدم البرنامج يستغل البرنامج لمواضيع مثل الجنس وغيره للإثارة فقط. وفى الحقيقة إن هذا البرنامج يستغل لفرض وجهات نظر خاصة بمقدم البرنامج ولا يقدم معلومة تفيد الناس.

مقدم البرنامج : شكراً، تحب تضيف حجة ثانية؟

المشاهد (فيصل المرزوقى) : فى حلقة الأمس التى خصصت للدفاع عن المرتد نصر أبوزيد، وهو مرتد بحكم المحكمة وليست الصفة من عندى. حاولتم فيها جذب التعاطف مع هذا المرتد. يا أخى هل وصل بنا الأمر لنهون من حكم محكمة وندافع عن واحد حكم على نفسه بهذا الحكم؟

مقدم البرنامج : وإذا المحكمة طلعت براءة بعد كده؟ موقفك هيكون إيه؟!

المشاهد (فيصل المرزوقى) : أى محكمة تطلعه براءة؟ نحن نتكلم عن حكم صدر وانتهى.

مقدم البرنامج : لألم ينته، هناك عرض آخر على القضاء.

المشاهد (فيصل المرزوقى) : نحن نتكلم عن..

مقدم البرنامج مقاطعاً: يعنى حضرتك تريد محاكمته شرعياً ولا قانونياً.

المشاهد (فيصل المرزوقى) : يا أخى نحن لو حاكمناه شرعياً فأنت تعرف مصير أمثال هؤلاء، لكن نحن نتكلم عن القوانين الوضعية التى تلجأون لها أنتم، هى التى حكمت عليه بالكفر.. إذا لجأ الناس للمحكمة اعتبرتموهم متآمرين، وإذا لجأوا للقوة اعتبرتموهم متطرفين.

وكم ان الأخ الذى بجوارك هذا من شوية يخلط الأوراق بين ما فعله صدام وما فعله نصر أبوزيد الذى تلاعب بنصوص قرآنية وأعتقد أنه لامجال للمقارنة بين الاثنين، لأن الأول تلاعب بمصائر الناس. أما الثانى الخطرفقد تلاعب بنصوص قرآنية ومحاولة تأويل على حسب ما تهوى نفسه.

مقدم البرنامج (مقاطعا) : حضرتك قرأت كتبه؟

المشاهد (فصل المرزوقى) : أنا لم أقرأ كتبه، أنا لاأحتاج لقراءة كتبه لأنه طرح أفكاره فى ندوة أمس، وهو من خلال كلامه لايدل على تمكنه مما يقول، وهناك نقطة أخرى حول من أخرج الموضوع من ترقية إلى خارج أسوار الجامعة، فى الحقيقة هو بنفسه الذى أخرج الموضوع عن الجامعة، عندما رفضت الجامعة تربيته.

وهناك نقطة أخيرة: السؤال الذى يطرح نفسه وأطرحه أنا على المالكين للأوربت: فى برنامج بانوراما فى الـ «بى بى سى» العربية والذى تطرق للسعودية، استفز هذا البرنامج فيكم غيرتكم على الوطن السعودى، وتم إلغاء التعاقد معهم وتحملتكم مشاكل كثيرة نتيجة لهذا الموقف. أما استقبال من أساء إلى كتاب الله وشكك فى عدالة الرحمن ومحاولة إضفاء التعاطف مع هذا المرتد، ألايثير هذا فيكم غيرتكم على دينكم وعلى قرآنكم، أم أن الوطن أهم من الدين لديكم؟

مقدم البرنامج : حضرتك بتقرأ من ورقة؟

المشاهد (فصل المرزوقى) : بغض النظر يعنى تريدنى أقرأ منين؟ وموقفك ياأستاذ عماد من حديث البى بى سى عن السعودية كان واضحاً ووطنياً، لكن موقفك مع نصر أبوزيد...

مقدم البرنامج مقاطعاً : يعنى حضرتك شايف إن الموقفين متماثلان؟ والموضوعين واحد، يعنى حضرتك شايف أنك لما تناقش أحداً فى كتابه يعتبر فيه إساءة للإسلام؟

المشاهد (المرزوقى) : أنا ما أناقش أى أحد فى كتابه يكون معقول، أنا لو أناقش يهوديا فأنا أتقبل هذا لأنى أعرف أنه عدولنا، ونعرف أفكاره وأهدافه، لكن أن تستقبل فى برنامجك من حاول تأويل القرآن بما تهوى نفسه..

مقدم البرنامج : يعنى شايف حضرتك إنه مافيش مشكلة لو تناقش واحد يهودى، لكن مناقشة مسلم كتب عن الإسلام وأخطأ ويقول لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فهذا فيه إساءة للإسلام؟

المشاهد (المرزوقى) : لاحظ أنك أنت تدافع عنه الآن وتقول أخطأ، هو لأن لم يعترف بالخطأ، هو يصبر على كلامه وحلقة الأمس لم تكن مواجهة، بالأمس كنت أمس أنت وظيفك صلاح منتصر مع المرتد. بدليل أنكم لم تعطوا فرصة للإخوان المشاهدين لمناقشته والرد عليه.

مقدم البرنامج : لأده فيه ناس تكلموا وطلبوا بأحكام أكثر قسوة كالقتل، واتهمه آخر أنه لا يذكر اسم الله، واتهمه آخر أنه علمه ضعيف، والشريط موجود حضرتك، وميزة برامج التلفزيون أنها مسجلة.

المشاهد (المرزوقى): الجامعة هى التى أظهرت ضعفه وضعف كتاباته.

مقدم البرنامج : ماهويا أخى الحوار مع الناس هو ما يثبت القوة أو الضعف، ياسيدى أنت ليه عايز نشق الناس قبل ما نتكلم معاهم، نعطيهم الفرصة يتكلموا وبعدين نقول قويا أو ضعيفا.

المشاهد (المرزوقى): لما يتكلم فى أى فكرة أناقشه فيها، لكن عندما يتكلم عن القرآن فلا اجتهد مع نص يا أخى.

مقدم البرنامج : نترك للدكتور عبدالصبور يعقب وهل صحيح أنه حينما نجيب د. نصر نناقشه هنا فيه إساءة للإسلام. يادكتور عبدالصبور هل مناقشتنا للدكتور نصر فيها إساءة للإسلام، يعنى هل هذه المحطة التلفزيونية تعتبر محطة ضد الإسلام أو قناة غير إسلامية إذا ناقشت أحداً فى أفكاره؟

د. عبدالصبور مرزوق: أنا لم أحضر حلقة أمس ولم أقرأ كتب الدكتور نصر.

مقدم البرنامج : أنا باتكلم عن المبدأ.

د. عبدالصبور مرزوق : من حيث المبدأ لأ، من حيث المبدأ نناقش أى إنسان فيما يقول وهذا بالعكس، فالمناقشة والاجتهاد قسمة حضارية من قسمة الإسلام، والقرآن ناقش

الكفار، والآيات تقول ﴿قل يا أيها الكافرون. لا أعبد ما تعبدون﴾.. وفي الآخر قالت لهم: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ فمناقشة أى إنسان لا اعتراض عليها، لكن موضوع الدكتور نصر بدأ ببحوث مقدمة للجامعة لنيل الترقية وأنا لم أقرأ التقارير.

مقدم البرنامج : يعنى ليس ضد الإسلام فى شىء أن تناقش أفكار من اجتهد وأصاب أو أخطأ.

د. عبد الصبور : إطلاقاً، الكفرة كنا بنناقشهم، والقرآن كان بيناقشهم.

مقدم البرنامج : إذا أحد أعلن أنه كافر صراحة هل ممكن تناقشه ولألاً؟ وما الموقف ممن يناقش تحت مظلة الإيمان ويقول أنا مسلم ولا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وأومن بالكتاب والسنة والأنبياء.

د. عبد الصبور: علينا أن نقرأ كلامه أولاً ثم نرى هل كلامه يتفق مع ما يقوله ويعلنه أم غير ذلك، إذا اتفق كلامه مع ما يقوله ويعلنه لا مشكلة، لكن إذا كان الكلام المكتوب مناقضاً لإعلانه وفيه مخاطر على الدين، فهنا نتخذ منه موقفاً آخر.

مقدم البرنامج : وإذا خرج أحد عن الدين؟

د. عبد الصبور : إن قضية الردة فى الإسلام فيها كلام كثيرين الفقهاء، لكنهم يجمعون أنه لا يحكم عليه حتى يستتاب.

مقدم البرنامج : قسم اللغة العربية بكلية آداب القاهرة كتب تقريراً عن الأبحاث التى كتبها الدكتور نصر حامد أبوزيد.

د. عبد الصبور : أنا لم أقرأ لا التقرير الأول، ولا التقرير الثانى ومن هنا لا أستطيع الحكم.

مقدم البرنامج : معنا الآن على الخط المفكر الإسلامى الكبير أحمد كمال أبوالمجد فلنسمع رأيه فى هذه القضية :

تفضل يا دكتور كمال.

أنا عايز أعرف أولاً هل شفت حلقة إمبارح؟

د. كمال أبوالمجد : شفت حلقة إمبارح وبأتابع حلقة النهاردة.

مقدم البرنامج : يعنى مبدأ الحوار فى حد ذاته مقبول أم مرفوض وماهى ملاحظاتك عليه؟

د. كمال أبوالمجد : بسم الله الرحمن الرحيم، الحقيقة يا أستاذ عماد أنا لى ملاحظات، لأن إحنا أحياناً نتكلم فيما هو مقطوع به ولا يحتاج إلى حديث، وهذا يفوت علينا مناقشة مقطع النزاع، ليس مطروحاً للبحث من جديد أن الإسلام يحترم حرية التفكير وأن الاجتهاد فريضة إسلامية لمن يقدر عليها وتتوافر عنده شروطها، هذه مسألة حسمها التاريخ وحسمها تاريخ أمة مليئة بآلاف العلماء والكتابات الموثقة، ونأتى ونطرحها اليوم كما لو كانت قضية جديدة؟ فى رأى أنا كارثة، لكن ماهو الاجتهاد؟ لأنه أنا بقدر مايزعجنى ويزعج كل عاقل الحجر على الفكر باسم أى شىء ولو كان الدين، فيزعجنى أيضاً انتشار مدرسة اسمح لى أن أسميها مدرسة الاستحلال العلمى، بمعنى أنها تحت راية الاجتهاد تخطب خطبا عشوائيا وتقول كلاما لا يلىق بالعلاء، ثم تقدم على أنها مدرسة، فيقال : التقليديون فى مواجهة كذا، كما لو كان هؤلاء الذين يخطبون يمثلون مدرسة توضع على قدم المساواة مع تراث الأمة بعلمائها وفقائها وعقلائها ومتقيها وخبرائها، هذا فى رأى خطر عظيم، وأنا الحقيقة مما تعلمناه فى مناهج العلوم كلها أن الحكم على الشىء فرع عن تصوره، أنا لا أستطيع ولا أعطى نفسى حق مناقشة الدكتور سيد اليوم فى كتاب لم أقرأه، لكنى أعطى نفسى حق التعقيب على بعض ما قال، ونفس الشىء بالنسبة للدكتور نصر أبوزيد، لدى ملاحظتان: واحدة على ما قاله أمس الدكتور نصر وأخريات على ما قاله ويقول اليوم الدكتور سيد. يعنى لما نيجى للدكتور نصر أبوزيد عافاه الله وسامحه وعفا عنه ويقول لى إن الآية التى تتحدث أن للذكر مثل حظ الأنثيين بمنهج بلاغى لا يستقيم أبداً — تتحدث عن الذكور فقط، طيب يادكتور نصر يا عالم يا جليل يا لغوى يا أريب يا أديب ألا تذكر أن أول الآية : يوصيكم الله فى أولادكم؟ إذن القضية بالعقل والبدهة والمنطق وفى أصول التفسير المعتمدة عند العقلاء فى الشرق والغرب وفى الإسلام والكفر، أن الآية خاصة بالأولاد، بتكلم عن الأولاد الذين قد يكونون ذكورا وقد يكونون إناثا، بقى أنا أراجع ميراث أمة وإجماع علماء محققين وأقول والله لقد فتح على فتح مبين، وأنا أول من قال هذا ثم أتواضع وأقول؛ يعنى؟ لا ياسيدى إحنا عندنا قاعدة وليسمعها كل واحد: لا يوصف الراى بأنه راى ولا الكلام بأنه مدرسة إلا إذا كان له حد أدنى عند أصحاب العقول، وقديما قيل: وليس كل كلام جاء معتبرا، إلا كلام له

حظ من النظر. إذن لو لم يكن له أى حظ أعتبره ظلماً وخلطاً للأوراق.

والقضية الثانية : قضية أسباب النزول، لا ينبغي لأحد أن يخوض فيها الآن وأنا بأقول الاستحلال العلمى لأنى لأستطيع أن أخوض فى مسألة إذا أحكمت منهجها وصناعتها العلمية. علم الكلام غير علم التشريع وأصول الفقه، وينجى لقضية العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. وأنا أرجو أن المشاهدين يكونون معنا فى هذا الأمر. إن الآيات القرآنية أحياناً تنزل بمناسبة معينة. أيهما أكثر جموداً وتقييداً: إنى أنا أحصر الأمر فى هذه المناسبة وأحجره وأجمده فيها، أم أطبقه تطبيقاً عاماً؟ إذن المسألة هى فى التطبيق العام بشرط أن أملك أدوات وآلات حسب فهم النص كمعرفة سبب النزول، كما لدينا فى القانون وأنا رجل قانون نرجع لما يسمى الأعمال التحضيرية علشان نرى هذا النص ونرجع إليه وعالج إيه دون أن نقيده بالمناسبة اللى وضع بسببها، يعنى إحنا عندنا نص: انهارت عمارة فى مصر الجديدة فصدر أمر عسكري يقيد، أقول إن هذا الأمر يطبق فقط على عمارة مصر الجديدة التى بمناسبتها ظهر القانون؟ هذا كلام لا يقول به عاقل.

ولعل الجزء الصواب فى حديث الأخ الدكتور سيد أن معرفة أسباب النزول يقتدى بها فى فهم النص، وهذا من أدوات الاجتهاد التى قال بها علماؤنا قديماً وحديثاً وليس هناك جديد فى هذا أبداً.

مقدم البرنامج : الدكتور سيد عايز يعقب على حضرتك.

د. أبوالمجد (مقاطعا) : أما إنى أنا أنكر القاعدة، فأنا لست مع الدكتور سيد فى هذا.

مقدم البرنامج : حضرتك خليك معنا.. و..

د. أبوالمجد (مقاطعا) : أنا عندى كلام كتير لكن مش عايز أحتكر البرنامج.

مقدم البرنامج : يشرفنا أن حضرتك تكون معنا بإذن الله حول هذا الموضوع وبلاش تسافر لأن القضية أهم من السفر.

د. أبوالمجد : إن شاء الله.

مقدم البرنامج : الدكتور سيد عايز يعقب على حضرتك فى دقيقتين.

سيد القمنى : الأستاذ الدكتور أبوالمجد أهلاً بك تحياتى.

د. أبوالمجد : مرحبا.

سيد القمنى : ياسيدى الكريم أن يبحث مسلم عما يطمئن له فؤاده فيما يتعلق بالنصوص المقدسة، مادامت لديه القدرة على البحث ويملك منها علميا فى التفكير، ويوجد آخر يمكن أن يقوم أو يرد أو يناقش، لا أتصور أن هذا لون من الخط وخطب العشواء، والدكتور نصر حامد أبوزيد فى نقاشه لمسألة نصيب الذكر والأنثى فى الموارد، سأغض الان النظر عن اجتهاده هو، فأنت أثرت هذه القضية الآن، اسمح لى ان اقول إنى رجل أعيش هذا الزمن، وأعتقد أن المرأة تكدم مثلى وتتعب مثلى وتشقى مثلى وتصبح مهندسة ومحامية وطبيبة، وأظن فيما قرأت أن الأساس فى توريث المرأة نصف حظ الذكر، أنه يقوم عليها، ويدفع مهرها ويرعاها ويرعى أطفاله ومسئول تماما عنها، فماذا يحدث اليوم ولدنيا اليوم المرأة فى كل ميدان وكل مجال، وأصبحت ظروف حياتنا الاقتصادية تستدعى بالضرورة أن تعمل .. و..

مقدم البرنامج : د. سيد، د. عبد الصبور، د. كمال حضرتك خليك معنا على الخط، بعد الاستراحة سنواصل هذا الحوار، لو سمحتم جميعا كونوا معنا بعد الاستراحة لمناقشة هذا الموضوع الذى يزداد إلهابا وتفجراً ثانية بعد الأخرى، وفى انتظار مشاركة المشاهدين وأهلا بكم.

استراحة ثلاث دقائق

مقدم البرنامج : نعود لمناقشة حدود الاجتهاد فى الإسلام وفى النص القرآنى، معنا فى الأستوديو د. سيد القمنى ود. عبد الصبور مرزوق، ومعنا على الخط المفكر الإسلامى د. أحمد كمال أبوالمجد. كان الدكتور سيد يرد على كلام الدكتور كمال أبوالمجد، والدكتور كمال منتظر.

د. كمال : أنا عندى تعقيب

مقدم البرنامج : الدكتور سيد لم يكمل كلامه

د. كمال : أنا أحترم حقه حتى فى المخالفة.

مقدم البرنامج : اتفضل يادكتور سيد

سيد القمنى : أهلا بك يا أستاذ. نحن نعلم مما قرأناه فى كتاب الله الكريم وما لحقه من علوم نستطيع أن نستعين بها فى هذه القراءة حتى يكون فهمنا فهما سليما، أما مسألة المواريث فقد تغيرت حسب المتغيرات زمن الدعوة. زمن وجود حياة الرسول ثلاث مرات: المرة الأولى «الإرث لذوى الأرحام» دون تحديد كما تعلمون سيادتكم، ثم نسخت بآية الوصية، ثم نسخت بـ ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمُ لِلذَّكَرِ مِثْلُ الْإُنثَى﴾. ونعلم أن ابن الخطاب كان من المجتهدين والذين اجتهدوا مع وجود نصوص صريحة واضحة لا تقل فى قطعيتها عن هذا الذى بين أيدينا الآن، ومع ذلك إطلاقا لم يحاكم الرجل إنما اجتهد وأضاف رصيذاً لنا وللإسلام ولل فكر الإسلامى، فهلا إذا حاولنا أن نفهم أو نتساءل أو يتساءل الدكتور نصر أبوزيد... يا أخى لنرد عليه، لنناقشه، لنفتح كل النوافذ لكن لا ترجمه ونهمله بالكفر.

مقدم البرنامج : د. أحمد كمال اتفضل

د. كمال أبوالمجد : أنا يعنى، أنا، أنا أتوسل، أنا أتوسل للدكتور سيد أن يحافظ على الدقة المنهجية ولا يدخل القضايا بعضها فى بعض. ليه، لماذا؟ لأن هناك أموراً أنا متفق معه فيها وأنا لم أقل أبداً أننا نحجر على الدكتور نصر فى أن يجتهد وأن يخطئ، والأستاذ الدكتور عبد الصبور مرزوق قال هذا، ويقول كل العلماء، ونحن نعرف حاجة الأمة الإسلامية إلى فتح النوافذ وإلى تعدد الآراء وإلى الاجتهاد وإلى الخطأ المصاحب للاجتهاد. هذا أمر لا نناقشه إنما القضايا الفقهية أدق من أن يدلى فيها بالرأى العابر، وفرق هائل بين ما فعله عمر بن الخطاب وبين أن أتى إلى نص قطعى.. ويمكن يا دكتور سيد إنك ما أخذت بالكل من كلام جيد قاله الدكتور نصر فى مفهوم كلمة النص

سيد القمنى : أى نعم.

د. أبوالمجد : كلمة النص دى كلمة تكنيكية.

سيد القمنى : أى نعم.

د. أبوالمجد : عند علماء الأصول.

سيد القمنى : مفهوم يا أستاذ.

د. أبوالمجد : هى نوع من دلالات الألفاظ على المعانى

سيد القمنى : أى نعم.

د. أبوالمجد : وأنا أخشى أن إدخال المستمعين عموماً فى جدل فقهي يكون هو القضية. بينما القضية التي بين أيدينا هي حدود الاجتهاد، والأصل هو الاجتهاد وفتح نوافذه ولكننا لانحارب هذا أبداً، حاشا لله، وإذا حاربناه حجبنا على الأمة وقطعنا عليها طريق المستقبل. إنما الذي نحاول أن نمنعه هو أنه تحت شعار الاجتهاد وهي كلمة محببة، وتحت كلمة الحرية وهي كلمة مقدسة، أن تختلط الأوراق وأن تدخل الأهواء.

وحضرتك تفضلت في أول الحديث وقلت كلاماً أدهشني لأنه ما دخل قضية المتفاعلين والإنتهازيين وهم على الموائد كلها وفي الساحات كلها وفي المدارس كلها ، بقضية حدود الاجتهاد. كأن حديثك يفهم منه أن كل من حاول وضع حد على الانطلاق في الاجتهاد يكون إما منتفع أو إنتهازي. لأيا أخى، والحق معك، وسأخذك بكلامك وبكلام الدكتور نصر. نعم قلت أنت قولة حق وأنا معك فيها مائة في المائة، لكن فرق بين أنى أنا أحاكم أو أناقش فكر الدكتور نصر أو فكر الدكتور سيد أو فكر الدكتور عبدالصبور فهو كلام بشري يؤخذ بكلامه ويترك، ويبين أنى أتعامل مع نص مقدس إلا أنه لا يكفي أنى أقول بهذه التفرقة، ثم أتجاهلها في العمل. يعنى إذا كنت أقف بين يدي كلام الله وأؤمن إيماناً صادقاً بأنه وحى يوحى فيجب أن ألتزم مزيداً من الحذر المنهجي، وأنا أتعامل مع هذه النصوص، وبأياها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبی ولا تجهروا له بالقول كقول بعضكم لبعض. فلا بد من الحذر المنهجي.

سيد القمنى : هذا ما قلته أنا منذ برهة.

د. أبوالمجد : وأنا معك في فتح النوافذ لكن الحرية لها حدود وإلا وقعنا في نقيضها.

سيد القمنى : سيدى الدكتور الآن حضرتك تحدثت عن نصر أبوزيد وعن بعض أفكاره وأخطائه وقلت رأيك واضحاً الآن، وأيضاً المحكمة قالت كلمتها في حق نصر أبوزيد، ولكن وأنا أتابع ماتكتب حضرتك لأن حضرتك أستاذ كبير.

د. أبوالمجد : أنا لم أكفر نصر ولا غيره حاشا لله .

سيد القمنى : هذا الموقف الآن وما قلت حضرتك بشأن نصر حامد أبوزيد لنعتبر معنى كلامك أن هناك نوعاً من الاجترار لأن الخط قد يكون اجترار وعدم فهم أو إلى آخره.

د. أبوالمجد : فى رأى ليس أكثر.

سيد القمنى : فى رأىك، ولكن ألم تخط المحكمة فى حيثياتها يادكتور، وتستحق منك رداً على نفس الدرجة من الأصولية ومن الدفاع عن الحق؟ فى نصوص حيثيات المحكمة تقول: يعتبر كافراً من استخف بالقرآن الكريم، ونحن معها فى ذلك — أو السنة النبوية باستهزاء بهما أو جحدهما أو كذبهما أو أثبت أو نفى.. الخ حتى يصل إلى «أو تشكك فى شىء من ذلك» ونحن نعلم أن الشك..

د. أبوالمجد (مقاطعا) : الشك هذا من الإيمان.

سيد القمنى : أى نعم فلماذا لم ترد.

د. أبوالمجد : لأنا رديت وكتبت فى المصور.

سيد القمنى : وهناك أيضاً فى الحيثيات «ومن ادعى أنه مسلم» يا أخى والله أنا أقول إنى مسلم وليس لأحد على الإطلاق أن يسألنى هذا السؤال: هل أنت مسلم أم لا، لأن الذى يملك هذا السؤال واحد أحد لا شريك له، هو الذى يسألنى عن عقيدتى .. و..

د. أبوالمجد (مقاطعا) : أنا معك يادكتور علشان برضه إحنا مما تعلمناه فى علوم أمتنا علم يسمى أدب المناظرة وهو لا يكتفى بالأداب الأخلاقية واللباقة إنما يضع قواعد منهجية وفى مقدمة هذه القواعد المنهجية التى أعرف بمقدار علمك أنك تعرفها ما يسمى تحرير الخلاف. بمعنى أن نحدد المساحة التى نريد أن نتحاور حولها، فقد نكون متفقين فى مساحة أخرى نوفر على المشاهدين والسامعين الحديث حولها، أما حين يتعلق الحكم بالقضاء فقد تجنبت الخوض لأن أنا رجل قانون والمسألة بها مسائل فنية يطول الحديث فيها، ومحكمة النقض التى أجعلها وأحترمها وأقرها إنما كانت تنظر فى أوجه الطعن فى صحيفة الطعن التى أخذت مأخذ معينة على حكم محكمة الاستئناف ولم تكن تحكم نصر أبوزيد ولا تصدر حكماً فى موضوع الدعوى لأن النقض ليس درجة من درجات التقاضى فى الموضوع، لذلك أنا لأريد أن أشغل المشاهدين..

مقدم البرنامج (مقاطعا) : يادكتور كمال نحن نناقش حدود الاجتهاد وهي أجدد من.....)

د. أبوالمجد : من محكمة النقض، وقضية الاجتهاد واضحة جداً، الأصل هو الاجتهاد، لكن الاجتهاد ممن يملك آله، ومن آلات الاجتهاد معرفة اللغة العربية معرفة تامة ومعرفة كتاب الله - دى علوم موثقة ما أقدرش أخوض فيها بغير علم - ومعرفة السنة رواية ودراية، ومعرفة الفقه فروعاً وأصولاً، معرفة شيء من العقائد وما جاء فيها كتابة ورداً، وبغير إحكام هذه الآلة لا يمكن أن يكون الرأى اجتهاداً بالمعنى العلمى.

مقدم البرنامج : يادكتور كمال سؤال أخير: هل أغلق باب الاجتهاد؟

د. أبوالمجد : سيدى هذه قضية نظرية أرجو أن نمسك عن القول فيها لأنه لم يقل أحد بإغلاقه وهو لم يغلق، بل إنى أضيف من عنديأتى إذا جاز هذا التعبير: إننا لم نكن أحوج إلى الاجتهاد منا فى هذا العصر، وعلمائنا فى كتبهم باب يسمى «باب فى اختلاف الفتوى باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال» لأن الحكم الشرعى هو معرفة الحق ومعرفة الواقع وتنزيل أحدهما على الآخر. فإذا اختلفت الواقعة الاجتماعية اختلفت النتيجة النهائية، شرط أن يتم كل هذا بنية حسنة والتزام منهجى صارم وأدب عف وإيمان بالحرية.

مقدم البرنامج : شكراً وأرجو أن نراك قريباً لمتابعة المناقشة فى هذه القضية.. مين معانا على الخط؟ الأستاذ أوزجان بشار.. اتفضل.

المشاهد (أوزجان): بالنسبة لقضية الدكتور نصر أبوزيد لا أعرف ما هو سبب تكفيره ولم أقرأ له أو أعرفه، ولم أعلم بالأمر حتى أمس عندما شاهدت الحوار مع الدكتور نصر، وأنا كأى إنسان مسلم أرى أن الرجل خلال حديثه سألته: هل هناك مسألة شخصية بينه وبين أحد الأشخاص، وأن هذا الشخص هو الذى أخرج القضية من إطار بحث علمى وترقيه إلى ساحات المحاكم، والمحكمة لها قوانينها الوضعية وهى التى حكمت بتطبيق الدكتور أبوزيد، ولها قوانينها الوضعية وليست محكمة شرعية مائة بالمائة، ولكن متفقين على هذه النقطة. ما أردت أن أسأله عنه هل توجد هيئة من كبار المفكرين، هيئة تميز، لكى تميز بين الاجتهاد والإلحاد؟ هل تم استدعاء الدكتور أبوزيد لمناقشة آرائه؟

مقدم البرنامج : لالم، يتم دى مش وجهة نظره الواقع. لم تتم مناقشته واستتابته.

المشاهد (أوزجان) : إذن من الممكن أن تقام هيئة من كبار العلماء والمفكرين لمناقشة الدكتور حامد أبوزيد.

مقدم البرنامج : الدكتور عبد الصبور هل هذا ممكن؟

د. عبد الصبور مرزوق : لم لا؟

المشاهد (أحمد) : سلام عليكم، فيه نقطة أحب أستوضحها، في مصر هناك ثلاث مؤسسات كبيرة وهى جامعة الأزهر الشريف ودار الإفتاء، والمؤسسة القبطية، والمؤسسة القبطية تختار مرشدها أو البابا أو كما يسمونه، أليس من العار أن الأزهر الشريف ودار الإفتاء ينتظران رئيس الجمهورية كى يعين المفتى أو شيخ الأزهر، وكأن هذه المؤسسات لا تستطيع أن تختار شيخها أو مفتيها؟

مقدم البرنامج : أنا سأقول ما أعرفه وبعد ذلك حضراتكم تجيبون بما تعرفون، ما أعرفه أن رئيس الجمهورية يمارس هذا الحق كولى أمر وفق الدستور والقانون العام، والقيمة ليست فيمن يختار شيخ الأزهر ولكن القيمة بما يضيفه هذا الشيخ أو علماءه الأجلاء، وقد سبق وحظينا بشيوخ أفاضل نكن لهم كل احترام، منذ الشيخ مخلوف للشيخ عبد الحليم محمود للشيخ جاد الحق لشيخ الأزهر الحالى الدكتور سيد طنطاوى.

د. عبد الصبور مرزوق : فى فترات سابقة كانت هيئة كبار العلماء تختار أو تنتخب شيخ الأزهر، وسؤال الأخ دعوة نادى بها الكثيرون، ولكن يحل محل هيئة كبار العلماء الآن مجمع البحوث الإسلامية، وعندما خلا مقعد شيخ الأزهر السابق رحمة الله عليه، عرضت أسماء كثيرة على رئاسة الجمهورية واختار منها وهو اختيار فى تقديرى موفق لشيخ الأزهر الحالى.

مقدم البرنامج : نحن أجبنا رغم أن السؤال خارج موضوع هذه الحلقة حتى لا يظن المشاهد أننا نتهرب من الإجابة عن أى سؤال، ومعانا على الخط الآن الأستاذ مهنى فودة.. اتفضل.

المشاهد (مهنى) : مساء الخير يا أستاذ عماد، الحاجة الوحيدة اللى أنا عايز أسأل عنها سؤال من له حق الاجتهاد، إحنا بنقول اللى اجتهد وأصاب له حستان واللى لم يصب فله حسنة. من له حق الاجتهاد هل يجبنى واحد دارس تاريخ وغزوات وأخليه يفتى فى الميراث زى الحلقة بتاعة إمبراح أو الأستاذ بتاع النهاردة، والا هانفتح كده الباب النهاردة لكل من

هب ودب علشان يفتى فى مسائل بهذا الشكل، الإفتاء مثلاً أثير حول إفتاء الدكتور سيد طنطاوى بخصوص الفوائد وحسم الخلاف لأنه صادر من عالم يعمل بهذا المجال، وبعدين النهاردة فيه مجال فقهى فى الميراث، مجال فقهى فى الجواز، مجال فقهى فى الاقتصاد، لكن إن أنا أجيب واحد كوافير والآى واحد يفتى فى الميراث والآى يطلع كتاب. يعنى من له حق الاجتهاد هنا؟ دى حاجة، لكن فيه حاجة خارج هذا البرنامج. أعيب على قناة أوربت الثانية فى لقاء مع إحدى الراقصات بلبنان، أنا باتفرج على الرقص وباشوف الرقص فى التلفزيون، إنما كون إن أحد الصحفيين فى مجلات ينسب الرقص لأنه يرجع للدين، فهذا ما لا يقبله أحد وشكراً يا أستاذ عماد.

مقدم البرنامج : قضية الرقص ليس لدينا أى معلومات عنها وهى أبعد ما تكون عن هذا البرنامج وعن موضوعنا الآن، لكن النقطة المهمة التى أثارها المشاهد هى: هل أى كوافير يقدر يكتب عن الإسلام؟ هل حضرتك يا دكتور سيد مؤهل كى تكتب عن الإسلام؟ د. عبد الصبور: لا.. عفواً السؤال قال يفتى، وأظن أن هناك كلاماً فى الحنة دى.

مقدم البرنامج : أنا طالب الإجابة من الدكتور سيد لأنه ناله من الحظ جانب من تعقيب المشاهد الكريم.

سيد القمنى : سيدى الكريم مسألة الفتوى فى أمر يتعلق بالدين من داخله فى قضية تتناول التفاصيل مثل متى يؤخر الصلاة أو يقدمها أو ماهى مبطلات الوضوء أو الصوم.. إلخ هذه أمور لها متخصصون، ولها أرباب يقومون على هذا الأمر يفتون فيه، وأنا لست بداعية ولست بمفتى. فقط أنا رجل يشغله مصير هذا الوطن، فدرست وتعلمت المنهج العلمى، وأن أقرأ بتدقيق وأن أصل إلى نتائج أعرضها على الناس فمن شاء وافق ومن شاء ناقش ومن شاء رفض، لا أفرض رأى أبداً على الآخر، وفى المقابل أيضاً أتمنى من الآخر ألا يفعل ذلك معى.

المشاهدة (إلهام الدجاني) : (وتحدث بانفعال شديد) السلام عليكم. أنا لى رأى فى موضوع حلقة إمبارح وحلقة اليوم كمان، المفروض أننا لما ناقش الدكتور أبوزيد بالأمس أو الأستاذ اليوم لازم نجيب بعض النصوص من كتبهم ونقول له فى فترة كذا إنت قلت كده، علشان إمبارح أنت لما قلت للدكتور أبوزيد إن أنت تشكك فى قداسة النصوص قالك لا

أنا قصدي أقول في قداسة المفسرين للنصوص، فأرجو يا أستاذ عماد أنك أنت لما تناقش مثل هؤلاء وحتى لا يغيروا بالكلام، لأن شبابنا بعد سبع سنين وعشرين سنين أولادنا وأحفادنا سيقروا هذه الكتب، وهاتصير هناك فيه بلبله في تفكيرهم، ومش هایشوفوا الأوربت وإنه كان قصده كده وكده، هایشقروا الكتاب وياخدوه أمر مسلم بيه، فأرجوك لما تناقش هذه الكتب يكون فيه خط تحت المكتوب وتقول له إنت قلت في صفحة كذا هذا الكلام ولازم يجاوب عليه بحيث لا يجد فرصة ويغير الكلام.

مقدم البرنامج : أنا متشكر طبعاً للنصيحة حضرتك، لكن أنا عندى إشكالية فى هذا البرنامج، إن هو حوار مباشر، وهناك لدينا برامج متخصصة فى الكتب أو المناظرات الفكرية، وممكن فى برنامجنا نعمل مناظرة فنلجأ لهذا الأسلوب، والغرض كان من حلقة أمس هو استيضاح الموقف بالنسبة لحالة تهم الرأى العام، وعلى اتفاق على أن تتم مواصلتها وحلقة اليوم جزء منها، وهناك حلقات أخرى سنستمر فيها وأرجو من السادة المشاهدين أنهم يحكمون فى نهاية الحلقات علينا، وحضرتك بعد سلسلة الحوارات تقدرى تجيبى علينا، هل الموضوع أشقى غليلك وغطى كل النقاط، لأننا هانرجع تانى للدكتور نصر بإذن الله فى هذه المناقشات وهو وافق على فكرة المناظرة، لأنك لاتستطيعى أن تفرضى على أحد مناظرته فى أفكاره إن لم يوافق على ذلك. المشاهدة (إلهام): يا أستاذ أنت قدامك الآن واحد من الجماعة اللى يمشوا فى نفس التيار وذات الاتجاه. أنت قلت له أنه قال عن سيدنا محمد كذا كذا كذا، قالك لأ.. أنتم فسرتموها بكلام غير ما أقصده، وهو موجود أمامك الآن وكتابه موجود، افتح الصفحة وقول له أنت قلت كذا كذا، لأنه جاوب بطريقة غير المفروض أن يجاوب بها، وبرر موقفه بأنه مش قصده، يا أستاذ عماد إحنا لما شبابنا يقرأوا شيئاً يكون فيه الكلام مش قصده أو قصده.

مقدم البرنامج: هذه قضية تستغرق وقتاً طويلاً، وإحنا هانأخذ حلقة ثانية مع الدكتور سيد والدكتور عبد الصبور مرزوق وهما وافقا من حيث المبدأ، لأن الموضوع محتاج تمسكى فقرة من هذا الكتاب وتقرئينها، فيرد ويقول لك أنا قلت فى صفحة ١٠٢ كذا كذا، تقولى له فى صفحة ١٩ كذا يقولك توضيحها فى صفحة ٨٢، وهذا هو المنهج اللى هانلجأ له فى الحلقات المقبلة، حضرتك كوني معانا وتحكمى علينا فى نهاية الحلقات واعتبرى حلقة أمس واليوم فاتحة ملف القضية وهو مالا يمكن تغطيته فى حلقة أو حلقتين أو ثلاث لأن

الموضوع أعقد كثيراً وشاكر لنصيحة حضرتك.

المشاهد (شريف ديلاور): مساء الخير يا أستاذ عماد. الموضوع زى ما أنت قلت معقد وشائك جداً، وبالتالي فإن الفكر لحدود له وبالتالي يقف الإيمان - لاشك - حائلاً أمام حرية الفكر يعنى لازم نعرف إن فيه إيمان لا يمكن التحدث معه بمنطق أو بفكر، وديكارت قال أنا أفكر إذن أنا موجود، ولا حدود للفكر الإنسانى حتى لو فى حالة أن يعترض على الدين نفسه أو على الرسالة نفسها لأن حرية الفكر مطلقة فلما تيجى تتكلم فى الدين يبقى بتتوقف عند حدود معينة لا فكر فيها ولا اجتهد لأن هناك إيماننا نقف عنده.

مقدم البرنامج: أنت تتحدث إذن عن الخطوط الحمراء.

المشاهد (شريف): فيه خطوط حمراء. الخطوط الحمراء دى هى حدود الاجتهاد النهاردة لا نتكلم فى هذا، إحنا بنحاول نحط حرية فكر مطلق مع الدين وده لا يمكن ومحاولة التوفيق دى مستحيلة ولم تقدر عليها أية أديان أو أية أفكار قبل كده، وبالتالي فالمحاولة فى حد ذاتها فيها صعوبة كبيرة جداً وشائكة وبالغة التعقيد.

مقدم البرنامج: نحن نحاول أن نطرح ملف قضية حدود الاجتهاد ووجهات النظر المختلفة حول هذا الموضوع. نحاول أن ندعو إلى أعمال العقل لكن فى نفس الوقت هناك الخطوط الحمراء، والخطوط الحمراء هى سؤالى للدكتور سيد القمنى: هل هناك خطوط حمراء، نعم أم لا؟

سيد القمنى: نعم.

مقدم البرنامج: هناك خطوط حمراء تتوقف أمامها.

سيد القمنى: أنا فهمت الأمر كالتالى: إن هناك خطوطاً حمراء موضوعة سلفاً ممنوع تجاوزها، هذا ما وصلنى.

مقدم البرنامج: أنت فى عقلك هل هناك نقاط تقف أمامها.

سيد القمنى: أعتقد أن كل أمر قابل للبحث والفهم والمناقشة والبحث العلمى.

مقدم البرنامج: رأيك يادكتور عبد الصبور.

د. عبد الصبور مرزوق: إن كل أمر قابل للبحث والمناقشة والبحث العلمى إلا ما يتصل

بالشوايات التي يقرها الدين والتي نحن بها مسلمون. يعنى أنا ما أقدرش أبتدى النهاردة أتكلم إنه فيه غيب أو مافيش غيب، وما أقدرش أتكلم أنه فيه بعث أو مافيش بعث، لأن إنكار مثل هذه الثوابت يجعلنى أقول لأبد من التوقف هنا وإلا فس نجد أنفسنا كما تفضل الإخوة المعلقون أمام تيار مناقض جداً للدين من ناحية ومناقض لحقيقة الحرية من ناحية ثانية. نحن فى مجتمع اتفق على أننا دولة وحكومة لها دين معين تعتقده، ولا يجوز بحال من الأحوال أن يكون الكلام عن الحرية وسيلة أو سبب لتخطى هذه الحواجز.

المشاهد (صالح المهندي): مساء الخير يا أستاذ عماد. هناك نقطتان هاتكلم فيهما بسرعة: النقطة الأولى أعتقد أننا الآن فى أمس الحاجة إلى رد المحكمة على قضية الاستتابة، هذا أولاً، الشيء الثانى والمهم جداً ولحد الآن للأسف ما أحد تطرق له ولا أحد تكلم فيه هو طبقات المجتهدين وهو شىء معروف فى كتب أصول الفقه وموجود فيها جميعاً. الاجتهاد يا أستاذ عماد ينقسم إلى خمس طبقات وفيه بعض العلماء يقسمونه إلى ثلاث طبقات. هذه الطبقات تحصر وظيفة كل مجتهد حسب إمكانياته العلمية. أضرب لك أمثلة سريعة من المذاهب الأربعة، مذهب الإمام أبو حنيفة عنده تلامذة كبار لو وزنتهم اليوم يزنون كل العلماء. مثال أبو يوسف على رغم جلالة قدره لا يستطيع أن يخرج عن أصول مذهب أبى حنيفة وفى المذهب المالكى ابن القاسم رغم جلالة قدره لا يستطيع أن يخرج عن أصول مذهب مالك، ولا يستطيع أن يفتى فى مذهب ثانى. فى المذهب الشافعى نجد النووى، وهو من هو النووى، معروف، يصنفونه مجتهد فتياً، أدنى درجات الاجتهاد. يعنى يحفظ مسائل المذهب وينقلها للناس فقط. إحنا اليوم مع الأسف الشديد لما نقارن أنفسنا بهؤلاء الأجلاء لانجد أنفسنا شيئاً أمام هؤلاء، ومع ذلك نتجراً أكثر جرأة على النصوص. ونتغافل عن كل هذه المسائل العلمية المحسومة ولا أحد يتكلم عنها وكأنها غير موجودة، رغم أنها تصدر باب الاجتهاد والذي هو مأساتنا اليوم. اليوم إحنا مع الأسف، والمنهج الجديد اللى جعل الفقه الإسلامى شيئاً تافهاً، نجد علماء أجلاء وكبار نراهم فى الإعلام لما نقرأ تاريخهم لانجدهم درسوا الدراسة السليمة التى درسها الإمام مالك ولا اللى درسها الإمام أحمد ولا اللى درسها الإمام الشافعى. هذه حقيقة يجب أن نعترف بها ونقف عندها. أما إذا كانت هناك مسألة معاصرة شائكة فهناك مجامع فقهية ممكن تفتى فيها برأى جماعى، لكن مسألة مثل العرش والملائكة لا يترتب عليها أثر، يأتى

واحد لانعرف من هو ويتكلم فيها كلاما لا يقبله رجل الشارع فهذا شئ مؤسف.

المشاهد (طلال): مساء الخير يا أستاذ عماد، اللى قاله الأستاذ أبو زيد عن التشريع والدخول فى كتاب الله وحظ الذكر والأنثى، أول حاجة هذا كتاب قدسى لا يمكن أن يصل إليه أحد أبداً، ويجبلى واحد يقول أنا بأفكر، طيب ما هو الفرق بين المفكر والعالم؟!، طالما المفكر يفتى ويدخل فى الإرث ويدخل فى كذا، إيش فائدة العالم؟ العالم إيش يعمل؟ جيب لنا مناظرة بين العالم والمفكر.

مقدم البرنامج : ده حايحصل.

المشاهد (طلال): كى نعرف الفرق بينهما، لأن القرآن لو كل واحد بدأ يفتى فيه، هذه تبقى مشكلة للعالم الثالث كله، أنت إذا دخلت الحرم إنهرت روحيا لقدسية الحرم فما بالك بكتاب الله لا يأتية الباطل أبداً. واحد يقولك والله الذكر، والله ما أدري إيش.

مقدم البرنامج : شكراً ياسيدى. مين معانا على الخط.

مشاهد (نهاد أبو رفاعه): أيوه يا أستاذ عماد لو سمحت أبغى أسأل الدكتور سيد لأن هو هتوّه يقول إنى أنا مسلم ولا أحد يسألنى عن الإسلام لأنه بينه وبين الله سبحانه وتعالى وهذا كلام صحيح وهو معاه حق فى هذا الموضوع. لكن أنا بأسأله إذا أنا شخص حرفت لفظ من القرآن أو غيرت فى حديث نبوى أعتقد أنه من حق أى مسلم أن يسأله.

سيد القمنى : طبعاً بالتأكيد.

المشاهد (نهاد): بالنسبة للدكتور نصر والدكتور اللى بيقول هذا الكلام، لما هو غير شيئا فى كتاب الله أو يدعى إنه بيقول كلام وإحنا فهمناه غلط، هو غير فى كتاب الله، ويصبح من حق أى محكمة بل أى مسلم أن يسأله عن الكلام هذا.

مقدم البرنامج : طيب ممكن يجاوب حضرتك.

سيد القمنى : ياسيدى الكريم مسألة إن نصر أبو زيد أو أنا أو أيا من كتب، غير أو بدل فى كتاب الله، فهذا أمر لا يحدث إطلاقاً، لأنك لو قرأت ما جاء بحديث محاكمة نصر أبو زيد والحكم عليه، ستجد أنه وقف مع بسائط وفسيفساء صغيرة، حاول الرجل أن يقدم فيها فهماً، هو لم يقل أنا أغير أو إنى أقرر أو أصدر بذلك فرماناً، هو يحاول أن يطرح فهماً جديداً

للمسألة إما أن نقبله، أو نقول له أخطأت يا هذا وأدلتنا على خطئك هي كذا وكذا وكذا. ويا أخى هذا الإسلام هو دينى كما هو دينك ولى حق التعاطى معه كما لك حق التعاطى معه، وليس فى الإسلام كهنوت وبالمناسبة - تعقياً على ما قيل منذ قليل - ليس فى الإسلام أزهر، الإسلام حقك فى العلاقة بالله، وأن تقول، فإن أخطأت، ردك من هو أعلم منك، وهذا أمر بسيط متفق عليه إسلامياً وإنسانياً.

مقدم البرنامج: تعقيبك يادكتور عبد الصبور.

د. عبد الصبور مرزوق: أنا عايز أتكلم فى نقطتين، الأولى فيما تكلم فيه الدكتور سيد أنه لا كهانة فى الإسلام وهذا صحيح، لكن ليس فى الإسلام أزهر، وأنا لأدافع عن الأزهر، وإنما أتحدث عن وجود مؤسسة دينية تكون مهمتها جمع أهل الذكر الذين يلجأ إليهم أى مفكر فى هذا المقام: قضية للذكر مثل حظ الأنثيين هى قضية محسومة نهائياً فى القرآن الكريم، وفى ختام هذه الآية ﴿.. وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه﴾ فالقرآن جعلها قضية محسومة.

مقدم البرنامج: نعدكم أننا هانخصص حلقة أخرى بموافقتكم طبعاً لمناقشة هذا الأمر.. فنحن مستمرين فى فتح ملف الاجتهاد فى الإسلام.. ودائماً نناقش بكل حرية ودون رقابة.

انتهى وقت البرنامج

حدود الاجتهاد
(مناظرة
تلفزيونية) - ٢



مناظرة تمت بتاريخ ١٦/١١/١٩٩٦ على شبكة تليفزيون أوربت بين سيد القمنى
وبين د. أحمد كمال أبوالمجد والبرنامج تقديم عماد الدين أديب، البرنامج يقدم
على الهواء مباشرة ويسمح للمشاهدين بالمشاركة تليفونيا

حدود الاجتهاد

(مناظرة تليفزيونية) - ٢

مقدم البرنامج : هناك العديد من الحلقات التى طلب السادة المشاهدون مشاهدتها ونجيب على العديد من التساؤلات.. وهناك قضايا عديدة قاربت على الاستكمال.. طبعاً لا توجد قضية استكملت من جميع جوانبها بل إن كل قضية بها نوع من الديمومة فتستمر دائماً فى حالة تفاعل لكن على الأقل نحاول أننا نقرب من بعض وسائل العرض التى تكون شاملة أو تشفى غليل بعض السادة المشاهدين.. كان عندنا يوم الأربعاء حلقة تدور حول قضية الاجتهاد فى النص القرآنى، أومع النص مثلما يحب البعض أن يناقشها.. وبعض الناس أمثال أحد ضيوفنا اليوم يعتقد أن القضية لا ينبغي أن نطرحها بمفهوم هل أغلق باب الاجتهاد أم لا.. لكن مازالت القضية مطروحة مازالت تفاعلاتها موجودة واليوم هو استمرار لمناقشتها.. كنا قد عرضنا كما طلبت إحدى المشاهدات الكريمات قمنا بعرض أجزاء من بعض الكتب التى أثارت ضجة فى الآونة الأخيرة، وتفضل الدكتور محمد عمارة صاحب كتاب حول هذا الموضوع خاص بالدكتور نصر حامد أبوزيد، وكان الكتاب كله مخصص للرد على أفكاره، وكان موجوداً فى نفس الندوة الأستاذ فهمى هويدى المفكر المعروف.. وقام الإثنين بمناقشة هذه القضية.. اليوم مازال النقاش مستمراً حول هذا الموضوع..

حلقة اليوم بها ضيفان ممتازان ضيفنا الأول أستاذى أنا شخصياً أستاذنا د. كمال أبوالمجد وزير الإعلام المصرى الأسبق وأستاذ القانون بجامعة القاهرة وعضو مجمع البحوث الإسلامية ورجل دائماً يتصدى للعديد من القضايا التى تهتم العصر فيما يختص بمدى ملاءمتها للفكر والعقيدة.. أيضاً معنا فى الاستوديو د. سيد القمنى باحث فى تاريخ الأديان وصاحب مجموعة من الكتب أكثرها إثارة الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية وقد قام بعشرة أعمال، طبعاً هناك كتاب آخر هو الأسطورة والتراث أعتقد أنه كتاب هام جداً.

وأعتقد أن العشرة كتب هي نوع من التعليق والرؤية والتحليل للعديد من الثوابت التي قد يعتقد البعض أنها غير قابلة للنقاش. اليوم توجد بالأستوديو مدرستان — إذا جاز التعبير — من التفكير نرجو أننا من خلال طرح القضية من خلال وجهات النظر المتعددة أن نستطيع أن نقرب إلى تصور حول طبيعة القضية.

أستاذنا الأستاذ كمال أبو المجد. أهلا بك وأهلا بالدكتور سيد ود. كمال إذا سمحت حضرتك أذكر في الحلقة التي كنت بها مشكورا تتحدث معنا على الهاتف، حينما ذكرت عبارة (هل باب الاجتهاد أغلق) وجدت في صوتك نبرة من الحماس ممزوجة بالغضب وتقول (ياسيدى) بطريقتك هذه (ياسيدى هذه القضية أصلا لا يجب أن تطرح بهذه الشاكلة).

د. كمال أبو المجد : سأعرض كلمات موجزة ولكن أرجو أن تكون واضحة.. وأنا قادم إلى هذا اللقاء سألت نفسي ماذا نفعل؟ لماذا نحن هنا؟ ومن نخاطب؟ وماذا نريد؟ هناك شيء لا بد أن يكون وشيء لا ينبغي أن يكون. أصحاب القضايا في أمور متخصصة فيها خلافات رأى بين المتخصصين قد لا يكون هذا أنسب المجالات لطرح القضايا المتخصصة، لأنها قد يساء فهمها وقد لا يفهم مرماها وقد يساء طرحها إلينا، إنما القضية التي لا ينبغي أن تغيب أبدا أننا ننتمي إلى أمة، فإذا كنا نتحدث عن الاجتهاد في الإسلام فالقضية ليست الإسلام. القضية هنا أن الأمة في عثرة وأن الأمة تحتاج إلينا، فنحن نبحث هموم أمة على أول طريق النهضة، وبالتالي قضية الاجتهاد لا بد أن توضع في هذا الموضع : هل يمكن لهذه الأمة أن تنهض وهي تعيش تماما على التقليد والسلف؟ لذلك لا بد من اجتهاد وما هو نوع هذا الاجتهاد؟ ما هو موضوعه؟ ما هي مساحته؟ ما هي أدواته؟ ما هي شروطه؟ ما هي آفاقه؟ ثم نضع حدودا فالذى أتصوره أن الأمة إذا لم تجتهد في الأمور العملية والتشريعية وفي المنطق العقلى بصفة عامة، يصبح ليس من حقها أن تتفاهل وليس من حقها أن تتوقع نصر الله لأن الله تعالى يقول ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾، ونصر الله في أمور كثيرة ليس في أمور الأدعية فقط وهي أمور جلية، إنما الأخذ بالأسباب لأن الله ليس بينه وبين أحد حجاب من أخذ بالأسباب وصل ولم يمنعه شيء ومن لم يأخذ بالأسباب لن يصل. فالأمة الآن وقد عطل أمرها وجمد حالها تريد أن تنطلق لا بد لهذا الانطلاق من

شروط، من هذه الشروط : أن نتجارب مع الواقع وأن نتعامل معه، وأن تجد الأمة نفسها وأن تغير أمرها، وكيف يتأتى هذا بغير اجتهاد؟ لقد نعى القرآن الكريم بعبارات واضحة تعطيل العقل ﴿قالوا هذا ما ألفينا عليه آباءنا﴾ فهذا موقف منكور مذكور بالإدانة فى القرآن الكريم، ثم من قال أن باب الاجتهاد أغلق؟ هذه مقولة جرت بها أقلام دون تحقيق. حتى فى العصور التى قبل فيها بهذا امتلات الساحة ولا تزال بمجتهدين فى المذاهب، بمجتهدين مطلقين بمجتهدين فى التفسير، بمجتهدين فى الأحاديث، بمجتهدين فى الفقه، وأنا أريد القول أن الذى نحتاج إليه ليس خلاف العملاء المتخصصين فى مسألة تاريخية النص أو عدم تاريخية النص أو طريقة فهمه هذه خلافات علمية وطرحها على العامة قد يضر. إنما لابد أن يعرفه الجميع أن لكل عصر فقهه وأن الاجتهاد.. واستفراغ الجهل هذا له معنى وهذا له معنى والدكتور سيد يعلم هذا جيدا للوصول إلى حكم عملى، وإلا ما كان النبى ﷺ يستعيز بالله من علم لا ينفع. الأمة الآن عينها على الواقع وعلى نفسها تعرف أن هناك أساسا ينبغى.. فلا تريد أن نبتعد بها عن هذا الطريق، العالم متواصل، العالم تتسارع وخطاه، هذه الأمة إذا اشتغلت عما ينفع بما لا ينفع أظن أن أمرها يصير فرطا.

- مقدم البرنامج: د. سيد حضرتك ذكرت فى الحلقة الماضية أن هناك نوعا من الكوابح أو أن هناك أمورا تمنع الاجتهاد، ودللت على ذلك بعدة أمثلة بسيطة ولكنك لم تشرح بالضبط وجهة نظرك كاملة.

د. سيد القمنى أى نعم.. الدكتور أبوالمجد أوضح الآن أن الأمة فى عثرة، وأنها فى حاجة إلى نهضة وفى حاجة إلى الاجتهاد المستمر الدائم، وأن نأخذ بالأسباب، ولكن ما أود أن أوضحه قبل الإجابة عن سؤالك بالتحديد، هولون من ألوان الالتباس. ربما أنا وصلنى الأمر ملتبسا بعض الشيء، وأستعين هنا ببعض ما تكلم به الدكتور أبوالمجد معنا فى حلقة ٣ نوفمبر الأحد السالف. والملاحظ عموما فى الخطاب الإسلامى على درجاته سواء المتشدد أو المعتدل أو ما يوصفه بأنه مستنير، فيه لون من التعالى الشديد الذى يستند بالضرورة إلى ما يدعم إلى هذا التعالى، وأظنه وأتصوره امتلاك الحقيقة المطلقة فى نصوص دينه لا يأتيناها الباطل من بين أيديها ولا خلفها، ولكن أنا حتى أفهم، وحتى نستطيع أن نجد مساحات مشتركة للفهم كما قال الأستاذ أبوالمجد المرة الماضية نسأل كيف يتفق

امتلاك الحقيقة المطلقة هذه التي لا يدخلها الباطل إطلاقاً وبين القول بالتفكير العلمي الذي لا يعرف شيئاً اسمه الحقيقة المطلقة، ثم نقول أننا نأخذ بقواعد التفكير العلمي؟! وأنا الحقيقة مسجل عندي بعض الكلمات الطيبة والجميلة من الأستاذ الدكتور أبوالمجد كقوله على الهاتف بالحلقة الماضية (يزعجني ويزعج كل عاقل الحجر على حرية الفكر باسم أي شيء ولو كان الدين) هذا كلام جميل ورائع جداً لكن هذا كلام التفكير العلمي والمنهج العلمي في التفكير. لكن في المقابل فإن سيادته قد أشار إلى أنه منزعج أيضاً جداً، ووصف هذا البرنامج بأنه كارثة، وأن فتح الحديث عن الاجتهاد أو السؤال هل باب الاجتهاد مفتوح أم لا، هذا كارثة أيضاً. الحقيقة أنا في تصوري أننا في كارثة حقيقية كبرى، وفي نفس الوقت قال د. أبوالمجد يزعجني انتشار مدرسة أسميتها مدرسة الاستحلال العلمي، وأن هذه المدرسة تحت راية الاجتهاد وتحت راية الحرية تخط خطاً عشواً وتقول كلاماً لا يليق بالعقل كيف أستطيع أن أوفق بين المعنى الأول والمعنى الثاني في كلام د. أبوالمجد. المعنى الأول نحن مع الحريات وفتح باب الاجتهاد، لكن في نفس الوقت نجد الخطاب الإسلامي يقدم نموذجاً كما في الكلام الذي قاله د. أبوالمجد في الحلقة الماضية بشأن نصر حامد أبو زيد، كان فيه إنكار لما يقول وتخطي، بل أنا كنت معه في مسألة خبط العشواء، كيف يتفق هذا مع ذلك؟ هل نفتح باب الاجتهاد؟ هل باب الاجتهاد مفتوح ونحن نؤمن بالحريات فعلاً؟ أم أن باب الاجتهاد مغلق ونحن بحاجة إلى اجتهاد. هل يعني هذا الكلام مخالفة (أبسط القوانين العقلية قانون الهوية وعدم التناقض) كيف أكون ضد محاولة نصر في طرح ما يريد أن يوصله للناس محاولاً أقول اجتهاداً بالمعنى الفقهي لأن أنا شخصياً لا أجتهد بالمعنى الفقهي لكن محاولة فهم طرح أسئلة صعبة فرضها الواقع والمستجدات. هل أقبل هذا التناقض الذي يتعارض مع القوانين العقلية؟ وهذا التناقض رأيته أيضاً في كتاب أهده لي الأستاذ الدكتور أبوالمجد (رؤية إسلامية معاصرة) ملىء بالبنود الهائلة عن الحرية والديمقراطية لكنني أجد بنداً في الكتاب ص ٥٧ المادة ١٢ في طبعته الثانية.

مقدم البرنامج : ممكن قراءة اسم الكتاب مرة أخرى

سيد القمني : رؤية إسلامية معاصرة، إعلان مبادئ.

فى الترتيب ثانيا «حق تقرير الأمور للأغلبية وتظل حقوق الأقلية مصانة ومحفوظة» وبناء على هذا يتم تطبيق مبادئ الشريعة الإسلامية وفق هذا التقديم.. طيب فى مجتمع مثل المجتمع المصرى أو اللبناني، المجتمع الذى يشمل أكثر من طائفة دينية. كيف يمكن التحدث عن أغلبية وأقلية فى جانب وعن ديمقراطية فى جانب آخر؟ أى ديمقراطية التى قبل أن تبدأ نقول أن فيها أغلبية وفيها أقلية؟ ثم هذه الأغلبية الطائفية كيف نحددها ومن سيحددها؟ أنا مسلم والدكتور مسلم ولكنى أخالفه الرأى، فأنا.. هل سأقف عنصرا منفردا لامع الأقلية ولا الأغلبية. إن مفهوم الأغلبية سياسيا له شرطان : أن الأغلبية ؟ قابلة للتغير ممكن أن تكون أقلية وهذا لا ينطبق على الظرف والتكوين الطائفى.

مقدم البرنامج: حضرتك بتفتح العديد من المواضيع.

سيد القمنى : أنا لازلت فى مسألة أنى أريد أن أفهم هذا التناقض ما بين الديمقراطية و..

مقدم البرنامج : نسمح للدكتور كمال الرد على ما قلت ثم تستكمل ما قلت.

- سيد القمنى : أنا لم أجب عن السؤال الأول على أية حال أنا كل ما فى الأمر كنت أقوم بمحاولة الفهم : كيف يمكننا أن نفهم يعنى واحد طالب فى كلية الحقوق مسيحى حصل على تقدير امتياز لا يعين وكيل نيابة؟! وأى وكيل نيابة سيكون قاضيا!

مقدم البرنامج : حضرتك فجرت حزمة من الموضوعات

- سيد القمنى : كلها حول مسألة التناقض..

- مقدم البرنامج: بعد أن يرد عليك الأستاذ أبو المجد حضرتك تعود مرة أخرى د. كمال أبو المجد : أنا لا أرى أى تناقض. دعنى أكون أكثر صراحة. هناك فى الحوار الدائم فى مجتمعنا المصرى والمجتمع العربى والإسلامى مخاوف متبادلة، بعضها مشروع وبعضها غير مشروع، المشروع منها فى رأى هو أن يخاف أحد الفرقاء أن يغيب احترام حرية التعبير عند الفريق الآخر، وبالتعبير القانونى مع ما يترتب على ذلك من آثار التضيق والمصادرة والامتهان والحجر والإبعاد والإدانة. وأنا ما قلت يوما ماشفاة أو كتابة أنى أبيع الحجر، أو أن يصادر رأى كائنا ما كانت المخالفة. لكن هذا لا يمنعنى من التخطئة فى مقام الحوار، وأنا أعترف أحيانا بالخطأ، من حسن الحوار أن يكون هناك استعداد لتغيير الرأى والاقتناع

والإقناع. أنا لأرى أى تناقض فى أن أخطئ منهج معين إن الأمة تعيش حرباً أهلية يرتادها ويقودها مثقفوها وهى حرب أهلية وليست حواراً والطاقة المستهلكة فى هذه الحرب ينبغى أن توفر وأن تدخر، بأن نقوم بما أشرت إليه فى الحديث الهاتفى نحرر الخلاف، أنا أرى أننا مختلفون حول قضية واحدة لكنها أساسية، وهى من القضايا التى لأحب أن أشغل بها المشاهدين، لكنها فى الواقع تتعلق بمعنى تاريخية النص، لأن أنا اليوم حتى أخطب الأمة وأكسب ثقتها وأدعوها إلى النهضة، وأن تستجيب لأبد إن أنا وهى فى أرضية مفترضة وإن كانت لى خلافات، لأننى أعترضها وأواظب عليها، الأرضية هذه عند الأمة هى الإيمان، والإيمان عند الأمة شىء بسيط جداً ويسعها بعد ذلك أن تقبل كل أنواع الخلاف. د. سيد يعرف وأنا أعرف وأنت تعرف المنازعات بين الأشاعرة والمعتزلة، وأنه قد نشب خلاف بين أصحاب المذاهب، وأنا أشرت فى إحدى مقالاتى إلى خلاف حاد بين إمام دار الهجرة مالك بن أنس، وإمام مصر الليث بن سعد وتبادلا الخطابات روعة فى وضوح الخلاف وأدب الحوار. أنا لأتهم أنا أكلّمك بكل صراحة (يرفع كتب سيد القمنى مشيراً إليها)، أنا استمتعت بهذه القراءة وخرجت متعلماً منها.

مقدم البرنامج: استراحة ثلاث دقائق. بعد الاستراحة نستكمل.

مقدم البرنامج: نتابع مناقشة قضية الاجتهاد الأستاذ كمال كان يتحدث قبل الاستراحة تفضل يادكتور.

د. كمال أبوالمجد أنا فى كلمات واضحة جداً أقول أن نقطة الخلاف ولست متأكداً أنه خلاف بينى وبين د. سيد القمنى، إنما أتحدث عن منهجية لأننى وجدت فى كتاباته ما يشككنى فى وجود هذا الخلاف.. كيف؟ المنهج الأول منهج إيمانى، يرى أن النص القرآنى نص الوحي منزل، أى أنه داخل على السياق لكن كونه داخل فى السياق ليس معناه أنه يلغى تاريخ الإنسانية إنما القضية أنه ليس من صنع الواقع، إنما المسلم أو المؤمن كتابه يهودى مسيحى أو مسلم يؤمن أن الله يوحى إلى نبيه وهونزل..

مقدم البرنامج: أى ليس صناعة بشرية.

د. كمال: بالتالى قضية الوحي قضية محورية ولكن ليس معنى القول أن الوحي ليس نصاً تاريخياً أنه يلغى تاريخ الإنسانية، أنا حين أقرأ للدكتور سيد القمنى عن الأسطورة

استمتعت، وأنا قارئ من قبل فى تاريخ الأمم البائدة حصل تسلسل تاريخى لكن فى لحظة تاريخية معينة جاء الوحى ..

مقدم البرنامج : وحضرتك هل ترى خطأ عند د. سيد أو تختلف معه؟

- د. كمال : إن بعض عباراته تلبس على لأنها قد توحي أن النص ليس مفارقاً إنما هو جزء من واقع الأحداث يعنى فى كلامه عن الأساطير كلما ذكره صحيح وموثق وهو عالم محقق ومدقق واعتمد الآثار من الكتب المعتمدة عند أهل الملة وأهل الأمة : ابن الأثير وابن كثير والطبرى المسعودى وغيرهم، كذلك فى العرب البائدة وفى الأساطير، كل هذا صحيح إنما يبقى أنه لا أستطيع القول بأن النص امتداد لهذه الأساطير. الأسطورة تعبير عقلى وفيض وجدانى عن أمور وهموم وتطلعات وأشواق تعبر عن واقع ليس لها سند معلوم وليس لها مصدر معلوم وهو يعلم ذلك أكثر منى. فحين يأتى الإسلام ويقول أن بعض هذه الأساطير حقائق كقصة الكعبة وزمزم وإبراهيم وقصة الصفا والمروة على أن أوقن معنى هذا أن بعض الأساطير القديمة لم يكن لها أثر، وإنما صنع خيال ولكن ليس هناك تاريخى ما ينفى أن لها أصل وأضيفت إليه أشياء حين يأتى النص القرآنى المنزل، ويقول إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة ثم يتكلم عن إبراهيم وإسماعيل والذبح أنا كمسلم أصدق. لأن هذا هو الفيصل بين الإيمان واللايمان.

- مقدم البرنامج : (متوجهاً إلى سيد القمنى) : هل أنت مصدق أم غير مصدق؟

د. كمال : كيف أناقشه فى هذا؟ أنا أجابك عنه، هو مصدق.

سيد القمنى : سيدى الكريم على أية حال هذه المنطقة أحاول دائماً أن أنأى بأصدقائى أن يسألونى فيها . هذا أمر قلبى وعلاقة جوانية بالمقدس . الخ

مقدم البرنامج : قلت أنك تعتقد أنه ليس صناعة بشرية؟

سيد القمنى : أنا حين أتحدث أحاول ألا أكون مجتهداً بالمعنى الفقهى لأن هذا له أربابه وله أهله، وأنا قلت ذلك المرة السابقة، أما مساحة اجتهدى فى الجانب الإنسانى، لهذا أتحدث فى الجوانب الإنسانية فى المجتمع فى الاقتصاد فى السياسة، صياغة الفكرة فى فرز المجتمع وهو يخرج ويفرز بنية علوية و..

مقدم البرنامج : فى بدء كلامك فى هذه الحلقة كنت تتكلم عن بعض سلبيات الخطاب الإسلامى، هنا أريد أن أسألك سؤالاً.. إذا كان الآخر يمثل الخطاب الإسلامى فأى خطاب تمثل أنت؟

- سيد القمنى : ياسيدى الكريم أنا أمثل خطاباً علمياً بمعنى أن قواعد العلم يجب أن تشمل كل موضوعات المعرفة، والدين أيضاً بنصوصه معرفة نتعامل معها وفى قراءتها بالمنهج العلمى.

مقدم البرنامج : هل تقصد وضع العلم فى مواجهة الدين؟

- سيد القمنى : لإطلاقاً

عماد : لكن تحت مظلة الدين يمكن تتكلم.

سيد القمنى : هناك قضايا يجب الحديث فيها على نفس الأرض، وهناك قضايا كقضية الحريات يجب أن يحدث التماس فيها من الخارج وليس من على نفس الأرض، قضية الحريات أضيف إليها رصيذاً كبيراً جداً منذ زمن الوحي كل ما فى الأمر أننا نطرح السؤال ونترك لأرباب الاجتهاد إنما يقدموا فيه إجابة أن نفتتح النوافذ، أن نسأل، أن نشير الدهشة، يعنى فى المسألة التى تحدث فيها د. كمال عن قراءتى للأساطير وأن الوحي قد يبدو مع التباس بعض العبارات امتداداً لهذه الأساطير. بالإمكان القول وهو ما قلته فى كتاب الأسطورة والتراث أن الوحي الإسلامى من لم يأت دفعه.. واحدة إنما أتى متدرجاً فى ثلاثة وعشرين عاماً هى عمر الوحي وتواصل السماء مع الأرض، هنا تفاعل مع الواقع ومع المأثور ومع الأسطورة ومع قصص الحضارات، ثم شكل لها امتداد هنا الحكم مسألة الإيمان من الدرس الموضوعات التى تتعلق بمسائل الغيب والإله هذه محل إيمان وليست محل درس، إما أن تؤمن بها أو لا تؤمن بها، لكن هناك أموراً نتعرض لها هى محل الدرس وهى ما يتعلق بمعاشنا وبمصالحتنا وبوطننا ومستقبلنا.

مقدم البرنامج : السؤال موجه إلى حضراتكم.

ما الفارق بين إعمال العقل وبين التجرؤ على النص؟

د. كمال : الحقيقة أنا أرى أن نوضح الأمر توضيحاً ليس بعده توضيح..

القضية أن الذى يؤمن بالوحى يؤمن أن النص كما جاء هو كما جاء وأنه حق، لكن النصوص مع ذلك ليست سواء فى دلالاتها على معناها، وأنا هنا أتكلم عن الأحكام العملية لأنه ليس هناك تدرج فى الأحكام العقائدية منذ بدء أول آية ﴿اقرأ باسم ربك الذى خلق﴾. خلق الإنسان من علق ﴿التوحيد واضح والألوهية واضحة هذا لا يحتاج إلى تدرج الذى يحتاج إلى تدرج فى الواقع التاريخى والمجتمعى والاقتصادى هو الأحكام العملية لأنك تأخذ الناس على شىء وتتزعهم من شىء، ومن هنا احتاج الأمر إلى تدرج فى التشريع الذى يتطور هو تطور التشريع لملاقاة حاجات الناس المتجددة.. أما الحقائق فلا تدرج فيها، والإسلام فى عقيدته واضح كان فيه الشعراء والأنبياء وجاء القرآن الكريم أفر العقائد الصحيحة وأنكر العقائد التى اعتبرها فاسدة، فهذا لا يوجد اجتهاد. الاجتهاد الذى نتحدث عنه ينبغى أن يكون فى الأمور العملية وأنا أتفق مع كل المجتهدين فى أن النص قد يكون حمال أوجه، ونحن لدينا رسالة جلييلة لابن تيمية الحنبلى (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) وأبو حنيفة يقول: علمنا هذا رأى وهو أحسن ما قدرنا عليه) بل فى فهم النصوص فى أمور أخرى مما نقول: القرآن القديم قديم أم محدث؟ تكلم فيها العلماء، الرمز والحقيقة تكلم فيها خاصة المتكلمين. إنما أنا أريد اليوم أن نشغل أنفسنا بالاجتهاد الذى يتعلق بحرية الناس، فى أن تتعدد آراؤهم فى المسائل الاجتماعية والسياسية والعملية والاقتصادية، لأن الناس تتقل من التوحيد فى قضايا العقيدة إلى الإصرار على الوحدة فى قضايا المجتمعات، وهذا مستحيل وبالتالى أقول جواباً لاغموض فيه: إن الذى يؤمن بالوحى ينبغى أن يفرق بين نص الوحى وأى نص آخر، ويمكن كلام الدكتور سيد عن الخطاب الإسلامى كأنه يريد أن يقول خطاب الناس فى فهم النص.

مقدم البرنامج: ننقل الموضوع على الأرضية.. نجد أبحاثاً واختلافاً كبيراً حول اختمار اللبن وإن اختمر هل يسكر أم لا؟.

د. كمال: كلام على العين والرأس.

مقدم البرنامج: على الرأس لكن أتكلم عن اختمار اللبن ولا أتكلم عن فساد الأنظمة السياسية؟

د. كمال: - هذا أمر لا أشغل نفسى به لأنه سقم فى الفكر وعوج فى الرأى، وكم من

الناس يزعمهم أن الواحد لا يرسل لحيته ولا يزعمهم أن تغيب الشورى ويضيع العدل ويتأخر المسلمون ويتبعون المشرق والمغرب والشمال والجنوب. هذا خلل فى الرؤية - إن الأمة تريد أمرين : تريد أن تعيش هذه الدنيا ، وأن يكون لها شأن بين الأمم.

مقدم البرنامج : تفضل يادكتور سيد.

- سيد القمنى : الأمة الإسلامية جاء عليها زمن كانت امبراطورية قوية، هذه القوة جعلت القائمين على هذه الأمة لا يخشون على النظام ولا على الفكر ولا على عقيدة الأمة، وفتحت كل الأبواب على كل الثقافات. فترجمت العلوم الهندية والفلسفة اليونانية، بل انفتحت على ديانات مغايرة للإسلام تعد ديانات وثنية، بل وكتب فلاسفتنا الكبار الذين نعتز بهم اليوم كتابات مزجت بين تلك النظريات القديمة التى تعد وثنية وبين الإسلام مثل الفارابى وابن سينا فى نظرية الفيض مثلا ولم يتورعوا عن مناقشة أكثر الأمور حساسية حتى وصلوا إلى ذات الله وناقشوها وجعلوها موضوعا للمناقشة والمعرفة وتساءلوا عن علاقة ذات الله بصفاته، وهل صفاته حقيقية أم مجازية؟ وانقسموا فى ذلك مدارس هذا كان فى عصر القوة زمن الثقة، عندما أنجبت الأمة كوكبة من العلماء نفخر بهم ساهموا فى تأسيس العلم البشرى الموجود اليوم. لكن فى ذات الوقت قبلت الأمة ضريبة أخرى هى حرية الفكر، فقبلت أن يكون من رجالنها الطيب الرازى هذا الطيب كان رجلا متميزا كعالم طيب وملحد - ابن الراوندى الذى عاش حوالى مائة سنة وخمسة لم يرم عليه حجر، وكتب حوالى أكثر من ٩٣ مصنفا أو أكثر من ٨٣ بأسماء الجواهر والأحجار الكريمة الزمردة والياقوتة والمرجانة كلها فيما يقول مخاريق الأنبياء أى دحض الرسالات. ومع ذلك لم يتعرض له أحد، الأمة قوية والإسلام لا يخشى على نفسه ومؤسسات الدولة لا تخشى على نفسها. وحين أغلقت كل الأبواب بمجىء الخليفة المتوكل بعد المعتصم وهذا مانعرفه تاريخيا، بدأ عصر الانحلال ووضعت الشروط على الاجتهاد، رغم أن هذه الشروط لم تكن موجودة زمن المعتزلة الذين أعلنوا من شأن العقل، بحيث أنه لو اختلف مع نص قرآنى، نأخذ بما قاله العقل. هذا ما قاله المعتزلة فى زمنهم. أما مسألة ما الذى يكبح الحريات الآن، هذه الكوابح التى سألت عنها فى البداية سيدى الكريم الدين فى حد ذاته ليس مع تقدم أو تخلف هو كيف نتعامل مع نص الدين؛ أما أن نجعله معينا للتقدم أو نجعله كابحا له مساعدا على التخلف حسب قراءة كل منا لهذه

النصوص الدينية، ولا أقول أنى أجتهد بالمعنى الفقهي أكرر أنا أحاول أن أفهم وأطرح أسئلة قد تبدو حرجة وقد تبدو حدية بعض الشيء ولماذا تطرحها الآن؟ لأن الكارثة التي نعيشها أكبر من الصمت على أسئلة محرجة.

مقدم البرنامج : نبدأ فى أخذ الأسئلة.. ونرجو من المشاهدين تلخيص الأسئلة فى ٣ دقائق.

أول اتصال (د. إلهام الدجاني)

المشاهدة إلهام الدجاني.. السلام عليكم

جزاك الله خيرا عن المجهود العلمى الذى بذلته الأسبوع الماضى فكانت فاصلة قاطعة على كل ماقد يعتقد أى شاب من الشباب أو قارىء فى كتابى أبوزيد والعشماوى، كما حكم عليهم محمد عمارة ولست أنا.. بالنسبة للدكتور أبوالمجد يقول إنه عجبه بعض الأشياء فى كتاب د. سيد وهناك ما لم يعجبه. ممكن يوضحه حتى نعرف لأننا فى المستقبل إذا قرأنا الكتاب فالأستاذ عالم ودكتور نستفيد منه . عجبني أبوالمجد حين فرق فى التدرج فى التشريع وبين التطاول على الأحكام ورأى أن هناك فرقا بين الاجتهاد وبين حرية الفكر التى تكون اجتماعية سياسية اقتصادية ثقافية، أما الاجتهاد فيكون فى أمور الفقه وتركها للمتخصصين للدخول فى أشياء مستجدة علينا فى القرن الـ ٢١ مثل قضية زراعة الأعضاء هذه مشته فيها.. د. سيد يقول أن الإسلام انفتح على الحضارات السابقة طبعاً شىء طبعى ولكن فيما يتفق مع الكتاب والسنة ، وليس مع ما يختلف مع تعاليم ديننا وحرية الفكر ليست فى الكتاب ولا شخصية سيدنا محمدا وماورد فى سيرة ابن هشام كذلك الخلفاء الراشدين هذه، أشياء تترك للمتخصصين فى علم التاريخ ويجب أن يكون عندهم حاسة إسلامية، إنه يبحث فى التاريخ الإسلامى فإن لم تكن لديه الحاسة الإسلامية أنه يبحث فى التاريخ الإسلامى صعب أن يقرأ فيها.

استراحة ثلاث دقائق.

مقدم البرنامج : مازال فتح القضية مستمرا.

الدكتور إلهام الدجاني أثار عدة نقاط هامة د. كمال ماهى ملاحظاتك السلبية على

كتب د. سيد

د. كمال : د. سيد أشار في كلامه معاتباً بموضوع الاستحلال العلمى .. إننا نطرح قضايا للأمة، ولابد أن نصطلح على منهج - المنهج الإسلامى فى المعرفة يقوم على ساقين : ساق عقل وساق نقل.. فلا أتصور أن يكون المنهج العلمى فى الإسلام لإقائم على هذين الساقين.. ولا أقول إنه منهج عقلى خالص فأطوع الوحي وأهون أمر الوحي وأنا حين أقرأ كتاب د. سيد أنا لاخطر على منها حين يتدرج فى الأسطورة فى الذبح والقرايين عند اليهود والبابليين والآشوريين والفراعنة واليهود والمسيحيين كأنى وأنا فى القربان والحجر الأسود والحج الذى هو حك فى اللغة، كأنى أنتقل من أسطورة إلى أسطورة، وكأن الوحي فى السياق التاريخى أحد المراحل العابرة. أنا أعتقد أن القارىء غير المتخصص قد يصيبه هذا الضرر. النقطة الثانية مسألة تاريخية النص أيضا والإصرار عليها يكاد.. لولا أنى متخصص والعبارة أكبر من الدلالة بالإشارة، فقد جاء الدكتور سيد فى آخر كتابه (الأسطورة والتراث) وقال عن القرآن الكريم : «فالكتاب متكامل بذاته مستغن عن الدفاع عنه بنفسه، فقد وصل الإسلام تكامله واستقراره فى حياة صاحب الدعوة ﷺ وهو الأمر الذى لا يخشى معه عرض مسألة.. الخ» هذا كلام متخصصين ونحن لسنا مضطرين أن نوقع القارىء فى مثل هذا الشك وهذه الشبهة، ونحن ندافع عن قضية هامة وغير صحيح مقالته الدكتور سيد وآسف أن أقول ذلك.. أن الإسلام انفتح على الحضارات ولكنه لم يذب فيها، وأنا قارىء للتراث الإسلامى وأعرف المتكلمين أين تأثروا بالفرس والهند وكذلك الصوفية من الحسن البصرى حتى هذا الزمان، أعرفهم كما أعرف كفى لى لكن كل مذهب وله هوية.. هل أنا يمكن أن أقول أن الماركسية هى أى شىء وأغير وأقول لىست هناك دكتاتورية بروليتاريا مفيش تفسير اقتصادى للتاريخ، مفيش مادية جدلية ولكنها مع ذلك تعد ماركسية، إن الإسلام يظل له كيان رئيسى، أمور لا وجود للخلاف فيها وأمور كثيرة لا بد من الخلاف فيها، الذى أريد قوله أن الإسلام انفتح على الحضارات لأنه بعد أن يصل الإسلام إلى الناس هم بشر يتعامل بعضهم مع بعض يأخذون ويتفنون وحتى فى الأعراف الموجودة فى الهند غير هنا .تبقى جزئية خطيرة جدا هى المسيحيين فى المشرق موقفى أنا وأخوة آخرون واضح أن الإسلام اتخذ موقفا واضحا من النصارى المسيحيين بشكل جاد، وأن حريتهم فى عباداتهم أمر أساسى، والأمر الثانى أنهم يتمتعون بكل ما لنا ويؤدون كل ما علينا، وكلمة الذمى : إن الذمة من العهد ونقول أهل الذمة أى أهل العهد. وكانت تعبيراً عن الأداة القانونية التى التزمت من خلالها الدولة

المسلمة بحماية وإعطاء الحقوق لغير المسلمين، لكن مضمون هذا العرض هو الحرية الكاملة والمساواة الكاملة، وقد حل مكانه الدستور، فحين يقول د. سيد : وكيل نيابة مسيحي على عيني ورأسى ولو تقدم لوظيفة يستحقها وحرّم منها، أنا كمحام ممارس أرفع له قضية، أما حرية الأغلبية فى أى قضية من القضايا إذا تكونت أغلبية، خاصة فى قضية تطبيق الشريعة الإسلامية رغم دقتها وعدم تحديد مفهومها وضمانات القائمين عليها.. إذا اتخذت أغلبية الناس مسيحيين وبعض المسلمين أو مسلمين وبعض المسيحيين بتطبيق الشريعة الإسلامية فهل آخذ برأى الأقلية.. أين المنطق فى هذا؟ المهم أن الحقوق والحريات تخرج مطلقة وأن الشعائر الدينية تؤدى.

سيد القمنى : أنا لم أقل أن الأمة الإسلامية ذابت فى علوم الآخرين وحضاراتهم إنما قلت تحديدا انفتحت ولم تخف ولم تخش منها وتعاطت معها وتجادلت وأخذت فلسفات من الآخرين بل وقلت مانصه : وأخذت عقائد قديمة ومزجتها بعقائد إسلامية فيما يسمى نظرية الفيض عن الفارابى وابن سينا وهؤلاء نفتخربهم ونعتبرهم من كواكب سماء التاريخ الإسلامى والعربى أيضا. أما عن نظرية الأغلبية أنا أقول أن الأغلبية مفهوم سياسى يعنى أن الأغلبية قد تكبر أو تصغر وتصبح أقلية، وهى مفتوحة لمن يخرج ويدخل إليها . أنا أحاول طرح التساؤلات: أنت عندما تفرض شريعة الأغلبية فإن هذا الفرض ليس فرضا لشريعة بل فرضا للأغلبية نفسها، لأن هذه هى قوانين الأغلبية، ويقال إننا متسامحون، ولكن هناك سؤالان أعطانا الحق للتسامح أو عدم التسامح مع مواطنين مثلنا؟

د. كمال : أسأل سؤالاً يادكتور.. هل تستطيع سيادتك فى أمريكا الشمالية أن تعدد الزوجات؟ ولماذا؟ لأنه القانون الذى تأخذ به الأغلبية. فإذا جاءت الأغلبية هنا ورأت أن مصدرها فى التشريع الإسلامى ننزعج؟ هل تستطيع أن تعيب على الأنجلوسكوتون أنهم لا يأخذون بتشريع نابليون؟ كل أمة تختار شريعتها وهى جزء من تراثها أنا مندهش أين الغرابة فى ذلك؟ ولاتنس ياسيدى وأنت تعرف التاريخ أن الشريعة كانت مطبقة حتى جاء الأجانب وقالوا نطبق أحكاما قنصلية، ثم اشترطوا للدخول إليها تغيير الشريعة. ثم إن القوانين الموجودة ٩٠٪ منها لا تتعارض مع الشريعة الإسلامية، لذلك فقضية الشريعة لا تشغلنى، ولكن يشغلنى أن يقال إذا رأت الأغلبية صلاحها فى الشريعة أقول لها لا.. لماذا

لا أقول للأغلبية الأمريكية لا تطبقوا القانون الأمريكى وأريد تطبيق شريعتى الإسلامية مع العلم بأن احنا هنا نحترم عقائد الآخرين فى الأحوال الشخصية.

سيد القمنى : الأمثلة التى ضربتها يا د. أبوالمجد حول الشعوب الأخرى ونظمها وقوانينها، هذه فى النهاية قوانين إنسانية أى أن الذى يحكم باسمها لا يقول أن كلامى مطلقا وحكمى نهائيا وأنه لا يدخلها الباطل، هنا أستطيع أن أدحض ما قاله وأضع صوتى بالرفض أو التأييد فى صندوق الانتخابات وأغير.. الخ، أما فى حالة الشرائع الدينية ومن ستكون مهمته القيام على تنفيذ تلك الشرائع؟ وهل هو وحده الذى يلتقى تفسيره ورأيه مع المقصد الإلهى؟ أم أنه سيعطى فهمه هو لنصوص الشريعة، وهنا سأختلف معه وإذا خالفته كفرنى، ونعود إلى مشكلة الحكم بالحق الإلهى.

د. كمال : ليس فى الإسلام السنن على الأقل رجال دين ينطقون باسم الحق المطلق. ياد. سيد أنت تتكلم عن مشاكل حقيقية ومشروعة ولا يوجد متحدث واحد باسم الحقيقة وليس هناك اجتهاد فردى بل اجتهاد جماعى.

المشاهد محمد شريف : أطرح السؤال للسادة الأفاضل عن ثلاث عبارات وردت فى كتابات نصر حامد أبوزيد، إذا ردوا عليها أوضحوا لنا حدود الاجتهاد وهى :

١ - أن إعجاز القرآن ليس إلا فى تغلبه على الشعور وسجع الكهان ولكنه ليس معجزا فى ذاته.

٢ - إن القرآن منذ نزل على سيدنا محمد أصبح وجودا بشريا منفصلا عن الوجود الإلهى.

٣ - التصورات الأسطورية المرتبطة بوجود أزلى قديم للنص القرآن فى اللوح المحفوظ فى اللغة العربية مازال فى ثقافتنا.

السؤال هو رأى كل منكم؟ وهل هذا الكلام يدخل فى إطار الاجتهاد أم لا؟

د. كمال : الإجابة عن السؤال الأول أنا أخالف ذلك فإعجاز القرآن ليس فقط فى أنه تفوق على الشعور وسجع الكهان. ومن أحسن ما قيل : إن كلام العرب ثلاث : شعرونثر وقرآن. إنما ليس هنا قضية الإعجاز، سيدى هى قضية قرآن نزل فى ٢٣ سنة يعالج مسائل

الحرب والسلام والزواج والطلاق والأسرة والبيع ويجمع هذا كله ولا يكذب - ومن أحسن ما قرأت أكثر أشياء إعجاز في القرآن شريعة القرآن . محمد ﷺ حل مشكلته أنه كان يوحى إليه إنما هذا القرآن إن كان من عنده لكانت المشكلة أكبر ولعبده الناس - السؤال الثاني - إن النص إذا وصل إلى الناس انفصل عن مصدره لا يسيدي لأن مصدره إلهي إنما متى يصبح إنسانيا بمعنيين : معنى بعيد ومعنى قريب هو إنسانيا بمعنى أنه يخاطب الإنسانية ويصير إنسانيا بمعنى أن خطاب الناس المتعلق به يصير إنسانيا ، وقال أبو حنيفة علمنا هذا رأى وسؤل هل هذا رأى هو الصواب الذى لاشك فيه قال بل لعله الخطأ الذى لاشك فيه . واليوم حين أقرأ شعر شوقي يظل شعر شوقي هو شعر شوقي ومن عنده مذاق الشعر يشعر ويحس فيقول : لا يقول ذلك هذا الكلام ليس كلام طه حسين العبارة هذه ليست عبارة المتنبى . أنا أعترض على ذلك .

مقدم البرنامج : استراحة ٣ دقائق

د. كمال : فيما يتعلق بالجزئية الثالثة أخالفه أيضا لما قيل (فى لوح محفوظ) وأريد أن أقول كلمة أخوية للدكتور نصر، ود. سيد : نحن شركاء فى القضية فتعالوا لانفسد ذلك، وأن نركز المناقشة على حرية التعبير والحريات السياسية والمدنية، ولاندخل فى القضايا الشائكة، وأقول عن ذلك أنه أساطير - فأشككهم فى دينهم..

- المشاهد أوزجان يشار : أنا أريد أسأل د. كمال عن كتابات د. نصر أبو زيد أليس إعجاز القرآن فى نضه؟ لكل دين ولكل نبي كانت هناك معجزة، فمثلا سيدنا عيسى استطاع أن يحيى الموتى، موسى كان هناك سحرة فكانت عصاه أقوى وأبلغ، كذلك الرسول كان فى مكة شعراء فطاحلة، فكان يجب أن يأتى هذا القرآن معجزا بنضه.. هناك مناظرة حدثت بين الشافعى وابن حنبل فى قضية تارك الصلاة فقال الشافعى يا أحمد أنقول أنه يكفر؟ فقال : نعم، فقال الشافعى : فبماذا يسلم؟ قال : يقول أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فقال الشافعى : الرجل مستجيب لهذا القول لم يتركه، فقال ابن حنبل : يسلم بأن يصلى فقال الشافعى : صلاة الكافر لا تصح؟ فسكت الإمام أحمد. واليوم نأتى لنكفرد. نصر حامد أبو زيد ونحن لانعرف من كفر الرجل؟ وكيف اجتهد؟ ومن الذى وضع تلك المحاكمة له؟ وهل تركت له سبل الاستتابة؟ نحن لانفهم ماذا حدث..

نريد من د. كمال لأننا نثق به وبعلمه أن يعقب على هاتين النقطتين.

د. كمال : لأمانة العلم أقول أنى قرأت كتب د. سيد محمود القمنى ولم أقرأ سوى كتاب واحد للدكتور نصر أبوزيد وأنا ماكفرته بل يجب الإفصاح للناس ليقولوا ونخطئ هؤلاء ونرد عليهم، كما أعلم أن د. عمارة رد، ولا أقول لمن يقول : أنا مسلم : أنت لست مسلم، على أضعف الإيمان نمحه فرصة كافية ليدافع عن نفسه ويعرض رأيه. إنما أنا سأرد على عبارة أوردها الأستاذ عماد أخذاً من كتابه، أنا لأوافق على العبارة وليس لى شأن بالدكتور نصر أكثر من ذلك..

فالإعجاز القرآنى كان طبيعياً بعد بلوغ البشرية نضجها، فكانت مشكلة عقلية فيما جاء فيه وفيما لفت إليه من آثاره، أما السنة الكونية فهي دليل على قدرة الله فى كل لحظة لذلك تذكير القرآن بالسنة الكونية أكثر من تذكيره بالمعجزات وحين سألوا الرسول ﷺ أنه يعمل كذا وكذا قال سبحان الله ما كنت إلا بشراً، فبشريته ونبوته حاضرتان ودعوته عقلية ومنهجية ليس غيبياً. وحين سلك الناس مسلكاً غيبياً وقالوا : الشمس خسفت بموت إبراهيم ابنه قال يا أيها الناس أربعوا على أنفسكم إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان بموت أحد أو حياة أحد، المنهج عقلى فى إطار الإيمان بالوحي المنزل.

سيد القمنى : مطلوب منى التعقيب على محمد شريف فى ثلاث عبارات للدكتور نصر : بالنسبة العبارة الأولى لا أتصورها قالها كما وردت الآن عند المشاهد الكريم والكتاب ليس أمامى للتأكد، لكن إعجاز فى القرآن الكريم من وجهة نظرى فى تفاعله مع الواقع وأخذه وعطائه معه واستجاباته لمتغيرات الواقع خلال عمر الوحي الذى وصل إلى ٢٣ عاماً، ولم ينزل دفعة واحدة كتلة واحدة. وهو بذلك يعطى درساً للمؤمنين به أنه مع تغير الأحوال.. أنتم خلافة الله فى الأرض والنبى المصطفى صاحب الدعوة هو آخر النبوات وختامها وأنه لن يكون هناك تدخل بشكل مباشر بأنبياء آخر مرة أخرى، فقد بدأ عصر العقل، عصر الإنسان حتى تستحق البشرية الخلافة وتبدأ فى الاجتهاد.

د. كمال : أنا أوافق على هذا الكلام الذى قاله الآن د. سيد ..

- سيد القمنى : الأمر الثانى مسألة أن النص القرآنى أصبح له وجود بشرى بمجرد ما تمثّل فى الواقع، حقيقة أنا فهمت عند الأستاذ نصر حامد وأنا أقرأ له ذلك وربما أكون

مصيباً أو مخطئاً لكن هذا فهمي أن هذا الخطاب القرآني قد نُطق فسيولوجياً بآلة إنسانية، بمعنى أن هذه الآلة التي هي اللسان وهي السمع وهي الأحبال الصوتية وهي الحنجرة. هذه أجهزة إنسانية بشرية نقل نص اللفظ القرآني القدس على لسان المصطفى صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام إلى المسلمين بلسانه ثانياً، ثم إنه تفاعل بلغة بشرية مع واقع أيضاً كان بشرياً، مثل تفاعله مع الحضارات مع الفرعون مع جالوت مع طالوت مع النبي صالح هذه كلها أحداث أرضية. أظن أن الدكتور نصر أبو زيد يقصد هذا المعنى أنه قد تأنسن أى أصبح نصاً إنسانياً يمكننا التعامل معه باحترام لكن بلا رهبة لاتجعلنا في موقع التعامل العلمى الصادق معه.

النقطة الثالثة – وسأترك د. كمال يعقب - التصورات عن اللوح المحفوظ أو التصورات أن القرآن الكريم فى لوح أزلى.. أظن د. نصر وضع يده على مسألة محورية لسبب بسيط كيف يمكن الجمع - وهذا التناقض التأسيسى الذى أشير إليه طول الوقت كيف يمكن الجمع ما بين القول إن هذا القرآن الكريم كان كتاباً فى اللوح المحفوظ من الأزل هكذا، وبين أنه جاء مفروقاً ومنجماً ليقراً على الناس على مهل وعلى مكث حسبما تتطلب حالات المتغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى الواقع، أو كيف أفهم أنه كان فى اللوح المحفوظ وهناك خطاب يقول (ولما قضى زيد منها وطراً زوجناكها) هذا حدث آنى، حدث زمن صاحب الدعوة، فكيف يكون أزلانياً؟

د. كمال : الإلهيات الخوض فيها فى ندوة أنا غير مستريح إليها ، ولكن ياسيدى أنت تعلم أن مقتضى كمال العلم أن يحيط الله بالأمر والزمان الوجودى الحاضر والماضى والمستقبل . هذا حد من حدود المعرفة الإنسانية ، أما فى كمال الله فالحاضر والماضى والمستقبل على خط أفقى ومقتضى كمال العلم وإلا وصلنا إلى قوله تعالى (الآن خفف الله عنكم وعلم أن فىكم ضعفاً) يعنى أنه لم يكن عالماً بهذا الضعف من قبل؟! هذه أمور يغذيها ولايتنديها، إنما كمال العلم أنه كامل كله فى العلم الإلهي.

مقدم البرنامج : تعتقد أن هناك خطأ فى أن يتعامل المفكر أو الباحث مع النص على أن واضح هذا النص هو مفكر مثله بنفس قدراته العقلية.

د. كمال : لم أقصد أن الدكتور سيد يقول هذا إنما هو يتحدث عن قدسية النص وهو

فيصل بين الإيمان ومتركه، إن هذا القرآن كلام الله.

مقدم البرنامج : أريد أن أسألكم سؤالاً بسيطاً.

إذا لم تكن قضية التفريق قد حدثت لدكتور نصر يمكن لم يكن أحد عرف شيئاً عن كتب د. نصر السؤال هل هذه قضية شارع إسلامي أو شارع عربي؟

د. كمال : جزء منها قضية شارع إسلامي أشار إليه د. سيد.

وكما قلت في أول حديثي الأمة هي القضية وليس مثقفياً.. النقطة التي عرض لها د. سيد ونريد مناقشتها بهدوء وهي مسألة الاجتهاد مع نص، فإنه فعلاً بعض الناس فهم النص على أنه الدليل الجزئي هذا الجانب العلمي فلو أخذنا المقولة هذه على إطلاقها.. التفسير الغي، التأويل الغي، الفقه الغي وكى يكون المشاهدون معنا. نابليون بونابرت سنة ١٨٠٤ وضع القانون نابليون فيما لا يزيد على هذا الكتاب (يشير إلى كتاب صغير) ولم تمض سنوات إلا وكبار الفقهاء للقانون الفرنسي ألفوا كتباً بالعشرين والخمسة وعشرين جزءاً. إخواننا المالكية في العالم الإسلامي يعلمون أن متن خليل لا يزيد على هذا (يشير إلى نفس الكتاب) ولكن لنرى شرح الدرديري على متن خليل وحججه ليرى المذهب الشيرازي على المجموع للنووي. إذا العلم واسع.. وأنا أقول استحلال علمي لماذا؟ أنا لأمارس الطب أو القانون إلا إذا كانت معي شهادة تقرر ذلك.. اليوم كى أجتهد فى الفقه لابد من معرفة أصول الفقه.. كلمة النص عند الأصوليين تشير إلى النص الذى لها عبارات لاتحتمل التأويل الواضح الدلالة بشكل قطعى.. هذا هو الذى لاجتهاد معه والمساحة كبرى بعد ذلك للاجتهاد . نحن نعيش فى ظل دستور ولكن الدستور هو مانقرر نحن أنه كذلك، ونفسر كبشر أصنافاً من عصره ومن فقهه وأضاف من مزاجه ومن ضيق صدره أو اتساعه إنما أنت بعد النص وليس معه.

مقدم البرنامج : من الذى على الخط الدكتور عمر الفاروق من قطر.. اتفضل

المشاهد عمر الفاروق : اسمح لى أن أقول نقاطاً سريعة وأذيلها بسؤال:

١ - قضية الاجتهاد لا اعتقد أنها عويصة إلى هذا الحد بقدر ما هي واضحة ومحددة ومقدورة من قبل الله سبحانه وتعالى إن الله حدد الحدود التى لاينبغي أن نتعدها ثم أطلق

حرية الاجتهاد المحسوبة فى غير ذلك، بمعنى أن الله سبحانه وتعالى قال ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ ونعطى لك مثالا على الاجتهاد المشروع فى أول آيات القرآن الكريم.. بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الهم ذلك الكتاب لا ريب فيه﴾ وأنا لدى كتاب فى هذا الشأن.. يقول (ألم) أيها الإنسان أنت مقدور الفكر لأنك لاتستطيع أن تفسر هذه الحروف الثلاثة، إذا إياك أن تشك فى كل القادم. يعنى الإنسان على إطلاقه يا أستاذ عماد لا يصل إلى القناعة إلا إذا جرب الشيء، فربنا أطلق تجريب الأشياء إلا القرآن الكريم إلا فى حدود ما أباح الله.

٢ - إن بعض الذين بلغوا درجات علمية عالية ظنوا أنهم كبار وبدأوا يشككون فى بعض قضايا الدين.

٣ - يوجد البعض ممن يعتبرون التدين تخلفاً فى العصر الحالى.

٤ - من أهم شروط المجتهد موجبة الاتجاه، والقدرة على التفكير، ولا أقول التفكير، لأن الكل يفكر والله سبحانه وتعالى خص أولى الألباب بهذا التفكير فى القرآن الكريم.

٥ - لا يصح أن نجعل من بعض الخارجين على حدود الله مدرسة فكرية مناهضة أو مقابلة للإرث الفكرى كله، وأعتقد أنى أتفق فى ذلك مع د. كمال أبو المجد.

٦ - لو كان الإسلام قد منع الاجتهاد فكيف كان أبرز العلماء هم الفقهاء فى نفس الوقت؟

٧ - كيف نسى الخارجون على حدود الله أنهم أنفسهم محدودى القدرة وكيف يجترئون على من منحهم نعمة العقل.

٨ - صلاحية القرآن لكل عصر وزمان ليس معناها توظيف النص القرآنى كما نهوى ولكن معناها أن خصائص البشر العامة هى على مر العصور والمثل الرومانى يقول (للاجديد تحت الشمس) بهذا المعنى.

٩ - قد يكون هناك خلط بين الاجتهاد فى النص والرغبة فى الأخذ بأسباب العلم بهدف التناول لدى البعض واسمح لى أقول تنظير بسيط لهؤلاء - يجب النظر إلى العلم والدين فى أمور ثلاثة الكنهة والتوجه .. و..

سؤالى إلى الدكتور أبو المجد والدكتور سيد هو:

هل يجب أن نناقش الخارجين من وجهة نظرنا على حدود الله تحت ما يسمى بحرية إطلاق الفكر؟ نشكركم ونتمنى التوفيق لكم جميعاً..

مقدم البرنامج : هو هنا بس فكرة الخارجين على حدود الله هنا حكم مسبق لكن حتى حكم الشرع فيما يخرج عن حدود الله؟

أريد سؤالك هذا السؤال حتى إذا وصلنا إلى السقف الذى وصل إليه الأستاذ عمر الفاروق.

- د. كمال : نحن أمانا فى العالم الإسلامى خطران خطر الجمود وخطر الانفلات، وأنا لايشغلنى الانفلات بقدر مايشغلنى الجمود فالجمود يقتل حتى فرصة التصحيح.

- سيد القمنى : الحقيقة أن الكلام الذى يقوله الأستاذ أبوالمجد هو أمر عظيم، أن نجد اليوم فى ظل ما يسمى مدرسة تقليدية هذا النزوع إلى الحريات لأن أزمنا بالفعل أزمة الحريات لأن العلم والتقدم لايتزعزع ولاينمو إلا فى بيئة حرة تماما، وهذا ماجرنا إلى موضوع الاجتهاد لأنه بدون وجود اجتهاد حقيقى مستمر فهذا يؤثر على حريتنا.

وكنت أتحدث فيما قال الأستاذ عمر الفاروق، هل يجب أن نناقش الخارجين على حدود الله وأنا لأناقش ذلك لسبب بسيط أنه من سيحدد من هم الخارجون على حدود الله؟ ومن سيقول كلمته فى هذا الأمر؟ هذا أمر لا يناقش، أنا عندى استعداد أناقش الجميع لكن فقط. ماتوقفت معه أنه يقول إن المناهضين، لا يصح وضعهم تحت مسمى مدرسة، هم ليسوا مناهضين أنا رجل أطرح تساؤلات وأحاول أن أصل إلى إجابة شافية ترضى ضميرى الإيمانى وتريح علاقتى بالواقع المتحرك المتغير، وكيف يمكن أن أؤدى دورى فيه بنجاح، بالتالى هذه دعوة تذكركنا بقول الجاهلين (هذا ما وجدنا عليه آباءنا) وطالما هناك ناس، والأمة كلها قالت، فمن أنت؟ ونحن سمعنا بهذا المعنى مكالمات تليفونية فى الحلقة الماضية يوم ٣ وكان فيه ناس محتجة فقط على (أنت من؟) أنت ماهى مؤهلاتك.. مؤهلاته أنه مسلم وأنه يريد أن يطمئن إلى طوية فؤاده، وأن يطرح أسئلة بدون تحرج، فمادام فى الأمة رجال.. و..

مقدم البرنامج : أريد من حضرتك الإجابة عن سؤالى : (إذا اجتهد وأخطأ فى اجتهاده؟،

سيد القمنى : فليجتهد وليخطئ..

مقدم البرنامج : ماهو الرد على هذا الخطأ.. هل هناك عقاب له.. يادكتور أبوالمجد
كيفية التعلل مع من يجتهد ويخطئ؟

د. كمال : الأمة فى حيرة والقضايا كثيرة وأريد المناقشة فى القضايا العملية والاجتهاد حين يكون إيجابياً يكون علمياً، ولابد أدواته تتجمع كيف يكون الاجتهاد دون توفر آلة الاجتهاد فى خصوصية معرفة الواقع، وبالتالي نحتاج إلى اجتهاد، إنما حين نتعرض إلى قضية نقل الأعضاء لا يستطيع فقيه لوحده الإفتاء فيها. إنما يحتاج الأمر إلى مجامع علمية حين ذاك يؤخذ رأيها مأخذ الجد - الإمام الشافعى كان له مذهب فى العراق وحين جاء مصر غير فى مذهبه مع أن أصوله لم تتغير، وأدوات الاجتهاد هى ثلاث وصفها ابن القيم الجوزى بأنها معرفة الحق ويعرف تفسيرها والناسخ والمنسوخ والواقع ، وكى تتم هذه العملية نريد اجتهاداً جماعياً لتطمئن الأمة ، ويجب على المجتهد العلم بأوضاع المسلمين وأوضاع الطبقات الاجتماعية وحاجات الناس.

مقدم البرنامج : كى أكون صريحاً معك.. الأسبوع الذى تلى مذبةحة الأقصى الأخيرة ودخول القوات الإسرائيلية داخل الأقصى، كانت خطبة فى مسجد ما منقولة بالأقمار الصناعية رآها العالم كله، كانت عن المرأة الحائض والحيض ، أتريد القول لى حضرتك أن هذا هو متابعة العصر؟

د. كمال : هذا سخر فى الاختيار وخلل فى التفكير وانصراف عما يشغل الأمة ويسىء إلى وجه الإسلام ، ويؤكد أنه لافقه بغير فقهاء، ولافقهاء بغير مؤسسات، ولا مؤسسات بغير برامج تعليمية متقدمة، لأن العلماء ياسيدى يحتاجون إلى علم، لابد من أن نأخذ الأمر مأخذ الجد. هذا الذى يجرى نوعاً من الهزل.

مقدم البرنامج : معنا مشاهد من القاهرة يتفضل..

المشاهد : أنا متابع للبرنامج لكن لا أعتقد أن أحداً لا يقف أمام حرية الاجتهاد أو حرية الرأى إلا فى شىء محرم نهائياً الجدل فيه وهى الرسالة والأشياء الثابتة، والجدل فى الأمور الدنيوية ولا أعتقد أن المشكلة هى تطبيق زوجة د. نصر منه هذه ليست المشكلة - المشكلة

فى التعدى كما قال الأساتذة - مشكلة التعدى على كتاب الله . الرسالة لاجدال بها والله قال فى كتابه ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا﴾.

د. كمال : ﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم﴾.
المشاهد: الاجتهاد فيما هو دنيوى وأعتقد أن كثيرين تكلموا وأنا آخذ على الدكتور سيد تبسطه الشديد؟ وهو أعلم منى فى هذه الأمور.

د. كمال : لاتعقيب .. هى القضية ليست قضية نصر، بل قضية حدود الاجتهاد، وأنا معك فى أن كتاب الله ينبغى أن يكون لنا منه موقف مختلف دون أن يعنى ذلك أن نخوض فى التفسير - من أحسن ماسمعته من (إن مثل الذين يقرأون القرآن وهم لا يعرفون تفسيره كمثل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلا فتداخلتهم روعه وهم لا يدرون مافى الكتاب، ومثل الذى يعرف التفسير كمثل رجل جاءهم بمصباح فقرأوا مافى الكتاب). فتفسير العلماء مبنى على أسباب النزول وقواعد اللغة بغض النظر عن عموم اللفظ. والناسخ والمنسوخ والفقه إلخ من أدوات الاجتهاد، وتلقى أضواء كثيرة دون أن يمس بالقرآن الكريم إنما يضيف إلى قدسيته قدسية، وكان ابن تيمية يبحث عن التفسير حين مات مسجون فى قلعة دمشق كان فى هذه الفترة مشغول فى التفسير وكان يتقلب على جنبه ويقول يا معلم إبراهيم علمنى.

سيد القمنى : أريد التعقيب على نقطة صغيرة هى - الحرام والحلال هذه قضية بينها نترجى كالزئبق طول الوقت، لأحد يمكنه الإمساك بنا ولانحن نستطيع الإمساك بحقيقة : أتصور أن نقل الأمر إلى مستوى الصواب والخطأ العقلى والعملى فيما يتعلق بمصالح البلاد والعباد يكون هو الأجدى، وبذلك نتقل من حالة الخلاف فى رأى الدينى الفقهى عندما نحول مادة المقدس للدرس، ليس بمنطق الحلال والحرام بل الصواب والخطأ ممكن أن ينقلنا هذا إلى مستوى العلم، والعلم لا يختلف حوله إنما رأى هو ما يختلف بشأنه..

مقدم البرنامج : دكتور كمال أشكرك على علمك وعلى وقتك ود. سيد أشكرك على جهدك ووقتك.

(إنتهى وقت البرنامج)

قصيدة
الخنزير
نمونه



● أسطورة الدم ● قراءة للوضع المجتمعي للمرأة في عقائد الشرق الأوسط

قصة الخلق نموذجاً*

توطئة :

لأن تطور المجتمع البشرى لم يصل بعد إلى الوضع الإنساني المرجو، اللائق بكرامة الإنسان بحسبانه الكائن الأرقى في الكون جميعاً. فإن الظرف الاجتماعي لم يزل حتى الآن يسوغ القسمة العنصرية بين الناس، وأبرز نماذج تلك القسمة التي تشكل وصمة عار كبرى في جبين الإنسانية، ذلك الذي حدث عندما استولى الذكور على مقدرات المجتمع، وتمت إزاحة الأنثى من البؤرة إلى الهامش. وتأسس المجتمع الذكوري الأمثل الذي أسس لأشبع أنواع التفرقة العنصرية داخل الجسد الواحد، فقسمة نوعين رجلا وامرأة، وفرت بين طرفي حياة لا تكتمل دون التقائهما إنسانياً قبل التقائهما جسدياً .

وفي مجتمعات الشرق الأوسط حيث نشأت ثقافات وتطورت أخرى وتلاقحت ثالثة حتى وقفت عند الثقافة الإسلامية، تتعزى المرأة كل يوم بالصبر والسلوان الفقهي، وتبلسم جراحها بخطب منبرية تؤكد لها أنها في مكان الصدارة والتكريم بين نساء العالمين. تتعزى صبراً في عالم الأرض وصبراً في عالم السماء، في الدنيا الفانية وفي الآخرة الباقية .

وإن أحسنت المرأة المسلمة إيمانها وأحصنت فرجها وأمتعت سيدها الذكر وأطاعته، دخلت يوم الدينونة إلى عالم الخلد خالدة أبداً، لكن في خدمة السيد الذكر مرة أخرى ومن أجل متعته، وضمن حريمه في جنة رضوان اللائي يصل عددهن إلى المئات وربما الألوف في أحاديث منسوبة لنبي الإسلام.

وإن تلك المنحة الخالدة لا تتم إلا بإيمان، رأسه وقمته طاعة الرجل الكاملة والخضوع له والتسليم لسيادته في الدنيا الفانية، لتضمن لنفسها بذلك مكاناً بين حريم الجنة في الآخرة الباقية.

وحتى نصل إلى هذه المرحلة علينا العودة نحو المبتدأ، إلى المجتمع البشرى وهو يصوغ أول تشكيلاته الابتدائية، نحاول أن نمارس قراءة معدولة لثقافة مقلوبة، قراءة غير معتادة لأوضاع معتادة بل ومقدسة وثابتة لا تقبل تبديلا فيما يرى سدنتها المنتفعون ببقائها.

١ - التجمعات الصحراوية والتجمعات النهرية :

فى فنون العصر الحجري القديم يمكنك أن تلاحظ أن تماثيل النساء وبقية النقوش التى تحمل دلالات أنثوية أكثر بما لا يقاس بالنسبة إلى الفنون التى تحمل دلالات ذكرية، أما قبل ذلك، وفى فجر حقب البلايستوسين الأول فلن تجد مهما بحثت سوى تماثيل للإناث ولا وجود تقريبا لأية فنون ذات دلالة ذكورية.

وحول تلك الحقبة الزمنية نقرأ الأنثروبولوجية الأمريكية (جيكيتاهوكس) وهى تؤكد أن أقدم التماثيل التى شكلها الإنسان للتعبد أمامها، تلك التى تمثل إناثا من البشر ضخمت فيهن الأعضاء المثيرة جنسيا، كالأنثاء والأرداف والفروج، وأطلقت (هوكس) على تلك التماثيل اصطلاح «فينوس الولادة»، أى (التى تلد) - وصيغتها الأولى هى (الولادة). وترى (هوكس) أنه قد تلى هذا العصر مرحلة متوسطة قصيرة الأمد بدأت تظهر فيها رسوم تتسم بالذكورة فى تناثر لم يخل بالانتشار الهائل للتماثيل الأنثوية. وبعد تلك المرحلة المتوسطة تمت العودة الكاسحة مرة أخرى إلى تفرد تماثيل الرباب الولادات بالمساحة كلها، وهو الزمن الذى ترافق مع اكتشاف الزراعة فى العصر الحجري الحديث، هذا مع العلم أن أقدم تماثيل الإلهات الولادات التى عثرنا عليها يعود إلى ما قبل خمسة عشر ألف عام من الآن. وتم افتراض أنها أول تمثيل تخيلى للألوهة بحسبان الدلالات التى كانت تحيط بتلك التماثيل كالزهور والثمار اليابسة والمحروقة أحيانا التى تشير إلى قرابين نباتية كانت تقدم لتلك الإلهات على محاريبها^(١).

وعلىنا أن نلاحظ أن زمن أقدم تلك التماثيل (خمسة عشر ألف عام) قد جاء بعد تراجع عصر الجليد بعشرة آلاف عام أخرى، وخلال تلك الخمسة وعشرين ألف عام حدثت تحولات كبرى فى البيئة الطبيعية ألقت بظلال متغيراتها على المجتمع الإنسانى وهو يتشكل، وهى المرحلة التى تحتاج إلى وقفة قصيرة نلاحظ خلالها نتائج الجدل الذى

حدث بين متغيرات الطبيعة والإنسان، وأثر ذلك فى تشكيل نماذجه الاجتماعية الأولى وتطورها مع تلك المتغيرات.

والمعلوم أنه بعد انحسار عصر الجليد الأخير تقاسمت الأرض حالتان طبيعيتان : الأولى يمكن تمييزها فى تجمع شرايين الماء فى أنهار بعد استقرار أوضاع القشرة الأرضية، والثانية وضحت فى تصحّر مطرد فى مناطق أخرى أدى إلى خفوت صوت الحياة ونبضها تدريجياً، مع تناثر بقايا تلك الحياة حول عيون الماء والبرك المتباعدة. ومع التصحر المتزايد وجدت الجماعة المشاعية الأولى - ذات النظام الأمومى - نفسها بإزاء متغير طبيعى قاس شحيح بمطالب الحياة. وهو الأمر الذى أدى بالضرورة إلى تفكيك بنية ذلك المشاع تبعاً للتفكيك الحادث فى الطبيعة، وهو ما أدى بالتجمعات البشرية إلى وحدات اجتماعية أصغر وأكثر قدرة على الاستمرار والديمومة، لأن التجمع الكبير كان يعنى الهلاك جوعاً، أو الهلاك قتلاً بافتراض أنه لابد قد صاحب شح الطبيعة صراع عظيم على بقاياها الهزيلة، وهو الصراع الذى أكمل إغلاق الدائرة بمزيد من التفكيك والانتشار المتباعد للتجمعات البشرية فى أشكال قبلية أولى.

وإعمالاً لهذه الرؤية التأملية وجد الإنسان نفسه فى بيئته المتصحرة أمام أحد خيارين : إما الموت جوعاً، أو تدجين الحيوانات التى عاشت بدورها بجواره، بجوار الماء. ومن هنا حتمت البيئة على البدوى اعتماداً شبه كامل على الحيوان ومنتجاته لمعاشه، فكان يأكل لحمة ويتغذى بلبنه ويلبس صوفه ومن ذات الصوف يحيك خيامه وعليه يحمل أسفاره عند الانتقال من موضع ناضب إلى موضع أكثر فيثاً.

وتتابعت سلسلة النتائج المترتبة على المقدمات، حين وجدت الجماعة المتبدية نفسها وهى تتحرك بحاجة إلى ما يحفظ لها تماسكها وقوتها وقدرتها على الاستمرار، فارتبطت بروابط الدم وبالحيوان المدجن المعتمد لحياتها، وبدأت الطواطم تعبر عن تلك الرابطة كحاجة ضرورية لتنظيم يضمن للقبيلة الأمان من الشرود أو النفوق أو الموت، وكانت المصلحة مشتركة، لأن الحيوان وجد أمانه فى الالتحام بالقبيلة لتأمين حياته من الضواري ومن الجوع، وأصبح الحيوان الطوطم رمزاً للعلاقة المتينة بين أعضاء القبيلة فأصبح أبا للجميع بمعنى السلف الرمزي، فى زمن لم يكن يعرف دور الرجال فى عملية الولادة.

وفى مجتمع قاس بليد تكون الحاجة أشد إلى القوة العضلية التى توافرت للرجال، وكان ظرف المرأة والحمل والولادة لا يضعها فى موضع الحاجة العضلية والمجهود الشاق الذى قام به الرجال، ومن هنا كان ضروريا أن يتحول المجتمع الذى عاش زمناً حياة المشاع قبل انحسار الجليد، من مجتمع أمومى النظام إلى مجتمع ذكورى، وساعد على هذا التطور الجديد امتلاك الذكور للأساس الاقتصادى المتمثل فى ترويض الحيوان أو مصارعته، فى مجتمع لا يعرف سوى منطق القوة الغشوم، وهى مفتاح ومفصل المسافة بين الحياة والموت. كما أن الصراع الذى نشب لاشك بين القبائل البشرية حول مواطن الحياة فى الصحارى، قد ساعد على تثبيت مركز الذكور السيادة بما يملكونه من مهارات عضلية. وانهار وضع المرأة الابتدائى وفقدت قيمتها الاجتماعية فى مجتمع الندرة الصحراوى، واقتصرت وظيفتها على إنجاب المزيد من الذكور، وأصبح إنجاب الإناث عبثاً يضاف لكاهل الجماعة فهى تحتاج للحماية والطعام، وحدثنا التاريخ القريب عن حل هذه المشكلة عشية الإسلام بوأد البنات أحياء.

وتدنت فى المجتمع البدوى مستويات الإنتاج إلى حد كاد فيه المجتمع البدوى يعتمد اعتماداً شبه كامل على الطبيعة، بالسعى الدائب وراء الكلاً وآبار المياه والغزو وسلب خيرات الجماعات الأخرى، أو تطفله الدائم على متوج العمل عند الطرف الآخر فى المناطق الخصبة النهرية، التى اتخذت خط تطور آخر وأشكالاً اجتماعية أخرى.

وعلى مستوى العقائد فإن الطبيعة المتصحرة الشحيحة الضئيلة بأشكال الحياة، جعلت البدوى أحادى النظرة وأحادى الاعتقاد والنظام. فقبيلته كلٌّ فى واحد يتماهى مع الطوطم الأب السلف الأول، وعادة ما تمثل الطوطم فى الحيوانات النافعة، لذلك غالباً ما قدس البدوى مختلف أنواع الشياة والسوائم ذات القرون. لذلك كان السلف المقدس ذا قرنين دوماً وهورب القبيلة الأوحده، وهو أفضل من أرباب القبائل الأخرى، وهو الوطن لأنه مع الانتقال الرعوى لا يوجد وطن، لذلك يتحدث البدوى عن الحمى وليس عن الوطن، ذلك السور الوهمى الاعتقادى الذى يحيط بالقبيلة ويتحرك معها أينما تحركت أو حلت أو ارتحلت.

ومن هنا لم تسمح الظروف بنشوء أنظمة مركزية توحد القبائل المتصارعة فظلت على

شتاتها وتشردمها، مع تعبد كل قبيلة لإله خاص هو الوطن وهو النسب وهو الجد البعيد وهو الحمى، وهو واحد فقط وليس أكثر ولا يمكن أن يتعدد، لأنه الضامن الوحيد ل تماسك القبيلة اللزج ومصدر أمنها بانصهارها فيه، وكان طبيعياً أن يكون هذا السيد الرب ذكراً، لتعبر الفكرة عن قمة سيادة ذكورية أحادية، لكن الناظر من بعيد سيرى عدداً هائلاً من الأرباب تتعدد بتعدد أسلاف وطواطم مختلف القبائل.

هذا بينما على الطرف الآخر مع انزياح عصر الجليد الأخير، فى مناطق الخصب النهرية، كان استقرار الأنهار فى مجاريها بشكل نهائى قد استغرق زمناً غير قصير، وسمح بوجود بيئة شبيهة بحال ما قبل انحسار الجليد، فامتد الشكل المجتمعى القديم، (من النظام الأمومى) مدة أطول فى المجتمعات النهرية، فقد استمر انتشار الأحراش والبرك والمستنقعات والغابات مما أطال عمر المشاع الأول عن رفيقه على الجانب الصحراوى. وكان استمرار الأوضاع الطبيعية دون تغيير كبير ضماناً لاستمرار مواز لوضع المرأة المتميز الذى أكدته تماثيل الإلهات الولادة، حيث من الصعب تصور جماعة بشرية كل آلهتها نساء، وسادة الجماعة فيها من الذكور، ويرتبط بما نقول هنا السؤال الذى طرحه (داروين) : أيهما كان أولاً: النظام الذكورى أم النظام الأمومى؟ وأجاب داروين عبر المقارنة مع عالم الحيوان، فقال إن السيادة المطلقة كانت للذكر منذ البدء.. وأكمل (آتكسون) الإجابة فقال أنه قد حدث ثورة من الأبناء على الأب القاسى المتوحش المتسلط، فقتلوا الأب وافترسوه سوياً. ويتابع (روبرتسون سميث) رسم سيناريو الأحداث لإضاءة المشهد التاريخى فيؤكد أن النظام الأمومى ظهر إبان تلك الحقبة تحديداً. لينهى (فرويد) استكمال المشهد بناء على ما سبق فيقول وعادت الأوضاع إلى ما كانت عليه أولاً، وساد الذكر مرة أخرى^(٢). هذا بينما كان هناك اقتراح آخر قوى الأسانيد يرى أن النظام الاجتماعى الأول كان أمومياً بلا أدنى شك، كما نرى مثلاً عند (إنجلس)^(٣).

وكان موقف كاتب هذه الورقة هو رفض السؤال نفسه : (أيهما كان أولاً النظام الأمومى أم الأبوى؟) بحسبان الخطأ فى السؤال نفسه ومن هنا كانت التوطئة بالحديث عن شكلى المجتمع الذى تركته انسحابات عصر الجليد الأخير : شكل بدوى وشكل خصبى، فانهى الحدث الطبيعى إلى تمييز يثنتين، وبالتالي تمييز شكلين للتجمع البشرى عن بعضهما رغم

تزامنها في الظاهر كنتاج انحسار الجليد، أى أن الاختلاف كان مكانيا وليس زمانيا، وهو الزعم الذى يحتاج إلى تأييده بقرائن، ستأتى على متن شرح موضوع الورقة المعلن فى عنوانها.

٢ - الزمن الأمومى^(٤) الأول :

إذن انتهى عصر الجليد لترك مجتمعا بدوياً يسرع بالانتقال من العصر الأمومى الأول إلى الأبوى الذكرى، بينما استمر وضع شبيه بالوضع المشاعى فى وديان الأنهار الخصيبة.

وعندما لم تكن هناك قوانين مكتوبة أو حتى متفق عليها، كان المجتمع الابتدائى الأول يعيش بساطة الطبيعة، يتناغم معها ويضبط إيقاعه مع حركاتها، فعاش حالة المشاع الأولى إبان مرحلة جمع الثمار والصيد، دون حاجة إلى تنظيم اجتماعى صارم، وانحصرت حاجاته فى تأمين القوت والأمان من غوائل الطبيعة وضوايرها.

وكان الرجال بحكم التكوين الفسيولوجى هم فى الأغلب القادرون على ممارسة مخاطر الحصول على الطعام البروتينى زمن الصيد، بمطاردة الحيوانات الملائمة واصطيادها إضافة إلى جمع الثمار، بينما كانت المرأة التى تنجب مبكراً جداً مضطرة إلى الاستقرار بجوار أطفالها تحميمهم وترعاهم، وعندما يعود الرجال من الصيد يكون كل الرجال لكل النساء.

ومن هنا وبقوانين البساطة الطبيعية أمكن للمرأة أن تحقق وضعاً اجتماعياً متفوقاً لأسباب معلومة. وقد أهلها لهذا الامتياز قدرتها على الولادة والإنجاب، ومنح حياة جديدة. تلك الظاهرة التى لاشك أبهرت الرجل وجعلته يشعر أن هذا الكائن الذى يبدو أضعف منه بدنياً، يملك إمكانات سحرية عالية. لقد كانت ظاهرة الحمل والولادة مع التناغم الكامل للبشر مع الطبيعة مدعاة لفكرة أولى بسيطة، وهى أن المرأة جزء من ظاهرة الخصب الكونية الولادة، كالأرض التى تنبت المحاصيل والثمار والأنهار. بل إنها الظاهرة الأكثر وضوحاً وقوة لحظة دفع الوليد من البطن إلى الدنيا.

وهكذا تأسست علاقة المرأة بالقوى الطبيعية الخارقة المعطاءة، فحازت أول فروض التقديس والرهبة والاحترام، وحقت وضعاً اجتماعياً أكثر تميزاً من الرجل، أهلها له تناغم

تكوينها وظروفها البيولوجية مع الحاجات الطبيعية للبشر آنذاك، والذين كانوا بحاجة إلى تكاثر أعلى لتحقيق كثرة مجتمعية قادرة على مواجهة غوائل الطبيعة المفاجئة ووحوشها الضارية وفوضاها الدائمة.

وبالتدريج تمكنت المرأة من دعم هذا الوضع المتميز وتنميته، حيث كان بإمكانها وهي مستقرة مع أطفالها أن تلاحظ سقوط الثمار على الأرض ثم عودتها للصحو والإنبات والإثمار مرة أخرى، فأعادت المرأة التجربة فنجحت في اكتشاف الزراعة، تلك الخطوة الأولى التأسيسية نحو قيام مجتمعات إنسانية حقيقية مستقرة.

وعندما عاد الرجال من غيبتهم في صيد الطرائد فاجأتهم المرأة بهذه القدرة الجديدة، وبذلك لم تعد فقط جزءاً من الخصب الكوني القدسي، بل يبدو أنها قادرة على ترويض الطبيعة وجعلها تلد بإرادتها كما تلد هي. ومن هنا أخذت تتحول إلى إلهة كبرى ليست ككل الإلهات والآلهة، لأنها أصبحت ربة الخير والخصب والعطاء والولادة والنور.

وفي ذلك الزمان لم يكن بإمكان الذكر إدراك دور في عملية الحمل والميلاد، فتصور تلك قدرة أنثوية بحتة، فما كان لعينه وهو على مدارج بدائيته يحبو، أن يربط بين الفعل الجنسي وبين فعل الولادة، لأنه أولاً كان الجميع يمارسون الجنس مع الجميع، وهو ما يجعل المرأة يتناوبها أكثر من رجل، وبالتالي ما كان بالإمكان لأحدهم أن يدرك علاقته بالمولود، هذا إضافة إلى المدة الطويلة التي يستغرقها الحمل ما بين فعل الجنس وفعل الولادة، التي لا ريب ساهمت في عدم إدراك الذكر لدوره. كما كان الأطفال يمارسون في تلك الحقب الفعل الجنسي بشكل اعتيادي، ولم يكن ينتج عنه حمل ولا ولادة. وهي جميعاً الأمور الذي أدت بالذكور إلى اليقين أن فعل الولادة اختصاص أنثوي بحت ليس للذكر دور فيه.

وقد عزز هذا الرصيد للأنثى ملاحظة الإنسان لدم الحيض وهو ينزل شهرياً في مواقيت محددة، ثم يختفى مع الحمل ولا يعود إلا مع الولادة، فوضع تصوراً أولياً وهو أن الدم هو مادة الحياة الأولى، وأنه يختفى داخل البطن لأن منه يتشكل الوليد الآتي، بفعل خاص من المرأة وحدها. ودعم الفكرة ملاحظته أن الجروح النازفة عادة ما تؤدي إلى الموت في بيئة كان فيها الجرح هو ذلك المتكرر الدائم، وكان الموت بالتزف يعنى لديه خروج سائل الحياة

(الدم) من الجسد مما يؤدي إلى خموده وفنائه.

وأدت محاولات حفظ الطعام بالمرأة إلى تطوير الأشياء من حولها، وتأملها والتدخل فيها لتؤدي وظائف جديدة فى عمليات تطويع وخلق.. أليست إلهة؛ كانت بداية الحفظ فى وسائل الطبيعة الجاهزة مثل شق ثمرة جوز الهند لتصبح وعاءين، لكن أولى أوانى عثر عليها الباحثون تأخذ شكل الاختراع، كانت تتسم بالطابع الأنثوى الواضح، لأنها جميعاً كانت متكونة كالثدى أو البطن. ومعنى ذلك أن المرأة كانت أول مخترع، بعمل الأوانى الفخارية. وعندما تعرض الطعام المحفوظ للتخمر (وعادة كانت حنطة)، وعاد الرجال من ارتحالات صيدهم ليتناولوا حنطة مخمرة تدور بها الرؤوس، لتحنى إجلالاً لهذا السحر الذى أدى للتأثير المباشر فى الأجساد بمزيد من النشوة الأنثوية.

وإذا كانت (ميد MEAD) قد استتجت ذات الاستنتاجات وانتهت إلى أن مسألة الولادة تحديداً قد أدت إلى الاعتقاد أن النساء قابضات على أسرار الحياة، فإنها وضعت يدها على اللحظة المفصلية لبدء انحدار وضع المرأة المجتمعى وصعود الرجل، وهى لحظة اكتشاف الزراعة، التى أدت إلى استقرار الذكور بجوار النساء انتظاراً لنضوج المحصول، ومع هذا الاستقرار كانت بداية الانزلاق السريع لوضع المرأة^(٥).

كان الانتظار والاستقرار ظرف المرأة الملازم لها انتظاراً للحمل حتى نهايته، ومع اكتشاف الزرع واستقرار الذكر ينتظر بدوره، أدى إلى تدريب الذكر على الملاحظة. وقد لاحظت (هوكس) أن سيادة الذكور النهائية قد اقترنت بقيام القرى الأولى المستقرة، منذ حوالى خمسة آلاف عام من الآن.

وهكذا استبطن الأساس الاقتصادى لوضع المرأة المتميز اجتماعياً بذور سقوطها عن عرش سيادتها، ومتضمناً فى بذور اكتشافها لدورة بذور النبات. فكان استقرار الذكور الذى تواكب مع قطع الغابات والتحصيل وما احتاجه ذلك العمل الجبار من قوى عضلية طورت الكشف التأملى للمرأة، كذلك ما احتاجته الأعمال الجديدة من تدجين لأنواع قوية من حيوانات يمكنها جر الأشجار المقطوعة وحراثة مساحات واسعة وحمل المحصول إلى مخازنه، وهو جميعه ما احتاج دوماً للعضلات فصعد نجم الذكر، الأمر الذى انتهى بتبادل المواضع السيادية. وقد عجل بهذا التبادل هبوط الموجات البدوية المهاجرة المعروفة

بالهجرات السامية على الهلال الخصيب، فى ذات الزمن الذى حددته «هوكس» لقيام القرى المستقرى الكبيرة، فقد بدأت تلك الهجرات قبل حوالى ثلاثة آلاف عام من الميلاد.

٣ - فلسفة الدم (وضع المرأة فى المجتمع الذكورى الأول) :

الملحوظة الجديرة بالاهتمام بصدد الهجرات السامية، إنه بعد هبوطها على الهلال الخصيب (وهو نموذجنا هنا) تلى ذلك توحيد المدن الدول فى أقاليم كبرى ثم فى دولة مركزية واحدة، كان أول مؤسسيها (سرجون الأول الأكادى)، دولة ذكورية كاملة ونموذجية، استمرت الإلهات الإناث فى عالم العقائد بكثافة، لكن بعد دخول عالم الآلهة آلهة ذكور أهمها إله الدولة الحاكمة.

والنقوش التى تركتها لنا فنون الهلال الخصيب تصور الإلهة الأنثى عادة تحمل بيدها حزمة من الحنطة، أو تقف فى حقل حنطة أو تصور الحنطة كنقش على ثوبها. ولنلاحظ أن الحنطة هى أول نبات تم تدجينه وافتتح به عصر الزراعة، مما يفسر لنا تاك النقوش، فالمرأة كانت أول من دجن الحنطة، وأحيانا كان يتم استبدال الحنطة بعرجون البلح والنخلة. ونظن أن كلمة تمر (ثمار النخلة) بدورها تشكل أحفورة لغوية تشير للبدايات الأولى، فالكلمة تمر - فيما نظن كانت الأصل للغوى الذى تم تعميمه على جميع الثمار من بعد.

وحتى اليوم يعد البلح من الثمار المباركة التى تعالج كثيراً من الأوجاع فى تقارير منظومة المنطقة القدسية، فهذا الثمر كذلك فى الإسلام، وفى رؤية الإسلام للمسيحية، فقد أولد الإسلام مريم تحت جذع النخلة، ولا يخفى «وهزى إليك بجذع النخلة» ما فى فعل (الهز) من رمزية واضحة، ترتبط بالثمرة الأولى المقدسة.

ومع الاستقرار لاحظ الرجل دوره فى عملية الحمل والميلاد، واكتشف دوره الذى لا يقل أهمية عن دور الأنهار أو الأمطار للأرض كى تلد، واكتشف أن منيه الذكورى هو ماء الحياة وبدونه لا يمكن الميلاد، فشر بدوره المتعظم وكان لابد أن يرقى سلم الألوهية بدوره، ومن هناك قام يسلب الإلهات الإناث أدوارهن تدريجياً حتى يسود مملكة السماء أيضاً.

والتساؤل عن مزيد من تبرير سر قدسية حبة الحنطة والتمر وارتباطه بالأنثى، نحيله إلى شكل حبة الحنطة ونواة الثمر، إنها فرج صغير يكاد يطابق فرج الأنثى من حيث الشكل، وأنه

كما يروى فرج المرأة بماء الذكر تُروى حبة الحنطة ونواة التمر بالماء فتتفلق عن حياة جديدة. إذن لاحظ الذكر وهو يتأمل أهمية الدم الحيضي حتى اعتبره المادة الخام للحياة وسرها، فتعبد إلى إفروديت الولادة وتعبد إلى تماثيل فى هيئة قضبان ذكرية وفروح أنثوية، عثر عليها أيضاً فى تلك الحقب، كذلك كان لابد أن يقدس ويعظم ويبجل مادة الحياة الأولى والأكثر طهارة من كل المواد (دم الحيض) تحديداً.

ونتذكر أن أول قصة خلق كانت بسيطة بساطة البدايات الأولى، لقد ولدت الإلهة الأم الكبرى كل الكائنات الحية جميعاً كما تلد الأنثى البشرية موالدها. وقد بقى عن تلك القصة ذكريات تمثلها أسطورة (الشعير والنعجة) السومرية، وتقول الأسطورة: إن البشر الأوائل قد خرجوا من تربة الأرض كما يخرج الزرع والدود وبقية صنوف الحياة (ولاتفوت عين مدققة دلالات عنوان الأسطورة، فالنعجة هى رمز أنثى الإنسان الأشهر/ مثلاً قصة داود والتسع وتسعين نعجة / أما الشعير فهو حنطة الأنثى واكتشافها الأول).

لكن بعد الهجرات السامية الكبرى، وقيام دول ذات حكومات تسارعت خطى التحول نحو سيادة الذكر نهائياً فى عالم السماء كما فى عالم الأرض، ونموذجاً لذلك أسطورة من بلاد الرافدين تمت صياغتها مرتين، المرة الأولى زمن الحضارة السومرية القريبة من أيام سيادة الأنثى، لذلك اتسمت بملامح سيادية نسوية واضحة، أما الصياغة الثانية لذات الأسطورة فقد تمت مع قيام أول مملكة كبرى فى الرافدين السامى هى مملكة الأكاديين، ومع الصياغة الجديدة اختفى دور المرأة من عملية الخلق تماماً.

تقول الأسطورة فى صياغتها السومرية أن الإلهة (إينانا) واسمها يعنى (E أى بيت + AN لفظ سيادة = سيدة البيت) كانت تهبط إلى عالم الموتى فى باطن الأرض بشكل دورى كل عام، بتضحية اختيارية تتم وقت الاعتدال الخريفى، حيث يبدأ فصل الجذب بغياها، وهى فى الأسطورة الإلهة الأم الولادة مانحة الحياة، ثم تعود الإلهة إلى سطح الأرض مع الاعتدال الربيعى «فيعود الخروف إلى شاته والثور إلى بقرته والزوج الغاضب إلى بيته»، فعودتها كانت عودة الخصب وفتح الأزاهير، عودة عملية الإخصاب والتوليد والخلق.

ومع دخول البدو الأكاديين وقيام دولة كبرى، تم إدخال تعديلات جوهرية على الأسطورة، فاستبدل اسم (إينانا)، باسم (عشتار) من العشرة والمعاشرة والتعشير (أى

الجماع). لكنها لاتصبح السيدة المستولة عن الخصب حيث يظهر سيد جديد ذكر كان فى الأسطورة السومرية مجرد ذكر خامل الذكر ضمن عديد من عشاق (إينانا) تذكرة بالزمن الأمومى الأول، وتعلو مكانة هذا الذكر (تموز) ، ويصبح هو المستول عن الخصب والحياة، ويحوز لقب (تموز راعى الخراف الطيب)، ويصبح هو رمز النبات الذى يموت فى فصل الجذب ويهبط إلى عالم الموتى عند المنقلب الخريفى، ويعود حيا عند المنقلب الربيعى فتعود بعودته الحياة الأولى للأرض، بل وتبدأ الأنثى تتسم بالشرية لأن الأسطورة الأكديّة جعلتها (المرأة أو عشتار) هى التى تسلمه لزبانية الجحيم فيهبطون بالراعى الطيب إلى عالم الأموات. لقد بدأت من هذه اللحظة سلسلة التبخيسات التى لحقت بالمرأة.

لكن المرأة ظلت تشبث بعالم السماء ولم تتخل عنه بسهولة، عملا بقاعدة استمرار بقاء واستمرار المأثور التقليدى مدة أطول من مدة التغير فى الحضارة المادية. بقيت المرأة تشبث بعالم الألوهية حتى زمن (مريم) فى المسيحية. لكن الملاحظ دوما هو توارىها التدريجى خلف البطل الذكرى، فأصبح الدور الأول فى الأساطير المصرية للإله الذكر (أوزيريس) رب المياه، خاصة أنه قد أصبح أيضاً رباً للزرع والخضرة وهما اختصاص الإلهة (إيزيس)، التى كانت صاحبة الصدارة فى الأصل الأول لأسطورة الزرع المصرية، وفى كنعان أيضاً توارت الإلهة (عنت)، وأخذ دورها فى الهبوط إلى عالم الموتى والعودة ذكرها وسيدها (بعل) الذى أصبح ربا للخصب بدلا من (عنت).

وضمن مابقى من تأثيرات الزمن الأمومى ووصلنا عبر آثار الممالك فى المنطقة، طقس توزع قراءته أنه يعود إلى زمن أمومى خالص، وظل يمارس حتى زمن قيام الدول الكبرى، كان هذا الطقس احتفالية جنسية عمومية هائلة ينسى فيها الجميع أى قرابات بينهم، فى حفل نزوى عظيم يلتقى فيه جميع الرجال بجميع النساء بشكل عشوائى، وكان يمارس فى أيام محددة حول معبد الإلهة عشتار. وكان أشرف الأعمال فى سومر القديمة هو التضحية بالبكارية فى هيكल الربّة الأم الولود المخصة الشبقة مانحة الحياة تذكرة بتلك الأيام الخوالى، أيام كان كل الرجال لكل النساء فى مجتمع أمومى خالص.

وإذا بدأ ذلك الحفل العريبد ممجوجا وفق أذواقنا الأخلاقية اليوم، فإنه لم يكن كذلك فى تلك الأزمنة، بل كان واجبا دينيا وفريضة تقدمها المرأة للربة كى يفشو الخير وتأتى

السنوات السمان، بتحريض القوى الإخصابية فى الطبيعة تأسيسا على مبدأ السحر التشاكلى حيث الشبيه ينتج الشبيه. وليس أدل على جلال هذا الطقوس وشرحه من تلك اللوحة التى عثر عليها فى طرابلس بليديا، منقوشة على عمود مرمرى يعلن أن الشريفة (أورليا آماليا) قد قدمت جسدها قربانا للإلهة، وأنها فى تدينها أصيلة، وما فعلته كان شرفا معلوما فى أسرتها خلفا عن سلف، فقدمت أمها وجدتها القربان ذاته، وأنه قد تم للهيئة الكهنوتية التأكد من ذلك.

ولنلاحظ استمرار التواجد الأنثوى فى العبادة حتى الآن فى العقيدة المسيحية، لأن (مريم) تعتبر أم المسيح الإله الابن من الإله الأب رب السماء، وتستوجب احتفالية خاصة بها تقدسها، لذلك اختصت دون الأقانيم الثلاثة بصوم العذراء، الذى يصوم فيه المسيحى عن كل ما هو حيوانى ويقتصر فى طعامه على النبات وحده، تذكرا لالبس فيها بالمجتمع الأمومى الأول فى البيئة النهرية عندما كان يستغنى عن اللحم معتمدا على الوفرة النباتية، فى منظومة قدسية تسودها أم إلهية مخصبة. ولاننسى التبادل بين الكلمات نبات وبنات. (نبت وبت/ بنى: فى العربية فعل يعنى: يمارس الفعل الجنى).

واللغة عادة تحمل دلالات إحفورية تحمل الخبرة القديمة وما تركته من مفاهيم، فالكلمة قديسة، وتوصف بها السيدة (مريم)، هى فى اللغة العبرية (قديشا) وفى الأكادية (قاديشتو)، وكان لقب المرأة العشارية، التى يتم اصطفاؤها من بين جموع النساء الحاشدة حول معبد (عشتار)، ليلة الحفل النزوى العظيم، لتقوم بدور الإلهة داخل المعبد فى هيكل عشتار، ويقوم الكاهن الأكبر وعادة ما يكون الملك بدور الإله الذكر، ويبدأ الحفل النزوى بإشارة هى بدء المضاجعة بين الملك والمرأة المصطفاه^(٧).

أما بعض سعيادات الحظ فكان أهلوهن يقدمهن طائعات للمعبد لممارسة النزوى القدسى عند الاحتفال الكبير، فإذا أنجبت نُسب الوليد إلى الإله، وتأخذ هى لقب (بتول) فى الاحتفالات الكنعانية، و(بتولتا) فى الحفل النزوى الأكادى، و(بتولا) فى العبرية وتعنى الأنثى غير المتزوجة، لكنها الخصيية الولود فى آن معا^(٨). وغنى عن الذكر أن (مريم) كانت من المنذورات للمعبد اليهودى.

ولأن الخلق بالميلاد فى النظام الأمومى كان يعتمد مادته الأساسية (دم الحيض)، فإن

سيطرة الذكور التامة بعد الغزو البدوى لمناطق الخصب وسيادة النظام الأبوى، كان لابد أن تعيد إنتاج القصة بما يتفق والشكل السىادى الجديد، ولأن مفهوم الدم بات راسخاً، فقد لجأت الأسطورة الذكورية إلى صياغة جديدة وحيلة تتلاءم مع الظرف الجديد، تجاوزت شرط الولادة لأن الذكر لا يلد، وأخذت منحى آخر أعطى الذكر الدور الأساسى، فالآلهة الذكور عندما قرروا خلق البشر احتاجوا إلى مادة الحياة (الدم) فقاموا بذبح إله يدعى (كنجو)، وعجنوا التراب بدمه، ومن هذا العجين تم خلق الإنسان الأول، وهو ما سجلته لنا الملحمة الرافدية (إينوما إيليش) أو (فى العُلى عندما) ^(٩).

أما خلق الكون برمته فقد اعتمد خطأ آخر، تم فيه وصم الأنثى بصفة الشر، حيث احتسبت الأم الإلهة العظمى (تيامه) إلهة شريرة. أزعجت الآلهة الذكور فقام إله الدولة (مردوخ) بمنازلتها وهزيمتها، وهو تعبير واضح عن انتصار النظام الجديد. ثم قام (مردوخ) بشق (تيامه) كما تشق الصدفة إلى قسمين، رفع القسم الأول العلوى وجعله سماء وترك النصف السفلى ليصبح أرضاً ^(١٠).

٤ - وضع المرأة فى قصة الخلق التوراتية :

الكتاب المقدس / العهد القديم منه تحديداً والمصطلح على تسميته باسم التوراة رغم أن التوراة تُطلق فقط على الأسفار الخمسة الأولى معه، كتاب تشكل فى ظل نظام ذكورى تماماً، فهو لا يذكر أو يتعرض للنساء إلا لماماً، ويستحسن فى الغالب عدم ذكرهن، حتى أن التعداد الرسمى لبني إسرائيل فى أكثر من موضع كان لا يضع النساء ضمن التعداد، ومع ذلك فقد بقيت فى المأثور التوراتى مجموعة إشارات تعود إلى ذكريات عن الأصول الأمومية الأولى.

لاحظنا فى التوراة مثلاً أن المعرفة الكشفية ترتبط بالمرأة ارتباطاً وثيقاً، مما يؤكد اعتراف الذكور الابتدائى بالقدرة التأملية والمعرفية الكشفية للمرأة، قياساً على القدرة العضلية للرجل، والتوراة تربط بين المعرفة وبين الفعل الجنسى مع امرأة، فهذا الفعل يدعى لغة (معرفة) فالقول أن فلاناً قد عرف فلانة نعنى أنه قد مارس معها الفعل الجنسى الكامل

المؤدى إلى الولادة ومجىء حياة جديدة، والمصطلح واضح كما فى النصوص :

وعرف قايين امرأته فحبلت وولدت حنوك «تكوين ١٧/٤»

وعرف آدم امرأته أيضا فولدت ابنا ودعت اسمه شيثا «تكوين ٢٥/٤»

وعرف آدم حواء امرأته فحبلت وولدت قايين «تكوين ١/٤»

وكانت معرفة آدم الأولى فى الجنة ناتج عصبانه الأمر الإلهى بعدم أكل ثمرة بعينها، لكن الحية أوعزت لحواء بأكل الثمرة المحرمة، وأوعزت حواء بدورها لزوجها آدم، فأكلها، أوبالنص :

فأخذت من ثرها وأكلت وأعطت رجلها معها

فأكل فانفتحت أعينهما وعلمتا أنهما عريانان فخاط

أوراق تين وصنعا لأنسهما مآزر «تكوين ٣/٦، ٧»

وهذه الشجرة تسميها التوراة (شجرة المعرفة) والثمرة رمز المضاجعة التى تثمر بالولادة، وهو الفعل الذى أدى إلى معرفة آدم أنه عريان ولم يكن يعرف كذلك من قبل، فالقصة ترميز واضح للفعل الجنسى مع حواء ومعها عرف آدم وتعلم، والحية كما هو معلوم فى الأساطير ذات قيمة مزدوجة، فهى من جهة رمز القضيب الذكرى الذى أغوى حواء إبان حالة العرى الأولى، وهى من جانب آخر رمز الخلود، فقد رآها الإنسان الأول تنسلخ من جلودها كل عام فتصور أن ذلك موت ثم حياة جديدة، فهى خالدة بمعنى أنها تولد من جديد كل عام. وكانت ملاحظة تشنجات جسد الحية وهى تنسلخ من جلدها القديم تشبه تماما تشنجات الفرج الأنثوى إبان إنسلاخ الوليد منه لحظة الولادة، لذلك حملت الأنثى بالتشابه فى ظل السيادة الذكرية تلك القيمة الثنائية، فهى فى العبرية حواء، لكن الكلمة حواء حملت فى مفهومها جذر الحياة، ومن جانب آخر ارتبطت بالحية مصدر الأذى والشر. ولنلاحظ الارتباط الجذرى بين حواء وحياة وحية و(حيا : أى فرج الأنثى)، لكن لىتم بعد ذلك إعادة تفسير ذلك المأثور لتبخيس المرأة وليس التذكير بوضعها المتميز، فتصبح هى التى أوعزت لآدم بأكل الثمرة المحرمة فى عالم الخلد، ففقد الرجال بسببها الخلود، وبحيث تتحول المرأة عن منح الحياة إلى سلب الحياة وفقدان الخلود، وعليها يجب أن يقع هذا الوزر إلى الأبد.

ولنعد إلى نصوص التوراة نقرأ ما حدث.

تحكى التوراة أن الله قد خلق ذكراً أسماه آدم، ووضعه فى الجنة حيث عاش وحيداً لا يجد أنيساً يؤنس وحشته. وهنا قرر الرب تسليّة آدم والترويح عنه بخلق كائن يقوم بهذه المهمة، الترويح عن الرجل فقط هذا كان سبب وجود المرأة (!؟) وكان هذا الأنيس هو المرأة التى خلقها الله من أحد أضلاع آدم:

هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى، هذه تدعى امرأة لأنها من امرء أخذت.
«تكوين ٢/ ٢٣»

النص هنا يجعل امرأة تأنيث من امرء وليس العكس، ليظل الرجل أولاً، رغم أن قوانين اللغة السليمة لا تقول كذلك، وتتبع المرأة الرجل فى الخلق فهى جزء من جسده، وفى المسمى اللغوى، لكن بالتوراة نفسها جينات موروثه تشير لأضواء باهتة لزمن قديم، فتعين لتلك المرأة اسماً آخر تعرف سببه وتفسره فتقول:

وداعاً آدم اسم امرأته حواء لأنها أم كل حى

وتفسر لنا العبرية تعبير (أم كل حى) بأنه (تلك السيدة التى تحيى): (!؟)

إن قراءة الأساطير القديمة بحثاً عن اسم (إمرأة) لانجدها تابعة لامرء بل العكس تماماً، فالميم للأومة، ولا تجد إلهة قديمة كبرى يخلو لقبها من ميم الأومة، فأصل الكون البابلى (مى) والأم الإلهة تحمل أحد الألقاب (ما، أماء، ماما، مامى)^(١١)، وكل إلهات الخصب فى حوض المتوسط الشرقى حملن الألقاب (ميرها، ميريا، ميريام، ستيلاماريا، مريم)^(١٢) والميرة هى الزاد، كمكتشفه أولى للزراعة، لأن الميرة عادة تطلق على مخزون الحنطة والبلح تحديداً. أما ميرها فهى شجرة المر المقدسة التى أنجبت الآلهة المذكور.

أما الكلمتان: أنثى وحواء فتضيؤها لنا قصص الخلق الأولى فى الملاحم السومرية والبابلية، حيث تحكى عن مكان كانت تعيش فيه الآلهة خالدة اسمه (ديلمون) ويعادل أوليمب اليونان. وهناك جاء إلى الوجود إله (آن - جى) بداية للبشرية على الأرض، رعيلاً أولاً يجمع اللاهوت مع الناسوت أو الألوهية مع البشرية، واسمه ملصق من مقطعين يشير إلى أنه أول من سكن الأرض فهو (آن = سيد + جى = الأرض - سيد الأرض).

وتحكي الأسطورة أن الأم الإلهة الكبرى الكونية (ماما هورساج) هي التي ولدته، وأنها حرمت عليه ثماراً بعينها في ديلمون حرصاً على حياته، فعصاها بجهله وحبه المعرفى فأكل تلك الثمار، فأصيب بمرض شديد في أحد أضلاعه كاد يقضى عليه.

وهنا أسرع (ماما هورساج) بخلق إلهة أنثى مهمتها تريض ذلك الضلع والعمل على شفائه، وكان اسم هذه الإلهة هو (آن - تي)، وهو اسم مركب من مقطعين (آن) وتعنى السيدة، و(آن) عندما تأتي بحسبانها اسماً فهي تعنى السيدة، و(تي) عندما تأتي بحسبانها اسماً فهي تعنى الضلع (آن تي = سيدة الضلع)، لكن (تي) عندما تأتي بحسبانها فعلاً فإنها تعنى (أحيا) أى يصبح المعنى (السيدة التى تحيى)، أو كما فى التوراة (أم كل حى) (١٣). ثم يلقى الاسم (أنتى) فى الأسطورة الرافدية الضوء على أصل الأسطورة التى حورت فيما نقله المأثور التوراتى عن الأصل الرافدى، لتكون حواء أو (أنتى) مخلوقة من ضلع آدم، أما (أنتى) فواضح تماماً أنها أصل المصطلح (أنثى).

٥ - آخر ملاحم التبخيس المقدس للمرأة :

عندما ظهر المسيح فى وسط يهودى مائة بالمائة لم يزعم أنه قد جاء بجديد، بل أكد أنه ما جاء لينقض الناموس بل جاء ليكمل، ومن هنا سلم بكل التوراة وضمنها قصة الخلق ووضع المرأة فى منظومتها. لكن مقاطعة الجليل التى ظهر فيها المسيح دون بقية المقاطعات الفلسطينية كانت تموج زمن ظهور بعقائد واردة من مصر وفارس تتحدث جميعاً عن آلهة فدائية جاءت وعاشت وماتت وقامت من بعد الموت فى عيد للقيامة مجيد، آلهة أشهرها بعل وأوزيريس وتموز وأدونيس وميتيرا، كلها تعرضت للموت وقامت كما يقوم الريح، لذلك فإن المسيح قدم نفسه من خلال تلك الصيغة الزراعية لكن على أرضية كاملة البداءة عبرية تماماً. ومن هنا حاول المسيح من البدء تأسيس مبادئ خصية، لكن لم يمض على اختفائه عدد من العقود حتى تحولت المسيحية لتفتش خلفيتها البدوية الكاملة مرة أخرى.

لقد كانت الأصول الزراعية أساساً متيناً لوجود مريم على رأس العقيدة المسيحية، مريم

الحكيمة البتول التي تصب منها النعم. نموذجاً واضحاً لبقايا السيادة الأنثوية العارفة المؤلهة. وحتى زمن القديس يوحنا فم الذهب كانت العلامة بالمرأة مصدراً للمعرفة، وأسطورته تحكى أنه كان طفلاً متخلفاً في دراسته فذهب ووقف يصلى أمام تمثال العذراء لتساعده فدبت الحياة فى التمثال وخاطبته العذراء: «يوحنا تعال وقبل شفتى وسوف تحل عليك المعرفة، لاتخف». وبعدها أصبح يوحنا أحكم أهل زمانه حتى لقب بفم الذهب^(١٤).

ورغم أن اليهودية كانت قد حظرت على النساء الصلاة داخل المعبد أو المشاركة فى أعمال الكهنوت، لأنها اقترفت الخطيئة الأولى وأخرجت الذكر من الجنة، ولأنها أصبحت مسئولة عن الشقاء وعن الموت. فإن المسيح قد حرص على إبراز مخالفته، لذلك فكان يحرص على الحديث مع النساء باعتبارهن كائنات بشرية كاملة، بل وأشركهن فى نشاطه التبشيري «على إثر ذلك كان يسير فى كل مدينة وقرية يكرز ويشر بملكوت الله ومعه الإثنى عشر وبعض النساء.. مريم التى تدعى المجدلية.. ويوانا امرأة حوزى وكيل هيرودس وسوسنة، وأخر كثيرات كن يخدمنه من أموالهن / لوقا ٨ / ١ - ٤».

لكن ما كان ممكناً العودة بعد كل هذا السلطان الذكوري الكامل، فراجعت فكرة المساواة التى نادى بها الإنجيل، وتحول الأصل فى الحريات الجنسية وفق المنظومة الخصيية إلى نقيضه تماماً، وذلك بفضل (بولس الرسول) الذى شرع تغطية المسيحية لرأسها أثناء الصلاة، مع إعادة تأكيد موقف التوراة فى قوله لأهل كورنتوس: «ولأن الرجل لم يخلق من أجل المرأة، بل المرأة من أجل الرجل / كورنتوس ١١ / ٩».

وبالغ بولس فى التصويب على سيده المسيح، رغبة فى مزيد من تبخيس المرأة قدسيا فقام ينادى:

أيها النساء: تخضعن لرجالكم كما للرب لأن الرجل هو رأس المرأة كما أن المسيح هو رأس الكنيسة، وهو مخلص الجسد، ولكن كما تخضع الكنيسة للمسيح كذلك النساء لرجالهن فى كل شىء».

(رسالة بولس إلى أفسس ٥ / ٢٢-٢٤).

أما على مستوى المعرفة فقد جاء الأمر من رجل أصبح كلامه مقدساً في قولة شهيرة تعلن
أمراً إلزامياً :

لست آذن للمرأة أن تعلم (!!؟)

ولا تسلط على الرجل، بل تكون في سكوت «رسالة بولس لتيموثاوس ١١/٢»

ويأتى القديس ترتوليان ليعقب على موقف بولس من تجهيل المرأة لأنها بعلمها كانت
تسلط على الرجل، ويوجه الخطاب للمرأة المؤمنة في زمنه يناديهام مفسراً أسباب هذا
الانقلاب التاريخي:

«لا يجوز لك أن تخلعي عن جسمك ثياب الحداد، بل عليك أن ترتدى الأسمال وتغرقى
في الحزن والندم كى تكفرى عن خطيئتك فى دفع الجنس البشرى إلى الهلاك.. إنك
يا امرأة باب الشيطان، فأنت من لمس شجرة الشيطان ومن انتهك فى الأول الناموس
الإلهي» (١٥).

وهكذا، وعلى أصول مغلوبة توراتية، لأصول سومرية أسطورية، صدر الحكم التاريخي
ضد المرأة. وتتابع القديسون المصابون برهاب المرأة أوبالقصور عن التواصل معها، فبالغ
القديس (بيرونيموس) فى رفض العلاقة الجنسية إلى حد اعتبار أن الزواج هو عطية الخطيئة،
وانتهى زمن المشاع واحتفالات الخصب النسوية إلى نقيض صارخ يمجّد العذرية وعدم
الزواج باعتبارها ذات المكان الأعلى فى الجنة المسيحية. يصدر (جراسيانوس) مرسوماً فى
١١٤٠م يقول :

إن صورة الله ماثلة فى الرجل الذى خلق أوحداً، وجعل أصلاً للكائنات البشرية قاطبة.
وقد أعطى من الله السلطة لأن يحكم بوصفه نائبه لأنه صورة الإله الأوحد. ولهذا السبب لم
تخلق المرأة على صورة الرب (١٦).

ولوجود مشكلة فقهية داخل مؤسسة الفكر الدينى المسيحى أدت إلى انقسامه حول
طبيعة (مريم) وهل هى إلهة من الأصل حتى يمكن لبطنها حمل الله اللامحدود؟ أم هى
إنسانة ومجرد وعاء. البعض تمذهب ذراعياً وألّه مريم، أما الآخرون فقد خلعوها من على
كرسى الألوهية، حتى يمكنهم القول لنساء الأرض أن الرجل هو الذى يلعب الدور الكامل

وحده في المواليد، أما المرأة فمجرد وعاء أو إنا مؤقت. لأن الله كان صاحب الدور الكامل في ميلاد يسوع المسيح، ولا وجود إلا للجنس واحد كامل هو الذكر، أما المرأة فلو حتى كرمناها لقلنا أنها ذكر ناقص، إضافة إلى كونها قد سقطت في امتحان الجنة.

وطوال العصر الوسيط كانت الشروح على مرسوم (جراسيانوس) تستشهد بأفلاطون الذي رفض عقاب المرأة لأنها ليست كائنًا يعقل كالإنسان الذي هو فقط الرجل بل هي أقرب إلى البهائم. وبالتاريخ الطبيعي لبليزني حيث يقول: «الحيض يمنع الانتعاش ويقتل النبات ويصدأ الحديد ويصيب الكلاب بالسعار». وتحولت المادة الأطهر إلى أكثر المواد نجاسة وسببا في تبخيس المرأة. واقترن تمجيد العذراء بتنجيس جنسها جميعه، حتى أن الكلمة (Femina/ امرأة) مركبة من مقطعين (Fele Minus) أي (إيمان أقل).

وعندما جاء الإسلام كان الموقف من المرأة قد تأسس قدسيا، فالذكر هو المخلوق الأول وهي الثاني، وهي قطعة منه خلقت من أجله، وتمت إعادة حواء إلى زمن الخطيئة الأولى الأسطوري ليمركز الشر كله حولها، فهي شيطان غواية لأنها رفيقة إبليس، وهي لا تتحكم بشهواتها، ولا تكون مع رجل إلا وكان الشيطان ثالثهما، حتى قصص الأنبياء نخبرنا أن نساء هن قد وقعن في الخطيئة مثل امرأة لوط وامرأة نوح، وهاروت وماروت أغوتها امرأة، وكانا ملائكة مكرمين، ولدا آدم تقاتلا على امرأة، فالمرأة تخضع للشهوة لا للعقل، ميولها للخيانة طبيعية ومن الطبيعي أن تخون، فهي أحد أربعة خوانين، في مأثور يقول: «أربعة لا أمان لها: المال ولو كثر، الحاكم ولو قرب منك، الدهر ولو صفا، المرأة ولو طال عثرتها»، خلقت من ضلع أعوج، وناقصة عقل ودين، وشهادتها نصف شهادة الرجل، وميراثها نصف ميراث الرجل، «ولو كنت امرأة أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» حديث نبوي، «الكهنة رسل الشيطان والنساء مصايد» حديث نبوي، هي مجرد جسد ومتاع للمتعة كأي متاع، أصبح غير مطلوب منها أن تفكر فهناك من يفكر بالنيابة عنها. هي مجرد فرج لذلك هي حرمة وحرام، صوتها عورة، ورضا زوجها عنها رضا من الرب والناس. والمرأة النموذج هي التي لا تعرف عن نفسها سوى كونها عورة وحرم لا يجوز لمسه إلا لصاحبه المالك الأوحده، الأب ثم الزوج. وهي ناقصة دين لأنها نجسة وطبيعتها النجس والفعل الجنسي معها يؤدي إلى النجس كالموت، فكلاهما يستوجب الغتسال الكامل مع

بعض الدعوات المنجيات والآيات المطهرات، ودم الحيض يغطيها بالدنس، لذلك ترفع عنها أثناء فترة الحيض أو النفاس بعد الولادة كل التكاليف التعبدية، لاتصلى، لاتنصوم. وبينما يحتسب ذلك بسبب نجاسة الدم، نظن من جانبنا أن ذلك إنما هو بقايا زمن قديم كان فيه الدم سر سيادة الأنثى وألوهيتها.

وتبقى أيام الحيض الخمسة الشهرية رصيذاً للذكرى قدسية المرأة وشأنها فى التاريخ، كذلك يتقدس رقم خمسة ويصبح مانعا للسحر والمرض والحسد، ويصبح يوم الخميس اليوم المفضل لجماع أمثل، والخمسة تظل علامة رمزية على الفرج.

وفى عهد الجاهلية الأخير عشية الإسلام، كان الدم الحيضى لم يزل مقدسا، وكان نسوة العرب يطفن بالكعبة ويمسسن بدم الحيض حجرها الأسود تقديسا له، وتواصل مع الذكر السماوى، لكن كتبنا التراثية تسجل لحظة التبخيس فتقول : «إن الحجر الأسود كان أبيض فأسود من مس الحيض فى الجاهلية»^(١٧).

فهكذا كانت فى فجر الإنسانية وهكذا كان ضحاها، ولم تزل درجات السلم التطورى نحورقى حقيقى وراء سجدف زمان لم يأت بعد.

المصادر

١ - Jaquetta Hawkes, Pre History New York, American Libeny, 1963, p35, - 357.

٢ - سيجموند فرويد : موسى والتوحيد، ترجمة جورج طرايشى، دار الطليعة، بيروت، ط ٣، ١٩٧٩، ص ١٨٠، ١٨١.

٣ - نقصد (أصل العائلة) كتابه الأشهر.

٤ - إن الجمع على النسبة إلى أم هو أمنى وليس أميا، لكننا جرينا على الخطأ الدارج حتى لاتنصرف الدلالة إلى مقصود مخالف.

٥ - Mead, Male and Famale, New York, Morrow, 1949, pp 102-103.

- ٦ - جيمس فريزر: أدونيس أو نموذج ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط٣، ١٩٨٢. ص ٣٥.
- ٧ - فراس السواح: مغامرة العقل الأولى، دار الكلمة، بيروت، ١٩٨٠، ط١، ص ٢٤٦.
- ٨ - يعقوب السيد بكر: هوامشه على ترجمته لكتاب موسكاتي: الحضارات السامية القديمة، القاهرة، ١٩٥٧، ص ٢٤٧.
- ٩ - أنيس فريجة: ملاحم وأساطير من الأدب السامي، دار النهار، بيروت، ١٩٧٩، ص ١٠٩.
- ١٠ - نجيب ميخائيل: مصر والشرق الأدنى القديم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦١، ج٦، ص ٣٩٤.
- ١١ - جان بوتيرو: الديانة عند البابليين، ترجمة وليد الجادر، جامعة بغداد، ١٩٧٠، ص ١١٠.
- ١٢ - نفسه ص ٣٨.
- ١٣ - صموئيل كريم: من ألواح سومر، ترجمة طه باقر، مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧١، ص ٢٤٤، ٢٤٣.
- ١٤ - ولدريز: الجينوفوبيا أو الخوف من النساء، باريس، ١٩٧٠، ص ٩٤.
- ١٥ - ترتوليان: الأعمال الكاملة، المجلد الأول، ص ٣٤٣.
- ١٦ - منشورات فريد برج: المجلد الأول، ص ١٢٥٤ و ١٢٥٦.
- ١٧ - محمد حسنى عبد الحميد: أبو الأنبياء، دار سعد، القاهرة، ص ٩٢.

ممارك
فكرية



معارك فكرية

في صحيفة أخبار الأدب نشرنا فصلا واحدا من كتابنا النبى موسى
وأخر أيام تل العمارنة فكانت معركة فكرية منها النماذج التالية:

تصحيح للمعلومات الواردة فى مقالات الدكتور سيد القمنى *

د. عبد المنعم عبد الحليم سيد
أستاذ التاريخ القديم والآثار المصرية
بكلية الآداب جامعة الاسكندرية

تابعت المقالات المنشورة فى أخبار الأدب فى الأعداد الصادرة أيام ١٢ / ١ ، ١٢ / ٨ ، ١٢ / ١٥ ، ١٢ / ٢٢ وأولها بعنوان « رحلة النبى موسى » بلاد بونت ليست الصومال وثالثها بعنوان « الموقع الصحيح لبلاد بونت » وفى هذه المقالات كثير من الأخطاء التاريخية نتيجة اعتماد الكاتب على التشابه اللفظى وحده بين الأسماء التاريخية والجغرافية دون أن يرجع إلى الوثائق التاريخية والأثرية.

ورغم أن الكاتب رجع إلى أحد بحثى فى موضوع تحديد موقع بونت (هامش رقم ٩ من عدد يوم ١ / ١٢) إلا أنه لم ينتبه إلى ماوضحته من اختلاف المدلول الجغرافى لهذه الكلمة (بونت) باختلاف عصور التاريخ الفرعونى، كما أنه لم يطلع على أهم ما نشرته فى هذا الموضوع وهو التقرير الخاص بنتائج الحفائر التى أجريتها على ساحل البحر الأحمر خلال عامى ١٩٧٦ ، ١٩٧٧ والتى تمكنت خلالها من الكشف عن موقع الميناء الذى كان المصريون يحرون منه إلى بلاد بونت هذه، وقد قامت جامعة الاسكندرية بنشر هذا التقرير (مرفق نسخة) إن الباحث فى موضوع تحديد بونت يجب أن يميز بين ثلاثة مسميات أطلقها المصريون القدماء على هذه البلاد وهى :

- ١ - مصطلح عام هو « بونت » وكانوا يطلقون على المناطق التى يحصلون منها على البخور.
- ٢ - مصطلح خاص هو « بيا - بونت » بمعنى منجم بونت وكانوا يطلقونه على المناطق التى يحصلون منها على الذهب إلى جانب البخور.

٣- مصطلح خاص آخر هو « ختيو- عنتيو- نو- بونت » ومعناه « منطقة مدرجات البخور فى بونت » وقد أطلقوه على المنطقة التى حصلوا منها على أشجار البخور لاستزراعها فى مصر.

والمصطلح الأول أطلق فى البداية على المناطق الواقعة على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر الغربية من جنوب مصر ثم امتد مدلوله على طوال الساحل الأفريقى للبحر الأحمر حتى شمل شمال شرق الصومال، وسبب هذا الامتداد يرجع إلى حصول المصريين التوغل جنوبا على طوال الساحل الأفريقى للبحر الأحمر للاقتراب قدر الإمكان من مناطق نمو أشجار البخور فى شمال الصومال لتقليل الوسطاء، وبالتالي ثمن السلعة (كما دلت على ذلك نصوص هيروغليفية من عصر الملكة حتشبسوت).

والمصطلح الثانى (بيا- بونت- أو منجم بونت) أطلقه المصريون القدماء على الجزء الجنوبى من صحراء العتباى الممتدة فى شرق السودان، حيث توجد مناجم الذهب وقد أثبت ذلك فى تقرير الحفائر التى أجريتها على ساحل البحر الأحمر (ص ٥٦ - ٦٦ - من التقرير المرفق).

أما المصطلح الثالث وهو منطقة مدرجات البخور فى بونت فقد استخدمه المصريون لأول مرة فى عصر الملكة حتشبسوت فى النقوش التى تسجل بعثتها إلى بونت لجلب أشجار البخور لاستزراعها فى حديقة معبد هذه الملكة الدير البحرى بقرب الأقصر، وقد أثبت فى البحث الذى أشار إليه الدكتور القمنى (محاولة لتحديد موقع بونت) إن هذه المنطقة تقع فى شمال شرق الصومال وقد استخدمت فى ذلك الوثائق الهيروغليفية والأدلة الجغرافية والنباتية والحيوانية بالإضافة إلى رواية الكتاب اليونان والرومان.

وهكذا امتد المدلول الجغرافى للمصطلح «بونت» على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر من ساحل السودان فى عصر الدولتين القديمة والوسطى حتى ساحل الصومال فى عصر الدولة الحديثة، وهذا ما تعارف عليه علماء الآثار المصرية ودلت عليه الآثار والنقوش التى اكتشفتها فى موقع الميناء (التقرير المرفق).

من هذا يتضح أن كل المناطق التى أطلقت عليها التسمية بونت ومشتقاتها فى النصوص المصرية يقع فى مناطق أفريقية وليست آسيوية وعلى ذلك فإن ما دفعت إليه الدكتور القمنى

بأن بونت تقع فى بلاد الأنباط فى شمال خليج العقبة يخالف هذه الوثائق التاريخية الأثرية. وهناك وثيقة هيروغليفية ذات أهمية كبرى فى هذا الموضوع يبدو أن الدكتور القمنى لا يعلم عنها شيئا وهى لوحة سجل عليها ما يفيد أن سقوط المطر على جبال بونت يؤدى إلى حدوث فيضان النيل، مما يدل على أن بونت تقع إلى الجنوب من مصرأى فى منطقة أفريقية وبطبيعة الحال لايمكن حدوث فيضان النيل إذا سقطت الأمطار على شمال خليج العقبة التى يحدد الدكتور القمنى موقع بونت فى نطاقه .

وبالإضافة إلى هذه المخالفة للحقائق التاريخية والأثرية عن موقع بونت.

فقد وقع الدكتور القمنى فى أخطاء أخرى نجملها فيما يلى .

١ - فى عدد يوم ١٥ / ١٢ العمود الأول ص ٢٩ يقول إن « البتراء » كان اسم العاصمة زمن الأنباط وهو غير صحيح لأن الاسم النبطى البتراء هو « قمو » ومعناها « البتراء » وقد أطلق الأنباط هذه التسمية على عاصمتهم بسبب تعدد ألوان صخورها وهو الاسم الذى تحول إلى « الرقيم » الوارد فى سورة الكهف، أما كلمة البتراء فهى من التسمية اليونانية petra ومعناها الصخرية أو الحجرية .

٢ - فى عدد يوم ١ / ١٢ ص ٨ العمود الثالث يقول الدكتور القمنى أن كلمة « بونت » لم ترد بها العلامة الأجنبية وهو خطأ أيضا إذا العكس هو بيا - بونت ومنطقة مدرجات البخور فى بونت كانت تلازمها هذه العلامة التى على شكل ثلاثة جبال (راجع التقرير المرفق شكل (٢٩) .

٣ - فى نفس العمود المذكور فى (٢) يقول أن الملك البونتى الذى دون اسمه « بارح » فى نقوش حتشبسوت يحمل لقب « عظيم عظماء إرم » وهو غير صحيح لأن هذه العبارة مدونة فى رسوم حتشبسوت فى الصف الذى يعلو صف عظماء بونت وتخص شعبا آخر أطلق عليه المصريون الاسم « أرم ».

٤ - فى عدد ١ / ٢ ص ٨ العمود الأول يقول أن الفرعون أمنمحات الأول من ملوك الأسرة ١٢ أرسل ثلاثة آلاف جندى برئاسة القائد « حنو » وهو غير صحيح أيضا لأن الفرعون المقصود هو المسمى متوحب - سعنخ كارع أحد ملوك الاسرة ١١ .

٥ - فى نفس العمود المذكور فى رقم (٤) يقول أن لوحة النصر للملك أمنمحات الثانى

جاء فيها أن الملك قام بتوطيد سلطانه فى أرض الإله وهو خطأ لأن صاحب هذه اللوحة هو الملك سنوسرت الثانى.

٦- فى عدد ١٢ / ٢ ص ٩ العمود الثانى يقول أن تقرير مسئول حكومى اسمه «خنوم- حتب» عاش خلال الأسرة السادسة الفرعونية جاءنا على حجر بلرمو موجزا يقول «إنه زار بلوس وبونت» وهو غير صحيح لأن هذا النص وارد فى مقبرة رجل يدعى خوى فى أسوان وليس على حجر بلرمو لأن هذا الحجر مدونة رسمية خاصة بالسلوك لأبلافراد هذه بعض الأخطاء التى أكتفى بها حتى تتسع مساحة أخبار الأدب لنشرها مؤجلا التصحيحات الأخرى إلى الأعداد القادمة.

معارك فكرية

فى الأسبوع الماضى، رد الدكتور عبد المنعم عبد الحليم أستاذ التاريخ بجامعة الاسكندرية على الدكتور سيد القمنى بمقال عنوانه تصحيح للمعلومات الواردة فى مقالات الدكتور سيد القمنى، والخاصة بتحديد موقع بلاد بونت، ونشر المقال التالى للدكتور سيد القمنى ردا على الدكتور عبد المنعم عبد الحليم.

بلوغ الأرب * فى أصول اللياقة والأدب

بعدما ينوف على العشر سنوات من الجهد الكشف والمضى - مع التفرغ الكامل - أوشكت على الانتهاء من تدبيج كتابى المعنون «النبى موسى وآخر أيام تل العمارنة». وقد اضطررتنى هذا العمل إلى سفرات شتى سعت خلالها أدقق وأنقب وراء كل ما يتصل بموضوعى، وكان أشدها قسوة سفرى فى ظروف صحية صعبة إلى بوادى سيناء ثم بوادى الشام ثم أقصى شمالى العراق ثم الأردن، حتى تمكنت من إنجاز أكثر من ثلاثين فصلا. نشرنا منها فقط فصلا واحدا صغيرا بأخبار الأدب استغرق نشره ست حلقات اشتملت كل حلقة على صفحتين من تلك الصحيفة، وهو فصل من الجزء الثانى لكتاب يتكون من ثلاثة أجزاء، وهكذا يرى قارئى أن تلك الصفحات المنشورة لاتعبر إطلاقا عن كتاب بهذا الحجم. يضيف كل فصل فيه قرائن وشواهد وأدلة تدعم أركانه التأسيسية.

وبين هذه الأركان جاء فرضا أن بلاد بونت المذكورة بالوثائق المصرية القديمة تقع على امتداد وادى عربية وجبال سراة سعييرين خليج العقبة جنوبا والبحر الميت شمالا. وعندما وصلنا إلى الفروض التأسيسية لعملنا، وجمعنا لها المادة الوثائقية اللازمة والقرائن والشواهد الهائلة كما وكيفها وضمنها فرض بلاد بونت، بدأنا الكتابة ونحن نعلم حجم ردود الفعل التى سيلقاها عملنا هذا، وهو أمر اعتدنا عليه لأننا نخوض دوما فى مناطق ملغومة وخلافية. وقد توقعنا مع عملنا هذا تحديدا أننا ستتعرض لهجمات شرسة سواء من أصحاب العقائد الثابتة الجامدة، أو من أصحاب الأيديولوجيات عموما، ثم من رجال التاريخ التقليديين خصوصا. هذا ناهيك عن كون أى بحث فى فلسفة التاريخ أوفى علوم

التاريخ الاجتماعى أو التاريخ الدينى عادة ما تستفز ثائرة المؤرخ التقليدى الذى يرى هؤلاء - رغم رسوخ أقدامهم - دخلاء على ميدانه، وهو الأمر الذى تعرض له فى بلادنا أكثر من باحث مثل كمال الصليبي وفراس السواح ومحمد البهيتى، أو ما تعرض له فى غير بلادنا سيجموند فرويد وجيمس فريزر وفليكوفسكى وغيرهم كثير. لكن لو حاذر هؤلاء مثل تلك المواقف السلفية المتوقعة لما حظينا بالثراء الذى أضافوه إلى ثروتنا المعرفية والمنهجية.

وأن مثل تلك العلوم التى تعمل معتمدة على المادة التاريخية ليست أبداً تأريخاً بالمعنى الدقيق للكلمة، فالباحث فيها تختلف مهمته ومنهجه اختلافاً بينا عن المؤرخ، حيث يعتمد على الوثائق التى يقدمها له المؤرخ والمادة العلمية الضرورية، التى يعمل فيها مناهجه - وأدواته للوصول إلى ما يبغيه من إعادة ترتيب تلك المادة أو تحليلها ثم إعادة تركيبها أو الاستنتاج منها أو الاستفادة بها فى كشف جديدة.

لكن ما أن نشرنا هذا الفصل منزوعاً من سياقه، والذى لاتعبر مادته وقرائنه عن مجموع ما حشد فى فصوله من دلائل وقرائن وبراهين سوى بنسبة واحد إلى ثلاثين أو أقل من ذلك، طالعنا الدكتور عبد المنعم عبد الحليم بالرد على أطروحتنا جميعها وبرمتها عبر هذا الفصل دون أن يتمهل حتى يقرأ العمل كاملاً، ويبدو أنه لم يلتفت إلى الإشارات المتكررة بالصحيفة إلى أن ما ينشر نماذج من الكتاب، وجاء ذلك الرد فى عدد أخبار الأدب بتاريخ ٩٧/١/١٢.

ورغم عتابنا الهادئ على تسرع الدكتور فإنه قد ساق رده بنبرة هادئة ليبلغ أربه بلباقة ورصانة. وهو الأمر الذى يحتاج فى التعامل معه إلى قدر من اللياقة والأدب لنبلغ بدورنا الأرب. والطريف أنى توقعت رد الدكتور عبد الحليم بوجه خاص لأنى أعلم أنى قد خضت فى منطقة عزيزة عليه، وأنه صاحب نظرية فيها قد أعلنت خلافى معها. وأنه قد كرس لها من وقته وعلمه، كما كرسنا وبحثنا فجاء عشقنا واحداً، ولأنى كنت أعلم أن ذلك سيزعجه فقد توقعت رده كأول رد وهو ما حدث بالفعل، لكنه حدث مبكراً ومبكراً أكثر من اللازم.

نحن نعلم بعد قراءتنا له فى بحثه عن بلاد بونت أنه قد سافر كما سافرنا، وكما اجتزنا فيافي وقفار ندقق الخط الذى رأيناه صواباً، سافر هو أياً ليدقق خطأ آخر آراه هو الصواب. لكنه وإن أصر على التمسك برأيه كحقيقة نهائية فإننا من جانبنا نؤكد (للسيد الدكتور

ولقارثنا الذى نحترمه ونحترمه وقفته لمطالعتنا أننا قدمنا فروضا جمعنا لها الوثائق التاريخية التى أنكرها علينا وقصر جهدنا عند البحث اللغوى)، إننا أبداً لا نقطع بصدق كل فروضنا المطلق، ففى علوم البحث فى التاريخ ليس هناك مجال للقطع واليقين، بل إن مثل ذلك القطع يخرجنا فوراً من دائرة العلم إلى دائرة من يعتقدون أنهم يمتلكون الحقيقة النهائية والمطلقة.

لقد قرأت ما قدمه الدكتور عبد المنعم عبد الحليم بشأن بلاد بونت، كما قرأت ما قدم آخرون، حتى كدت أحفظ التعبيرات والأساليب، وأعرف تفاصيلها كما أعرف كف يدي. وقد اختلف هؤلاء اختلافاً هائلاً ومتباعداً بل ومتناقضاً وكلهم أصحاب أسماء ذات سمعة عظمى فى علم التاريخ، ولا أظن أحدهم قد قطع فى قوله أو ظن أنه قدم الإجابة النهائية. ومن جانبى لا يصل بى الظن فى الدكتور عبد الحليم إلى اعتقاده أنه قد وضع القول النهائى والفصل فى هذا الأمر، فهو فى اعتقادنا رجل علم رصين ترفع به عن مثل ذلك، وحاشانا أن نعتقد به ذلك.

وتأكيداً على أن هناك من لم يأخذ نظريته مأخذ النظرية القانون والنهائية، إنه بالأمس فقط ١٢ / ١ / ٩٧ وصلتنى مكالمة تليفونية من صديق مهتم بسلطنة عمان يلفت نظرى إلى أستاذ بجامعة السلطان قابوس هو الدكتور عاطف عوض وهو فيما علمنا رجل علم متمكن ورصين، وأنه قد وضع فرضاً مخالفاً تماماً لكلينا لموضع بلاد بونت. حيث افترض أنها بلاد الساحل العماني، حتى أن السلطنة قد رأت فى كشفه أمراً يستحق الاحتفاء به، فتم تحديد زمن افتراضى لوصول سفن الفرعوننة حتشبسوت، وأقيم بهذه المناسبة احتفال شعبى كرنفالى تمثيلى يمثل وصول البعثة المصرية إلى بلاد عمان التى افترض الدكتور عوض أنها بلاد بونت. وهكذا يرى الدكتور عبد الحليم أن المساحة لازالت وستظل مفتوحة لكل من يمكنه أن يدلى فيها بفرضه وأسانيده، بغض النظر عما قدم الدكتور عبد الحليم، أو ما قدم شخصى المتواضع، وأنه سيتكبد مشقة عظيمة إذا قرر أن يقضى عمره فى تخطيء كل من يقول بشأن بونت قولاً مخالفاً لنظريته. ومن جانبنا نعود فنؤكد أننا سنخطيء هنا أو هناك وسط هذا الرتل الهائل من المادة العملية المتناقضة، وعلى يقين أننا سنرتكب زلة صغيرة هنا أو كبيرة هناك، وأنه طالما استمر دأبنا مناوشة المناطق الصعبة فسنتظل نخطيء وجل من لا يخطيء ياسيدى الدكتور.

ثم نقف الآن مع الدكتور عبد المنعم عبد الحليم وهو يعدد لنا ما زعم أنه أخطاء تاريخية وقعنا فيها، لتساءل قبل ذلك : متى يمكن وصف معلومة يسوقها كاتب بأنها خاطئة ؟ أظن ذلك يكمن فى أحد ثلاث حالات : الأولى أن يكون الكاتب قد فهم المعلومة خطأ وقد فهمه وليس المعلومة باعتبارها الصواب ، وهو مالم يحدث معنا ، والثانية أن يكون هذا الخطأ من ابتداعه الشخصى وهو أيضا مالم يحدث معنا ، والثالثة أن يكون الكاتب قد افتأت على الحقيقة ولوى عنق المعلومة نصالح رؤيته ولتوافق هواه ، وهو أيضا مالم يحدث معنا . فماذا حدث معنا؟

إن كل ما أشار إليه الدكتور عبد الحليم ووصفه بالخطأ ، موثق لدينا ويعتمد على مصادر أصلية تمت الإشارة إليها فى مواضعها ، بنصها هو هو كما جاء فى مظانه المصدرية ، وهى مصادر ديجت بأقلام علماء أجلاء هم مصادرنا جميعا التى تتوضع أمامها احتراماً ، وفى الفصل المنشور كانت مراجعنا تعود لأسماء جلييلة القدرهى : جاردنر ، مارييت ، كيتشن ، ولیم لانجر وفريقه البخشى ، كرال كاسيدوفسكى ، زيتة ، طه باقر ، جارستانج ، هاريس زاليج ، سليم حسن ، أحمد بدوى .. فلماذا لم نلجأ فى استقاء المعلومة الصحيحة إلى أصحاب تلك الأسماء فلمن نلجأ؟ وإذا كان هؤلاء يقدمون لنا معلومات تاريخية خاطئة فماذا يبقى لدينا من حقائق فى علم التاريخ القديم ؟

والآن نقف تفصيلا مع ما قدمه السيد الدكتور من أخطاء معلوماتية رآها فى ذلك الفصل المنشور ، فهو ينعى علينا عدم الإشارة إلى نص يتعلق ببلاد بونت يقول أنه عندما تسقط عليها الأمطار تفيض مياه النيل . أولا فى هذه الحالة لن تكون بونت هى الساحل الصومالى حسب نظريته إذا أخذنا النص بظاهره ، وثانيا لم يكن المصرى القديم على علم بمنابع النيل وكيف يفيض ووضعت فى ذلك تصورات أسطورية عديدة لامجال هنا لسردها ، فهو مرة دموع أحد الآلهة ، ومرة نهرا ينبع من جبال السماء أو تحت الأرض ، وقد ظلت تلك التصورات الأسطورية حتى عهد قريب فى حديث منسوب لنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم (إن أهم أنهار المنطقة وضمناها النيل تنبع من السماء من تحت عرش الرحمن) حيث لم يكن العلم بجغرافية الأرض قد اتسع بعد . وإذا كانت تلك حجة تضع بونت جنوبا فكيف يفسر السيد الدكتور تكرار المصرى القديم أن بونت تقع فى الشرق حيث تطلع الشمس؟

ثم يبدأ سيادته بالترقيم تعديدا للأخطاء المعلوماتية من وجهة نظره ، فيقول إننا قلنا أن الاسم النبطي لعاصمة الأنباط هو البتراء وصححه بأنه (قمو) الذى تحور فى العربية إلى (الرقيم) وورد فى سورة الكهف . والصحيح أننا أبدا لم نقل أن البتراء هو الاسم النبطي إنما قلنا أنه الاسم الذى عرف به الرومان تلك المدينة زمن الأنباط بمعنى الصخرة أو الصخرية . ثم إننا نعلم ياسيدى أن اسمها كان (الرقيم) لكننا أجلناه لموضعه من البحث حيث سيؤدى فى مكانه دورا فى تأكيد مذهبنا ، ولابأس إن ذكرنا لك هنا طرفا منه حتى تعلم أننا نعلم.

نقول فى الفصل الثالث والعشرين (حسب الترتيب الحالى) وفى ص ٦ من مخطوط الفصل : « ويظهر لنا عند العرب اسم غريب هو الرقيم ظهر قبلهم عند المؤرخ يوسفيوس اليهودى، وقد رجح الباحثون أنه التسمية العربية لمدينة البتراء أو مدينة الحجر أو لكليهما - تقع منطقة الحجر شمال غربى السعودية الآن - وقد أورد إحسان عباس رأيا يقول:

إن الرقيم هى المدينة التى وردت فى المصادر الصينية باسم (لى - قن) من (رى - قم) .. كذلك ورد اسم الرقيم فى رسالة سريانية تحدثت عن زلزال دمر الرقيم ، ونحن نعلم أن هناك زلزالا قد دمر الرقيم، ثم نحن نعلم أن هناك زلزالا قد دمر البتراء عام ٣٦٣ ميلادية .. «إلى آخره . وهكذا تعلم ياسيدى أن فى جعبتنا الكثير الذى عن الرقيم وغير الرقيم مما قام بدوره فى مكانه من بحثنا، فقط هى العجالة والتسرع يأخى الكريم.

ثم يقول الأستاذ الدكتور أن كلمة (بيا - بونت) قد لازمتها العلامة الهيروغليفية الدالة على البلاد الأجنبية ، وهو عكس ما قلنا ، فما قلناه أن كلمة بونت وليس (بيا - بونت) قد وردت بدون تلك العلامة ، ولم نقل منجم بونت حتى لانربك القارئ وسط رتل المعلومات الهائل .

ثم يقدم الدكتور الخطأ الثالث فى قولنا أن الملك ألبونتى كان يحمل لقب عظيم عظماء إرم ، وهنا نحيله إلى واحد من مصادرنا بهذا الشأن كمثال واحد وهو سليم حسن فى الجزء الرابع من كتابه الموسوعى مصر القديمة طبعة هيئة الكتاب ص ٣٣١ حيث يقول :

« .. السياحة إلى الوطن والوصول بسلام :

إن السياحة إلى طيبة قد قام بها بقلب فرح جنود رب الأرضين ورؤساء هذه الأرض بونت

وخلفهم ، وقد أحضروا معهم أشياء لم يحضرها أى ملك من قبل . ويلي هذا مشاهدة رئيس إرم وإلم رئيسى تميو وهما قبيلتان غير معروفتين لنا من بلاد بونت يتبعهما رجالهما . وكلهم ركعوا أمام حتشبسوت مقدمين الهدايا .

ثم يقول الدكتور عبد الحليم أننا أخطأنا بشأن ترمين حملة القائد (حنو) حيث قلنا أنها حدثت زمن الفرعون أمنمحات الأول، بينما هي قد حدثت زمن الفرعون سعنخ كارع ، وقد ورد ذلك سهوا حيث يأتى ترتيب أمنمحات الأول فى قوائم الملوك مباشرة بعد سعنخ كارع ، ويمكن للعين أن تقرأ سطرا أعلى أو أسفل ، لكنه على أية حال خطأ يجب استدراكه ، لكن ألا يرى السيد الدكتور أن ذلك لعلقة له على الإطلاق بموضوعنا ولا يشغله ولا يؤثر فيه ولا على استنتاجتنا ولا على الأقيسة ولا على المنهج ولا على ما دته الفعالة ولا ترتب عليه أية نتائج إطلاقا ، وهل سعى السيد الدكتور لتصيد زلات لا تؤثر من قريب أو من بعيد على الموضوع ، للتأثير على قارىء غير متخصص تشكيكا فى كاتبه ؟

ثم يخطئنا للمرة الخامسة فى قولنا بلوحة نصرتخص الملك (أمنمس الثانى / أمنمحات) جاء فيها أنه قام بتوطيد سلطانه فى بلاد بونت أرض الإله ويصححنا بأن صاحب هذه اللوحة هو الملك سنوسرت الثانى ، فهلا رجع السد الدكتور إلى العلامة جاردنر فى كتابه مصر الفراعنة ، الذى ترجمه رجلا لا يقل جلالا هو الدكتور نجيب ميخائيل وطبعته هيئة الكتاب ص ١٥٨ و ١٥٩ ليقراً معنا جاردنر إذ يقول : « وصلت إلينا لوحة ترجع إلى العام الثامن والعشرين من حكم أمنمس الثانى تسجل قيام هذه البعثة .. ومعها الكلمات يوطد آثاره - أى الملك - فى أرض الإله ».

ثم يخطئنا للمرة السادسة فى معلومة مصادرها لا تقل جلالا فهي تعود إلى العلامة زينة والعلامة برستد حول الموظف المصرى الذى سافر إلى بيلوس وبونت ، والمقصود هنا اقتران الموضوعين ببعضهما لإثبات أن بونت تقع شرقا لاجنوبا ، وأن المعلومة ياسيدى سواء كانت من مقبرة خوى أو أى مقبرة أخرى أو حجر باليرمو أو أى حجر كان لعلقة لها بالعمل وسياقه وأهدافه . فهل جلس الأستاذ الدكتور لتصيد فقط لمجرد التشكيك ؟

نحن ياسيدى حتى الآن لم نخطئ ، فموضوعنا كما ترى موثق ، أما الحقائق والمادة التاريخية فليست من شأننا ولها أربابها وعنهم ننقل وبهم نقرأ وعليهم المعتمد . ومهمتنا

أبدا ليست تدقيق معلومة يعطيها لنا علماء مثل جاردنر أوزيتة أو مارييت أوسليم حسن مهمتنا هي البحث وإعادة التصنيف ثم المقارنة فالتحليل والتركيب ، ثم فرض الفروض واختبارها وجمع الأدلة عليها ثم الاستنتاج، أما المعلومات سواء كانت خطأ أم صوابا فهي ذلك المعطى الجاهز لنا من أهل التاريخ وأنت أحدهم يا صديقى .

وختاما أقول للسيد الدكتور أنى أحترم وقفته معى لمراجعتى ولا أظنه قد فعل ذلك تعصبا لنظريته وتشكيكا فيما ذهب أنا إليه فأنا أربأ به عن ذلك كما أعلم أن فرضه لبلاد بونت بالصومال عزيز عليه فهو محل اهتمامه فى رسالة الماجستير ومجمل أبحاثه بعد ذلك ، لقد قال رأيه ونظريته وأدلتة على وقوع بونت على الساحل الصومالى ، كذلك قلنا رأينا وأدلتنا على وقوعها عند العقبة ، وللقارىء فى النهاية موقفه الخاص الذى سيختاره ، لكنى أعلم أنك قد أضفت إلى قرائى رصيда من قرائك الذين سيثرون مساحتى ، لأنهم - لاشك - قد تعلموا منك المنهج العلمى ، وعرفوا منك كيف يختلفون وكيف يتحاورون.

وبعد ما ثبت الآن يا أخى خطؤك فى تخطيطنا نقول لك . هذا بعض هادىء من فيض ، ورذاذ لطيف من غيث ، وقطر كظيم من سيل ، فإن عدتم عدنا وساعتها لانعدك أبدا بالإصرار على فضيلة بلوغ الأرب . وتمهل يا أخى فإن فى العجلة الندامة ، وتأنى فى التأنى حفاظ على هبة المنصب الرفيع ، واخفض من صوتك وتواضع فى قولك ، وراجع مصادرنا قبل أن تقول ، ولا تستفز ثائرتنا يرحمكم الله فأنت البادى ... اللهم إنى قد بلغت اللهم فاشهد.

معارك فكرية

د. سيد القمنى والنبى موسى

رد على رد

البحث يعتمد الوثائق وليس البلاغة والإنشاء!

د. عبد المنعم عبد الحليم سيد
أستاذ التاريخ القديم والآثار المصرية
بكلية الآداب جامعة الاسكندرية

فى العدد الصادر يوم ١٢ / ١ / ١٩٩٧ ص ٦ من أخبار الأدب نشرت الجزء الأول من هذه التصحيحات وقد نشر الدكتور سيد القمنى ردا على ما ورد فيه فى العدد الصادر يوم ١٩ / ١ / ١٩٩٧ ص ١٤ ، ص ١٥ . وأنى أنهى الدكتور سيد القمنى على أسلوبه الأدبى الإنشائى الرفيع فى رده على تصحيحاتى لأخطاء مقالاته عن بونت ولكن المجال فى هذه المعلومات لا يعتمد على البلاغة والإنشاء بقدر ما يعتمد على الوثائق والأسانيد التاريخية والأثرية.

ولكن قبل أن أبدأ فى هذا الجزء الثانى من التصحيح ، أعتب على الدكتور سيد القمنى قوله أنه توقع التعرض لهجمات شرسة من رجال التاريخ التقليديين خصوصا أن أى بحث فى فلسفة التاريخ أو علوم التاريخ الاجتماعى (حسب قوله) عادة ما يستفز ثائرة المؤرخ التقليدى ويستشهد الدكتور القمنى على ذلك بكتاب كمال الصليبي الذى تعرض لهذه الهجمات الشرسة (حسب قوله) .

وإننى أقول للدكتور القمنى . هناك فرق كبيرين أن يقدم أى باحث مجدد رأيا جديدا يعتمد على الوثائق التاريخية والأثرية فهذا لاشك مما يرحب به كل مؤرخ سواء كان تقليديا أم مجددا ، وبين طالب الشهرة بالزائفة يلجأ إلى تحريف المسميات والمعلومات لتوافق هواه متجاهلا الوثائق والأسانيد التاريخية والأثرية ، وهذا ما فعله كمال الصليبي عندما

حرف أسماء كل من المواقع الفلسطينية المذكورة في العهد القديم والأسماء الحالية للمدن والقبائل والقرى فى منطقة عسير بالمملكة العربية السعودية لكى توافق هواه فى إثبات أن أرض الميعاد عند بنى إسرائيل ليست فلسطين كما هو معروف بل منطقة عسير فى المملكة العربية السعودية، وأصدر فى ذلك كتابين باللغتين العربية والإنجليزية عنوان النسخة العربية هو (التوراة جاءت من جزيرة العرب) وقد سبق أن نشرت نقدا لهذا الكتاب نشر فى إحدى الدوريات العربية وأعدت نشره فى كتابى « البحر الأحمر وظهره فى العصور القديمة » ص ٤٨٥ وما بعدها أوضحت فيه مدى إسراف كمال الصليبي فى هذا التحريف إلى درجة قلب المعلومات الثابتة التاريخية والأثرية رأسا على عقب وإعطائها مضمونا يخالف تماما ما تتضمنه هذه الوثائق .

أبدأ الآن فى الجزء الثانى من التصحيح لمقالات الدكتور سيد القمنى بالإشارة إلى الاتجاه العام للدكتور القمنى فى مقالاته كلها وهو أنه جعل من منطقة أدوم (التي يسميها «أدم») الواقعة إلى الشمال والشمال الشرقى من خليج العقبة والتي قامت فيها دولة الأنباط بعاصمتها البتراء ، جعل منها موطناً لشعوب ودول ثبت بالوثائق التاريخية والأثرية منذ نشأة علوم الآثار المصرية والعراقية فى القرن الماضى وترجمه آلاف النصوص الهيرغليفية والسماوية ، إنها كانت تعيش فى مناطق بعيدة كل البعد عن منطقة أدوم هذه وفيها دولة «ميتانى» التى قامت فى شمال سوريا والعراق وشعب الحوريين الذى كان يسكن شمال العراق أيضا فضلا عن منطقة بونت التى كانت منطقة أفريقية ..

وهكذا سحب الدكتور القمنى هذه الدول والشعوب من أقصى الشمال ومن أقصى الجنوب ليجمعها كلها فى منطقة واحدة هى منطقة أدوم موطن دولة الأقباط .

وفى سبيل إثبات رأيه هذا لجأ الدكتور القمنى إلى وسيلة الاعتماد على التشابه اللفظى بين المسميات الجغرافية والتاريخية دون أى اعتبار للوثائق التاريخية والأثرية ، وأسوق مثالا صارخا لذلك ، فلكى يثبت الدكتور القمنى أن بونت هى منطقة البتراء وما حولها (بلاد أدوم) اعتبر التسمية « قصر البنت » (التى حورها إلى قصر « بنت ») والتى يطلقها عرب المنطقة الحاليون على أحد المباني الضخمة فى البتراء ، اعتبر هذه التسمية بقية من الاسم القديم «بونت» (عدد يوم ١٥ / ١٢ / ٩٦ ص ٢٩ عمود ٢) رغم أن هذه التسمية عربية مائة

فى المائة لما هو ظاهر وأصلها « قصر بنت فرعون » وقد أطلقها عرب المنطقة على هذا البناء الضخم (وهو معبد نبطى خلافا لما يقوله الدكتور القمنى عنه بأنه كان مركزا للحكم والإدارة) شأن كل عرب الجزيرة العربية عندما يشاهدون بناء ضخما فينسبونه إلى الفراعنة، ومثال ذلك معبد آخر مجاور لمعبد قصر بنت فرعون هذا به عمود ضخم قائم أطلق عليه عرب المنطقة « عمود فرعون ». وهكذا انزل الدكتور القمنى فى غمار حماسه لرأيه إلى الوقوع فى المحذور، إذ لا علاقة بطبيعة الحل بين الكلمة العربية « بنت »، (بمعنى ابنة فى عبارة قصر البنت وبين الكلمة المصرية القديمة « بونت »)، ومن هذه الأمثلة الصارخة أيضا أنه حرف التسمية « ميتانى » التى كانت تطلق فى النصوص الهيروغليفية والنصوص المسمارية على الدولة التى قامت فى شمال سوريا والعراق كما ذكرنا، حرفها إلى « مديان » و« مدين » (عدد يوم ٢٩ / ١٢ س ٢٨ العمود الأول) قائلا إن بلاد ميتانى هذه تركزت فى بلاد سعيرو وادى عربية وسميت بالصخرة من طبيعتها الصخرية وأنها بلاد بونت فإن بونت تعنى الصخرة (نفس الوضع من نفس العدد من المجلة) أما أن ميتانى هى نفسها « مدين » فرأى فيه الكثير من الشطط لأن ميتانى هذه تردد اسمها فى نصوص الملك تحتمس الثالث وخلفائه باسم « متن » فى سياق حروبه فى شمال الشام ودخل ملوك الأسرة الثامنة عشرة فى مصاهرات مع ملوكها وورود اسمها كثيرا فى الصور المسمارية بما لا يدع مجالاً للشك بأن موقعها كان فى شمال سوريا والعراق.

أما أن اسم بونت يعنى « الصخرة » فلا أعرف من أى مصدر استقى الدكتور القمنى هذا التفسير فلا توجد كلمة فى اللغة المصرية القديمة بالنطق « بونت » أو ما يشبهه تعنى الصخرة أو الحجر والحقيقة أن هناك تفسيرين لأصل كلمة « بونت » أولهما: أنها تعنى « القلاع المحصنة » وقد أوضحت سبب هذه التسمية فى كتابى عن البحر الأحمر (٣) وثانيهما: أن كلمة بونت ليست مصرية بل أفريقية استعارها المصريون واستخدموها للدلالة على بلاد البخور وما زالت توجد حتى اليوم كلمة تشبهها فى اللغة السواحلية (لغة سكان سواحل الصومال وتنزانيا) هى كلمة « بوانى » Pwani، وتعنى السواحل الأفريقية للحصول على البخور يسمعون هذه الكلمة من سكان هذه السواحل فاستخدموها بعد تحويلها إلى النطق المصرى كعلم على بلاد البخور.

وقد تقلص مدلول هذه الكلمة الأفريقية على مر العصور نتيجة انتشار اللغات الأخرى

كاللغة العربية فى المناطق السودانية والأريتيرية حتى انحصرو فى اللغة السواحلية، وما زالت توجد حتى اليوم على ساحل الصومال الشرقى أسماء تشبه كلمة « بوانى » هذه مثل كلمة « بنه » فى التسمية « رأس بنه » التى تقع إلى الجنوب من رأس جرد نوى، وكان الكتاب اليونان والرومان يسمونها Panon « بانون » .

نأتى إلى تحريف لفظى آخر (غير بونت) للدكتور القمنى هو تحريف كلمة « مجدو »، فقد نقل الدكتور القمنى موقع هذه المدينة من شمال فلسطين إلى منطقة أدوم (عدد يوم ٢٢ / ١٢ ص ٢٨ العمود الأول) بنفس طريقته فى تركيز المسميات القديمة فى هذه المنطقة ، والمعروف أن مجدو هو الاسم العبرانى للكلمة المصرية القديمة (مكتى)، وكانت هذه المدينة هدفا لحملة حربية للفرعون تحتمس الثالث وقد استولى عليها بحيلة حربية بأن سلك أقصر وأضيق الطرق إليها ففاجأ العدو وانتصر عليه وقد نقل الدكتور القمنى هذا الطريق أيضا إلى الطريق المسمى « السيق » الذى يؤدى إلى البتراء واعتبره الطريق الذى سار فيه تحتمس الثالث ، ومن المدن التى استولى عليها تحتمس الثالث والتى كانت تقع فى الطريق إلى مجدو مدينة أطلقت عليها النصوص المصرية الاسم « عارونا » فاعتبر الدكتور القمنى أن « عارونا » هذه هى جبل هارون « فى محيط البتراء » ، كل هذا التخريج أقدم عليه الدكتور القمنى متجاهلا تماما الوثائق المصرية القديمة التى من عهد الملك تحتمس الثالث وخلفائه من ملوك الأسرة الثامنة عشرة والتى يشير تسلسل المدن من الجنوب إلى الشمال فى سجلات هذا الملك ، بما لا يدع مجال للشك أن مجدو كانت تقع فى شمال فلسطين (فى مكان مدينة تل المتسلم الحالية) بل إن موقع هذه المدينة فى شمال فلسطين ثابت أيضا من تسلسل المدن التى دون أسماءها الملك شيشنق الأول (بعد عصر تحتمس الثالث بحوالى خمسمائة سنة) على جدران معبد آمون بالكرنك ضمن أخبار حملته على فلسطين والتى درس تسلسلها بالتفصيل علماء الآثار المصرية وآخرهم العالم « كينيث كشن » Kitchen الذى نشر الخرائط التوضيحية لها ولغيرها من المدن التى غزاها شيشنق، ومن الواضح أن الدكتور القمنى لم يطلع على هذا الكتاب .. وهناك دليل حاسم على أن « مجدو » التى كانت مجالا لنشاط شيشنق الأول الحربى تقع فى تل المتسلم بشمال فلسطين هو العثور فيها على بقايا لوحة من الحجر عليها اسم الملك شيشنق الأول وبالإضافة إلى نقل موقع مدينة مجدو من شمال فلسطين إلى منطقة أدوم فإن اسم هذه

المدينة لم يسلم من تحريفه ، فقد اعتبر الدكتور القمنى نطق الكلمة التى أطلق عليها « موقيده » والتى وردت فى نصوص الملك رمسيس الثالث ، ينطبق على نطق كلمة مجدو (عدد يوم ٢٢ / ١٢ ص ٢٩ العمود الثانى) رغم أن « موقيده » (وصحة الكلمة مو - قدى) هذه معناها « المياه المعكوسة » وقد أطلقها المصريون فى أول الأمر على نهر الفرات لأنه يجرى من الشمال إلى الجنوب عكس اتجاه مياه النيل ثم أطلقوها على كل مسطح مائى تجرى تياراته من الشمال إلى الجنوب، ومن هنا أطلقوه على البحر الأحمر فى نصوص الملك رمسيس الثالث التى تسجل عودة إحدى بعثاته من بلاد بونت لأن مياهه تتجه تياراتها من الرياح السائدة من الشمال إلى الجنوب عكس اتجاه مياه النيل . ورغم أن النصوص التى تسجل عودة بعثة الملك رمسيس الثالث من بونت واضح فيها تماما أن سفن هذه البعثة رست على ساحل الصحراء الشرقية (التي جاءت بها هذه البعثة نقلت بالبر من ساحل البحر الأحمر إلى النيل عند قفط إلا أن الدكتور القمنى يأخذ هذه البعثة أيضا إلى خليج العقبة ويجعلها ترسو بسفنها على ساحل هذا الخليج حيث بلاد أدوم التى جعلها مقرا لكل المسميات لما ذكرنا.

ومن المؤسف أن الدكتور القمنى يستشهد فى تحريفه لكلمة « مجدو » إلى « موقيدة » بتحريف كمال الصليبي للاسم « مجدو » إلى « مقدى » وقد لجأ كمال الصليبي إلى ذلك التحريف لكى ينطبق على اسم بلدة فى منطقة عسير بالمملكة العربية السعودية تدعى المقدمة تمشيا مع اتجاهه فى كتابه المسمى « التوراة جاءت من جزيرة العرب » بالادعاء بأن أرض الميعاد عند اليهود ليست فلسطين بل منطقة عسير فى المملكة السعودية كما سبق أن ذكرنا .

وحتى مصر، لم تسلم من مشروعات الدكتور القمنى فى نقل الدول والشعوب القديمة إلى منطقة « أدوم » فقد نقل الدكتور القمنى حدودها الشرقية إلى هذه المنطقة (والحمد لله إنه لم ينقل مصر كلها) ففى تفسيره لكلمة « موصرى » الأسوزية (عدد يوم ٢٩ / ١٢ ص ٢٩ عمود ٢) تقول إن كلمة مصر محورة من الكلمة المصرية، السور العظيم ما هو إلا سلسلة الجبال المتبعة (فى منطقة أدوم) قبل إطلاقها على مصر نفسها فهو خطأ أيضا لأن هذه التسمية وهى بالضبط « مصرى » وردت بالخط المسمارى كاسم هو كما يسمى خطابات تل العمارنة التى ترجع لعصر الملك أمنحتب الثالث وابنه إخناتون (القرن الرابع عشر قبل

الميلاد) وذلك قبل دورها فى سجلات الملك تجلات بلسر الثالث (وقد ذكره الدكتور القمنى خطأ «تجلات بلسر الأول» (عمود ٢٩ / ١٢ ص ٢٩ عمود ٢) كما يقول الدكتور القمنى بحوالى ستمائة عام وقد كتبها الآشوريون « مصرى» وكتبها البابليون « مصر» وانتقلت إلى العرب بالنطق «مصر».

كذلك قلب الدكتور القمنى تسلسل المعلومات فى تسمية إيجبت وقبط فالثابت أن كلمة « قبط» العربية حورها العرب من الكلمة اليونانية Aegyptus (التي منها كلمة إيجبت التي كتبها الدكتور القمنى) وليس العكس كما يقول الدكتور القمنى وهذا أمر يدهى لأن اليونان أسبق من العرب فى الاتصال بمصر وبالمثل لعل كلمة «قبط» (كعلم على الشعب القبطى) باسم مدينة « قفط» فهذه الكلمة الأخيرة مصرية الأصل وردت فى النصوص الهيروغليفية بالنطق « جبتو» و « جبت» تحورت فى اللغة القبطية إلى Keft «كفت» ثم نطقها العرب « قفط».

وإننى أكتفى بهذا القدر من تصحيح أخطاء الدكتور القمنى حتى تتسع مساحة أخبار الأدب لنشرها مؤجلا التصحيحات الأخرى للعدد القادم.

الهوامش:

1-Gauthier, H.Dictionnaire des noms Geographiques Continus dans les textes hieroglyphiques (1975) 3p.318.

2-Prichard t. , Ancient Near Eastern Texts (1969) P3188.

٣- عبد المنعم عبد الحليم سيد ، البحر الأحمر وظهيره فى العصور القديمة (١٩٩٣) ص ١٩ .

4-perrot D.swahili - English Dictionary (1973) 4, p.62

5. Bveasted, Ancient records tl 409 6. Kitchen, K. the third intermediate period in Egypt, (1986) P.296 - 299

٦- وانظر أيضا ، عبد المنعم عبد الحليم ، البحر الأحمر ص ١٠٥

٧- عبد المنعم عبد الحليم نفس المصدر شكل (٥) ص ٥٠٧

٨- نفس المصدر السابق ص ٢٢٠

٩- المصدر السابق ص ٥٠٩

معارك فكرية

د. سيد القمنى

فصل المقال فيما بين العقبة والصومال *

بالأمس ١٩٩٧ / ١ / ٢٣ أحاطتني هيئة تحرير أخبار الأدب تليفونياً علماً بوصول تعقيب جديد من الدكتور عبد المنعم عبد الحليم على الفصل الذى نشرناه من كتابنا (النبي موسى وآخر أيام تل العمارنة) من بين ستة وثلاثين فصلاً هي مجموع ما تم إنجازه حتى الآن فى ثلاثة أجزاء ، ولما يكتمل العمل بعد . وقد سبق ونبهنا الدكتور عبد المنعم إلى الخطأ العلمى الذى يرتكبه بإصدار الأحكام على العمل من خلال فصل واحد لم يرصد سوى قرائن تعادل نسبة واحد إلى ثلاثين أو يزيد من وجهة نظرنا، لكن السيد الدكتور أصر على الاستمرار فى هجومه غير الموفق بتهور غير محمود وافتعال معركة لاتليق برجل علم ، ومن ثم عاد يزعجنا بطبولة الصومالية ويشير الغبار والضوضاء . ومن هنا رأيتنى بغير حاجة إلى الاطلاع على هذا التعقيب الجديد ، ورأيت من الأوفق التركيز على مفصل النزاع دون التهويم فى التجريحات والطواف حول الفروع دون الأصول.

وقد سبق ونبهت فى تعقيبى فى ردى الذى نشرته بأخبار الأدب فى ٩٧ / ١ / ١٩ إلى خطأ التعامل مع فصل متزوع من سياقه ، كما نصحته وما كان يشغلنا قبل ذلك فى كثير أو قليل بالتريث ، ثم ألمحت بصرامة أننا هذه المرة سنقول ما تكتننا عليه وغضضنا عنه الطرف ، لأننا نقدر حساسية موقفه أمام طلبته بالذات ، وأوعزنا إليه بعدم ركوب مغامرة غير محسوبة، لكن ليشهد قارئى أنه هو الذى دفعنا دفعا إلى قول ما سنقول ونحن فى غاية الأسف لنشره على ملأ . وإعمالاً لذلك سنركز على الخلاف التأسيسى حيث ذهب السيد الدكتور إلى أن بلاد بونت المذكورة فى الوثائق المصرية القديمة، تقع على الساحل الصومالى ، بينما ذهبنا نحن إلى أنها تقع عند رأس خليج العقبة مع امتداده بطول وادى

عربة شرقى سيناء.

* أخبار الأدب / عدد ١٩٩٧ / ٢ / ٩ م

أصول الأكاديمية

ويبقى بأيدينا عملنا في كتابنا وعمله هو في رسالتيه للماجستير والدكتوراه لنعمل فيها القول الفصل ، تحسباً لهدر مزيد من الوقت بلا طائل ، وسنكتفى بقولنا هنا ونترك بعد ذلك الحكم للقارئ مع وعد بالتوقف عن الرد مرة أخرى مهما قال السيد الدكتور الفاضل . وسنعمد هنا إلى مراجعة مذهب الدكتور في رسالتيه عبر الملخص الذي نشره اختصاراً للوقت وحسماً للأمر، مع ترقيم الصفحات التي سنشهد بها من ذلك الملخص .

وأول مايلفت نظر الباحث المتمرس أن صديقنا قد بدأ عمله وهو يضع نصب عينيه هدفا يريد إثباته، وهو أن بلاد بونت تقع تحديداً على الساحل الصومالي . ومعلوم أن ذلك يتجاوز أول شروط البحث العلمي وهو الموضوعية والحياد والنزاهة ويتضح ذلك من اعتماده على تفسير محدد للكلمة (عتى) التي تشير إلى مواد التبخير التي جاءت بها بعثة حتشبسوت من بلاد بونت ، فأخذ برأى واحد يتيم في تفسير الكلمة ورد عند (لوكاس) عرضاً في كتاب إعمومي لا يتحدث عن بونت تخصيصاً، وعنوانه: المواد والصناعات عند قدماء المصريين، ترجمة زكى اسكندر ومحمد غنيم ، وبالتحديد على إشارة عابرة بأسطر شاردة في صفحة ١٥١، يرجح فيها لوكاس أن يكون هذا العتى هو البخور الأبيض أو الكندر المعروف باللبان الذكر.. وقد اعتمد الدكتور عبد الحليم هذا الرأي وحده تحديداً دون غيره لأن اللبان الذكر.. ينمو على ساحل الصومال تحديداً وهو بغيته وهدفه.

ولمزيد من الدقة نسوق كلام الأستاذ الدكتور بنصه إذ يقول في صفحات ٥١ و ٥٠ مانصه: «إن أشجار البخور التي يجب البحث عنها على سواحل البحر الأحمر هي أشجار ذلك البخور الذي كان يعرف عند المصريين باسم عتى...» ويقول لوكاس إنه البخور الأبيض المعروف حالياً باسم الكندر، وهو ما يطلق عليه في اللغة.. الدارجة اللبان الذكر».

ومعلوم أن اللجوء إلى استقواء معلومة شديدة التخصيص من كتاب فضفاض شديد التعميم ، لا يركز حديثه حول موضوع المادة المنتخبة للإدلاء بالشهادة ، يوصف في اللغة الأكاديمية بأنه مرجع غير محكم، وعلى هذه العبارة الشاردة في مرجع غير محكم أقام السيد الدكتور عمله برمته ، وأسس هرماً مقلوباً على رأس إبرة ، فقرربداية أن العتى لا بد أن

يكون هو اللبان الذكر، ولأن اللبان الذكر هو الذى يتواجد على ساحل الصومال فلا بد أن تكون الصومال هى بلاد بونت.

وعلى هذا الأساس الهش أقام الأستاذ الدكتور عمله جميعاً رغم مخالفة ذلك لنتائج وتفسير أخرى وصل إليها علماء أجلاء ركزوا عملهم على مقطع الأمر نفسه، وانتهوا إلى تعدد القول بشأن العنتى، فهو المرأو ربما كان هو الميعة أو ربما كان هو الصمغ العربى، فهو على الجملة مادة للتبخير غير محددة باللبان الذكر وحده، وهو ما يتعرض له العالم الجليل جيمس هنرى برستد فى الجزء الثانى من كتابه التسجيلات المصرية القديمة وآخرون لا يقلون شأنًا لم يقفوا عند اللبان الذكر ينفخون فى ذواتهم، بل إن المصادر الأقرب تاريخياً من أصحاب المشاهدات العينية من مؤرخى العصر الكلاسيكى وذلك مثل بليني فى تاريخه الطبيعى، وكذلك استرابون فى جغرافيته قد تحدثا عن ألوان متعددة فى مواد التبخير، لكن لأن الأستاذ الفاضل يريد ساحل الصومال سلفاً وبالتحديد موطناً لبلاد بونت، فقد قرر الوقوف عند الكندر، وهو الأمر الذى أدى إلى متتالية من الأخطاء اضطرت فى مرات عديدة إلى الالتفاف غير الحميد على حقائق ضد مذهبه، وهو ما سندل عليه الآن وفوراً. بعد أن نصحناه فلم يصغ وقام يشهر أسلحته الرديئة فى وجهنا يريدنا معركة، فله إذن ما أراد.

المنهج التلغيفى:

مع إصرار الدكتور عبد الحليم على أن العنتى هو الكندر تحديداً كان لابد أن ينتهى إلى نتيجة منطقية ضرورية تتأسس على هذه المقدمة، وهى أن الأشجار الإحدى وثلاثين التبخيرية التى أحضرتها بعثة حتشبسوت من بلاد بونت، وزرعتها أمام معبدها بالدير البحرى، هى بالتحديد أشجار الكندر وهو ما انتهى إلى القول به فى صفحة ٤٧ من موجز رسالتيه.

أما نحن فقد قلنا فى فصلنا المنشور، وفى بقية كتابنا الذى جمعنا له مادة هائلة كما وكيفاً عبر السنوات العشر الماضية، إن تلك الأشجار لابد أن تكون هى أشجار بيرسيا التى تنمو عند العقبة ووادى عربية، بقرائن وأدلة حاشدة، وهى الشجرة التى عرفها معجم أوكسفورد بأنها « شجرة بيرسيا المقدسة ».

ولأن مثل تلك الخلافات تظل فى منطقة رجراجة على صورتها تلك ما بين تأييد هذا

الرأى أو ذاك . فإن الوسيلة الوحيدة للحسم لا تكون الا بأثر أركيولوجى واضح يقطع فى الأمر، وهنا نستدعى شاهدا موثوقا هونا فيل مدعوما من الأركيولوجيست عالم المصريات الأشهر سليم حسن ، ليدلى بشهادته فى الجزء الرابع من عمله الموسوعى مصر القديمة ، طبعة هيئة الكتاب صفحة ٣٣٣ وصفحة ٣٣٤ لنسمعه يكتب تقريراً واضح المعالم لا يحتمل لبساً يقول فيه : « وتدل الكشوف الحديثة على أن الأشجار العطرية التى أتى بها من بلاد بونت قد غرست فعلاً فى حفر نقرت فى الصخر أمام المعبد وملئت بالطين الخصيب . وقد عثر على هذه الحفر الحفارون المحدثون فى الردهة التى أمام المعبد وقد وجدوا أن بعضها لا يزال محفوظاً فيه جذوع الأشجار الجافة ، غير أن هذا الأشجار ظهر أنها أشجار بيرسيا .» فهل لم يزل هناك شك أو خلاف؟ وهل سيستمر السيد الدكتور عند ساحل الصومال يدق طبول الحرب علينا؟

البونتي والفينيقى :

كان من بين أهم القرائن التى قدمناها للتدليل على وقوع بونت عند العقبة ووادى عربية بعاصمته المعروفة الآن بالبتراء ، هو ما جمعناه من مادة تاريخية تؤكد أن بلاد بونت كانت تشتمل على عدد من العناصر البشرية المتحالفة ، وأن تلك العناصر المتحالفة كانت تضم عنصراً جزيرياً قادماً من جنوب جزيرة العرب بصحبة عنصر زنجى قادم بمنتجاته التجارية من أفريقيا الشرقية ، مع عنصر هندوارى قادم من تركيا وشمال العراق وبلاد الشام وهو العنصر الذى اشتمل على الأراميين والفينيقيين ، ورأينا أن العنصر الأخير هو من وردت الإشارات التاريخية إليه بوصفه (الجنس الأحمر) ، وأن أصحابه هم من أعطى البحر الأحمر اسمه من صفتهم فهو الأريتري أى الأحمر ، وأن هؤلاء كانوا سادة تلك المملكة التجارية المتحالفة والذين حملوا اسم البونتيين على وجه التخصيص .

وقلنا أن المصريين قد أطلقوا على الطائر الخرافى الذى زعموا أنه يأتى مصر قادماً من بلاد العرب عند وادى عربية هو (بنو) وهو الذى عرفه اليونان باسم (فوينكس) ، وقد استخدم المصريون اسم هذا الطائر (بنو) للإشارة إلى الجماعات التى تأتى إلى مصر من الشرق عبر سيناء فهم البونتيون أو الفينيقيون . وكان ذلك أحد أدلتنا ضمن أدلة أخرى عديدة على

تخصيص تلك المنطقة العربية بأنها بلاد بونت.

وقد لاحظ السيد الدكتور تلك المشابهات ، ولكنها لم تذهب به إلى العقبة ، فليس كل من ركب الفرس خيال وليس القصد من ذلك المقارنة لأنه لا مجال للمقارنة أصلاً إنما القصد هو بيان لجوئه إلى التلفيق والمداورة الشديدة الهشاشة رغم تأكده من علاقة البونتين بالفينقيين ، فاستمر في إصراره على ساحل الصومال رغم أن الفينقيين شرقي مصر في آسيا وليسوا في جنوبى مصر بالصومال ، ومن هناك اختلط الأمر عليه فقام يقول: «وقد لاحظ الباحث (أى الدكتور عبد المنعم) نفسه أن الاسم بنو هو الاسم المصرى للطائر الخرافى المسمى فى الإغريقية فوينكس يطلق على المقاطعات المصرية الواقعة شرقى النيل ، وبمقارنة هذا الاسم بالكلمة المصرية ويين معنى يشرق ، رجح الباحث أن المصريين ربما أطلقوا الاسم (بنو) أو اسما مشتقا منه على الجماعات التى كانت تفد إلى مصر من المناطق الشرقية ومن بينهم البونتيون . (لاحظ كلامه الذى يؤكد كلامى).

وأنهم ربما أطلقوا هذا الاسم على سائر المناطق الواقعة إلى الشرق من مصر ومن بينها بلاد العرب .. وبالنسبة للتشابه الملفت للنظر بين نشاط البونتين ونشاط الفينقيين فى البحر الأحمر ، والآراء التى تعتبر الفينقيين أحفادا أو خلفاء للبونتين .. فإن من الممكن افتراض أن الفينقيين عندما لاحظوا نواحي كثيرة للتشابه بينهم وبين البونتين دفعتهم حاستهم التجارية إلى الاستفادة من ذلك التشابه فنسوا أنفسهم إلى البحر الأريتري .. حتى يكتسبوا حقوقا فى استغلال تجارته الرائجة إزاء الشعوب الأخرى التى كانت تنافسهم» صفحة ٣١ و ٣٢

فهل بعد هذا التفسير تلفيق منهجى .

من العراق إلى مصر عبر الصومال

قلنا فى كتابنا أن المؤثرات العراقية القديمة فى بعض العبادات المصرية وفى بعض الأشكال الفنية المبكرة مثل صلاية نعرمر ، لانفسرها إلا نظرتنا فى أن ضمن أحلاف المملكة التجارية شرقى سيناء كان العنصر العراقى القديم ، ولما كانت هذه الآلهة ترتبط تحديدا فى المدونات المصرية ببلاد بونت فقد كان ذلك دليلا على مذهبنا فى موقعة بنت عند العقبة شرقا وليس الصومال جنوبا ، خاصة مع تقرير المصرى المتواتر: « عندما أولى وجهى نحو مشرق الشمس فإنى أوليه إلى أرض الإله بونت » . وقد قلنا أن هؤلاء التجار هم

من نقلوا تلك المؤثرات العراقية المبكرة إلى مصر .

ولكن لأن عزائم الزميل كانت على قدر عزمه فقد قام يثابر على منهجه ويقول بكل اجترأ أن تلك المؤثرات قد وصلت بالفعل مع التجار البونتيين من العراق شمالاً إلى مصر لكن عبر الصومال جنوباً (!!؟) يقول سيادته : « يبدو أن عملية نقل المؤثرات الميزوبوتامية من العراق إلى مصر كانت ذات صلة بمركز الآلهة المصرية التي ارتبطت ببونت . وأن انتقال هذا المؤثرات إلى مصر تم بواسطة شعب أو جماعات كانت تسكن مناطق متوسطة بين مصر والعراق ، وتقوم بدور الوسيط فى الاتصالات بين الطرفين وربما كان هذا الشعب أو الجماعات نوعاً من الوسطاء التجاريين .. وربما كان الوسطاء من سكان الساحل الأفرقي ببونت (يقصد الصومال) هم من نقلوها مباشرة إلى مصر » صفحه ٢٥ !!! ولا تعليق ؟ فالوسطاء التجاريون فى الموقع المتوسط بين العراق ومصر هم الصوماليون ؟!

سادة بلاد بونت:

أبداً لم نعتبر العنصر الزنجى فى لوحات حتشبسوت دالاً على أفريقية بلاد بونت ، فما أكثر الزنوج فى لوحات مصر التى لاتحدث عن بلاد بونت ، ثم إن السادة فى تلك اللوحات قد رسمتهم ريشة الفنان المصرى فى هيئة المصريين تماماً سواء فى اللحية التقليدية أو فى السحنة التى لاتمت للزنوج بصلة ، او فى اللون الذى صبغت به بشرتهم وهو الأحمر الفاتح المفضل فى رسوم المصريين لأنفسهم ، إضافة إلى عنصر آخر غير زنجى بدوره وصف بأنه أرمى أو أرامى ، أما العنصر الزنجى فى اللوحات فكان فى رأينا فريقاً تابعا ضمن عناصر الحلف التجارى القادم ببضائعه من جنوبى البحر الأحمر .

ورغم أن الدكتور عبد الحليم قد أصر على أن بلاد بونت تقع على الساحل الصومالى ، فإنه لم يستطع أن ينكر أبداً تلك الحقائق حيث يقول فى صفحة ١٧ عن سكان بلاد بونت حسب لوحات حتشبسوت : « سكانها خليط من عدة سلالات : أ - السلالة التى تنتمى إلى الطبقة الحاكمة أى البونتيين أنفسهم ويشبهون المصريين

ب - السلالة الزنجية .

ج - سلالة ثالثة لعلها المسماة أرم وهى قريبة الشبه بالبونتيين . ثم يقول فى صفحة ٣٩ « كان رجال بونت يرسمون على الآثار المصرية على هيئة المصريين وبلحي تقليدية كالتى

يلبسها آلهة المصريين».

وفى بحثنا قلنا أن اسم العاصمة البوننية كما ورد فى الوثائق المصرية (أو سالت) يؤكد مذهبنا حيث كانت البتراء عاصمة وادى عربية تسمى فى الزمن القديم (سالع) وجاء اسمها هكذا فى التوراة ، لكن السيد الدكتور فضل لها (زيلع) على ساحل الصومال ، ولانعلم كيف أمكن وجود أسماء مصرية على الساحل الصومالى ، بينما تختفى تلك الأسماء تماما على الساحل اليمنى المقابل الذى يفصله عن الصومال خانق باب المنذب الضيق ، وهو الأمر الذى اعترف به هو نفسه فى صفحة ٣٧.

ثم يضع الدكتور عبد الحليم الميناء الذى وصلت إليه سفن حثشبوت عند مصب نهر النيل بالساحل الصومالى ويعتبره اكتشافه المذهل حيث وقف يهلل ويكبر ويدق طبوله الصومالية ، بينما كان ذلك الميناء لدينا أحد القرائن البسيطة والهيئة حيث يتطابق اسمه (حرجسوى واج ور) مع الميناء القديم المشهور على خليج العقبة المذكور فى التوراة باسم (عصيون جابر) ولك أن تدرك مدى التطابق الفونيطيقى المدهش كدلالة واضحة.

وفى لوحات حثشبوت دلالة هامة تساعد الباحث على تحديد موقع بلاد بونت وهو قيام البيوت التى تشبه أعشاش النحل على أعمدة ، وهوما وجدناه إبان زيارتنا للبتراء قائما حتى اليوم على ذات الفكرة المعمارية القديمة ، ومنه البالغ القدم كما فى أم البيرة ومنطقة الدير ، ومنه الأحداث الذى احتفظ بفكرته القديمة حتى زمن الرومان كما فى خزنة فرعون والقصر الذى لم يزل يحمل حتى اليوم اسم (بنت) ولم يزل هذا الأسلوب متبعا حتى الآن على السواحل الغربية لخليج العقبة بسياء فى محيط نوبيع والترايين ، ويمكن للزميل زيارتها ومعاينتها بنفسه بأسلوبها البدائى القديم . لكن لأن زميلنا الفاضل لم يجد ذلك على ساحل الصومال فقد عقب قائلا فى صفحة ٦١ «والحقيقة أن الأكواخ ذات الأعمدة لاتوجد اليوم فعلا فى الصومال .. ومسألة وجود الأعمدة لاتصلح أساسا يعتمد عليه لأنها ليست من المعالم الدائمة أو الثابتة» . أليس ذلك لونا من التخلص الواضح والعجز الفاضح؟ هذه نماذج قليلة من كثير يمكن قوله، لكننا اختصرنا حتى لانجور على المساحة المتاحة لنا بالصحيفة ، وكنا نتمنى ألا نقول لكن الزميل هو من دفعنا إلى التصريح بما كنا نصمت عنه ، أقول ذلك وأنا شديد الأسف لأنه وضعنى فى هذا الموضع الصعب واضطرنا

لهذا اللون من الخطاب الذى كنا نعلو عنه دوما بقامة العلم لا بالغوائية ، وليسامحنا الله جميعا ولا بأس على الزميل أن اعترف بالخطأ وأعاد النظر فى ساحة العلم متسع لكل من يملك أدواته شريطة أن يملك أدواته حقا.

أزمنة
الأقرب



(١) تقديم قدمه المؤلف لكتاب الدكتور سليم نجيب رئيس محكمة مونتريال بكندا، وهو رسالة دكتوراه بعنوان (حقوق الإنسان في مصر - حالة الأقباط) قُدمت إلى جامعة (بانتيون - أساس - باريس رقم ٢) وذلك في ١١ يونيو ١٩٩٢.

أزمة الأقباط

هذا الكتاب جرس إنذار عالي الصوت يردد صدى ودويا، هو صوت مصرى مسيحي واضح صريح، متحرر من كل المخاوف والمحاذير بل وحتى الكياسة والحصافة، لأنه كان بالأصل رسالة دكتوراه قدمت بفرنسا ببلاد غير البلاد، وفي ظل قوانين ونظم غير نظمنا وقوانيننا ومناهجنا في التفكير. ناهيك عن كون صاحبه يعيش الآن في مهجره بكندا فكتب بصراحة وبوضوح لا يخشى معهما الملامة، لذلك يعد هذا الكتاب إفصاحا عن مكنون، ورؤية مصرى مسيحي لوضع طائفته الدينية في المجتمع المصرى، عبر فيها عن أحزانه ومأساته وآماله وأحلامه الوطنية بشكل شديد الوضوح إلى حد الصدمة.

ولسنا بحاجة إلى التذكير أن هناك الآن حوالي ٢ مليون مصرى مسيحي يعيشون في المهجر بأنحاء متعددة من العالم، وشكّلوا تجمعات قوية ومؤثرة وذات صوت عال، ومن مهجرهم أخذوا يخاطبون ضمير العالم، بل ويؤثرون في اتخاذ القرارات العليا في مواطنهم الجديدة، لكننا في مصر لم نزل نعيش الأوضاع كما هي، ندفن رؤوسنا داخل شرافتنا، نجب الثبات والسكون ولا نجب الرؤية الواضحة لأنها تبهتنا، نصر على ذات المنهج ونستريح لذات الأوضاع فالحركة ترعبنا والتغيير يرهبنا. وإذا كان قد تم اغتيال أحد الأصوات المسيحية المعارضة في الخارج، فهل يمكن التخلص من ٢ مليون مصرى مسيحي يعيشون في بلاد حرة ليبرالية تحمي صاحب كل رأى أو عقيدة ؟

إن هذا الكتاب يعرض كيف يفكر المسيحي المصرى، ويضع الحقائق ناصعة لنسمى الأشياء بأسمائها، إن كنا نريد لوطننا تماسكا ووحدة تكفل استمرار تناميته وحركته نحو المدنية التي هي الدرع الحقيقي لوحدة واستمراره في الوجود.

ولأستبعد عند صدور هذا الكتاب أن نسمع صيحات التفكير والتنفيذ والاتهامات الرخيصة المبتذلة، وربما المطالبة بمصادرة الكتاب كالعادة في بلادنا في مثل تلك

الأحوال، رغم أن أرصفة بلادنا تغص بالكتب التى تبخس العقيدة المسيحية وتسفه أصحابها. ولم يصادر كتاب واحد منها.

نحن لانحب المخالف لأننا لانملك حجة المناقشة والرد الموضوعى الهادىء ولأننا أيضا نخاف الحقائق بعد أن اعتدنا أوضاعا مختلة أصبحنا نظنها الصح الأبدى، ولأننا اعتدنا تمرير الكذب إلى تاريخنا وصدقناه. ولأننا تحدثنا عن الهزيمة النكراء باعتبارها نكسة، وعن الغزو العربى بحسبانته فتحا، ولأننا نتأذى من وجود إسرائيل على تراب فلسطين، وتبأكى فى الوقت نفسه على الأندلس دون الشعور بأى خلل، ولأننا أسقطنا أبسط مبادئ العقل، قانون الهوية وعدم التناقض فأصبحنا نرى الحصان اليونانى المجنح (بيجاسوس) أسطورة، ونرى البراق حقيقة لا ريب فيها. ولأننا نقطع ذاكرتنا التاريخية وندافع عن الثقافة العربية الغازية، متصورين أننا بذلك ندافع عن الوطن، وأبدأ لانضع تلك الثقافة فى مكانها الطبيعى بحسبانها قد أصبحت جزءا من ثقافتنا وليست هى كل ثقافتنا، فنلقى بكل تاريخنا مع أجدادنا الذين وُصفوا بالمجرمين وغرقوا مع الفروع فى البحر المفلوق بالعصا السحرية. ولأننا نقف مع إسرائيلية موسى ضد مصرية الفرعون، بل نحذف عن عمد وقصد كل تاريخ الحقبة القبطية من تاريخ مصر كما لو لم تكن جزءا من تاريخها، فحذفناها بكل ثرائها الثورى والفنى والأدبى، فأسقطنا بذلك من تاريخنا لا يقل عن نصف ألفية من الزمان. بينما نجد شعوبا تبحث عن تاريخ كامل لها يعادل ذلك الذى نحذفه فلا تجد. لقد أسقطنا هذا التاريخ لأنه كان تاريخ المقاومة المصرية للاحتلال الرومانى، ولأن المصريين فى هذه المقاومة ضد الرومان كانوا مسيحيين؟! ولأن النصف الثانى من هذه الفترة كان فترة ثورة لمسيحيين مصريين ضد الاحتلال العربى. وهكذا لا تجد شعبا فى العالم قرر تكفير ثقافته وتدميرها ونسيان تاريخه عن سبق إصرار لصالح الثقافة الغازية سوى الشعب المصرى؟! ولك يا مصر العزاء.

والأكثر إدهاشا ألا تعرف تلك السنوات العبقريّة الفضة فى تاريخ مصر طريقها الواضح والكامل إلى كتب وزارة التعليم المصرية حتى اليوم، وهو منطق يعنى أننا مع العروبة أكثر مما نحن مع مصر، ومع الإسلام أكثر مما نحن مع مصر، حتى أسقطنا حقبة النضال الثورى القبطى ضد الروم والعرب لإنها كانت مصرية مسيحية ولم تكن لا عربية ولا إسلامية!!

ولذلك ضحينا بمصر إبان هذه الحقبة كما لو كانت غير موجودة فى التاريخ، فقط لأنها كانت مسيحية ؟ ! لذلك أهدرنا هذا التاريخ وألغينا مصر من الوجود. ألا يعنى ذلك أيضا أننا نقصر تاريخ الوطن أو نتعامل مع مصر كما لو كانت قد بدأت وجودها منذ الفتح العربى أو الغزو إن شئنا الدقة، ومن ثم قمنا بكفر تاريخها الأقدم أيضا لاستبعاده بدوره نهائيا، أفلا يفصح هذا اللون من الفكر المتوارى المضمّر، عن عقلية الغاصب المحتل المستوطن الذى يريد استبعاد كل ما يجعل للمواطنين جذورا قديمة فى تاريخ وطنهم، ومحو تاريخهم محواً ؟ ثم ألا يعنى ذلك اعترافا من المسلم بالفكرة القائلة أن المصريين الأقباط هم ورثة الفراعنة الشرعيين، وأن المسلمين احتلال عربى استيطانى طال أمده عما ينبغى ؟

وبالمناسبة هذه هى الفكرة التى ستعبر عنها صفحات هذا الكتاب الذى بين أيدينا الآن. إن منهج التفكير، والسلوك عند المسيحيين والمسلمين المصريين، يترك مساحة هائلة للجانب الدينى عند الحديث عن الوطن، مما يؤدى إلى خلل دائم فى الرؤية، وهو ما يشكل خطرا جاثما طوال الوقت نحمد الله أنه لم يفجر مصر إلى مقاطعات إقليمية كما هو حادث فى بلدان أخرى من العالم. وإذا كان هناك صاحب فضل فى ذلك فإنهم أقباط مصر الذين يعتقدون أنهم أصحاب البلاد التاريخيين، وأنهم الامتداد الطبيعى لسلسال الفراعين، وأنهم يملكون مقومات ذلك سواء من حيث التاريخ أو العنصر أو المواطنة بالجنسية أو اللغة القبطية المتطورة عن الديموطيقية المتطورة بدورها عن الهيروغليفية. لذلك تحمل المسيحيون المصريون كثيرا من المعاناة لزمان طويل، قبلوا أثناءه أوضاعا شديدة الظلم فى وطنهم حتى لا ينقسم وطنهم ويتشظى.

لكن المصيبة الأعظم أن مسيحيى مصر يفكرون بمنطق أشد تعصبا من المسلمين السلفيين، فكلاهما يعتبر الدين هو الهوية وهو الوطن، وهنا الفجيرة المروعة، فالقبطى لا يطلب مجتمعا علمانيا مدنيا، يحفظ ويصون ويضمن جميع الحقوق لجميع الأفراد على التساوى، بغض النظر عن كون المواطن مسلما أم مسيحيا أم ملحدا، لكنه يطلب مجتمعا مصريا مسيحيا كما لو كانت المسيحية قد أصبحت شرط المصرية، وعند الإسلام السياسى نجد ذات المنهج، حيث الإيمان بالإسلام ومبادئه شرط صدق المواطنة !!

انظر قارئى معى إلى الغاية النهائية التى كانت تريدها جماعة الأمة القبطية، التى أسسها

إبراهيم حلمى هلال سنة ١٩٥٢ وتم حلها بقرار أمنى عام ١٩٥٤، ويلخصها لنا صاحب هذا الكتاب فيقول ص ٢١١، ٢١٢(*)).

استرداد مصر كلها، أرضنا التى سلبت منا بواسطة العرب المسلمين منذ أربعة عشر قرنا. إن أرضنا هى مصر، وديانتنا هى المسيحية، وسيكون دستورنا هو الإنجيل، وتكون لغتنا الرسمية هى اللغة القبطية.

أورد المؤلف تلك الفقرة دون أن يعقب عليها وتركها تنطق بدلالاتها ضمن السياق، وهو ما يعنى الموافقة الضمنية على ماورد فيها، ومعنى ذلك أننا سنخرج من حكم ربما يستعين بالدين أحيانا، إلى حكم ثيوقراطى شمولى دينى من رأسه إلى أخمص قدميه. وناهيك عن استحالة المطلب، فطرده أو إفناء خمسين مليون مصرى، أو تنصيرهم، فكرة لاتضع صاحبها فى خانة العقلاء على الإطلاق، والمفارقة أن أصحاب مثل تلك الفكرة الجامحة يرون لإسرائيل حق الحياة فى المنطقة، لأنهم أستعمار استيطانى فما ذنب الأحفاد الذين ولدوا هناك وأصبحوا مواطنين حقيقيين، لكنهم لا يرون ذات الحق للمصرى المسلم فى المواطنة بعد أربعة عشر قرنا. وهذا يطلب دستورا قرآنيا، وذلك يطلب دستورا إنجيليا، وتضيع مصر.

ومن هنا فإن أهمية هذا الكتاب تكمن فى كونه يضع صورة غاية فى الوضوح لكيف يفكر أقباط مصر اليوم، فى عالم أصبحت فيه الليبرالية سيدة الأنظمة، وأصبحت فيه قوانين الحريات والكرامة الإنسانية فوق كل القوانين، وظهرت قوى تنتهز مثل تلك الفرص للتدخل فى الشؤون الداخلية، وفرض شروط السياسة والقرارات السيادية، بضغط يستثمر لاءات الحريات والكرامة الإنسانية، ومن ثم أصبح واجبا علينا إصلاح البيت من الداخل، دفعا لأى ضغط أو تأثير خارجى على كرامة بلادنا. وهو إصلاح ممكن وسهل لو خلصت الضمائر لمعانى الدولة المدنية الديمقراطية الليبرالية المعلمنة. بل إن صاحب كتابنا هذا لم يجد أى حرج فى القول ص ٢٥٤ : «إن العقوبات الاقتصادية هى الوسيلة الطبيعية لتنفيذ تلك السياسة، وعلى الدول الديمقراطية اللجوء إلى تلك العقوبات ضد الدول التى يثبت ارتكابها جرائم انتهاك فاضحة ومستمرة لحقوق الإنسان». والتلميح واضح، وهنا يتظر منا حسب المنهج السائد أن نهدد الكاتب بالويل والثبور وعظائم الأمور، مع نعوت يجذب أن

* هذا الترقيم كما فى أصل رسالة الدكتوراه المطبوعة بالآلة الكاتبة .

تبدأ بالعمالة وتنتهى بالخيانة.

لكنى أقول بصوت عالٍ نرجو أن يرجع لنا صده وأثره، إن هذا المصرى، ما وصل به الحال إلى ذلك إلا إذا كان قد طفق به الكيل، وأن متغيرات العالم والسريعة منحتة الفرصة لأول مرة لشرح قضيته أمام العالم، بل إن بعض هذا العالم وأنا أكتب هذه الصفحات يفكر الآن فى قطع المعونة عن مصر لهذا السبب تحديداً.

بالطبع لاشك إطلاقاً أن مثل تلك الدعوة رغم كل مساوئها ومخاطرها على مصر التى يعيش فيها مسيحيون ومسلمون، تعبر بوضوح عن فشل كامل لكل المساعى التى تقدم بها الأقباط فى مطالب واضحة وتم إهمالها تماماً، كما توضح صفحات هذا الكتاب، ودون حتى مناقشة تلك المطالب علناً.

لكن ونحن نتعاطف مع مطالب المسيحيين المصريين، بل نتوحد بهم وتباهى معهم بأننا أعرق حضارات الأرض، لا يسعنا إلا أن نفكر بعد ممارستهم الضغوط فى الخارج من أجل قضيتهم ماذا يطلبون؟ وماذا يعرضون؟

أول المصائب مطالب من النموذج الذى سقناه منذ قليل (دولة مسيحية دستورها الإنجيل ولغتها القبطية)، فإذا كنت - ومثلّى كثيرون - نرفض بل ونقاوم قيام دولة إسلامية، فالنتيجة البسيطة لمثل هذا التفكير أننا سنقاوم وبشكل أشد مثل ذلك الخيال المستحيل بفرض إمكان حدوثه. وهكذا تخسر القضية القبطية أهم القوى التى تساند مطالبهم، وهى قوى المستنيرين من مفكرين علمانيين ذوى شأن وقدر، وقدرة أيضاً على التأثير الجماهيرى الواسع. بل وربما يكون رأيهم فى حالات كثيرة له تأثير على اتخاذ القرار السبى. ومثل تلك الخسارة ستكون هى الخسارة الحقيقية ليس للأقباط فقط لكن لمصر جميعاً، لأن معنى ذلك أننا سنقدم على هاوية مظلمة لا يعلم أحد متنهاها. إن الطرح السالف يشير بوضوح إلى أن العقلية القبطية فى التفكير قد أصبحت مسيحية غير مصرية، طائفية دينية غير وطنية. لأن الدين المسيحى ليس مصرياً ورغم أن المسلمين أقباط أيضاً، وأكثريتهم يعودون بالجنس - وليس بالدين - إلى أصول مصرية عريقة. ونحن تعيننا مصر كما يشغلنا أن يعيش المواطن فى مصر عزيزاً يتمتع بكل الحريات، حتى يمكنه أن ينتج ويبدع لأن العلم لا ينمو إلا فى مناخ حر تماماً وهو سبيل تقدم الأمم.

لكن ما هو موقف صاحب الكتاب وكيف يفكر؟ نحمد الله أنه يفكر بذات المنطق وذات التفكير السائد بين الأقباط، حتى أنه قدم لنا نموذجاً للمسألة القبطية في أذهان الأقباط وضميرهم بكل حماس . ولذلك لم يشغله التدقيق العلمى فى أكثر من موضع. وخاض فى مناطق شديدة الحساسية والوعورة دون أن يكون مسلماً بالأدوات العلمية اللازمة، كما فى حديثه مثلاً ص (٢٥٢) عن زواج القبطى من المسلمة وهو الممكن فى دولة معلنة، ويحبذ العلمنة، لهذا السبب، ويدلى برأيه التحييزى فى أمر يحتاج إطلاعا واسعا على الشريعة الإسلامية وعلومها. أو مثل ذلك الكلام الصحفى من قبيل: إن المسيحى عندما يطلب عملاً فى مصر. «فإنهم يخاطبونه بهذه اللهجة: إذهب فليست هناك وظيفة لك» ص (٢٠٤) وهذا كلام إن جاز فى الأحاديث الصحفية المثيرة، لا يجوز فى رسالة علمية. لأن العلم تدقيق فحدث كهذا: متى حدث؟ ومن السائل؟ ومن المجيب؟ وفى أية مناسبة؟ وتاريخ المناسبة؟ ومدى صدق هذا التوثيق؟ ثم ما قيمة هذه الحادثة كلها؟.. إلخ ثم هناك مستوى آخر أكثر علمية هو إجراء البحوث المدعمة بالبيانات والإحصاءات المقارنة للنسب العددية بالوظائف فى مصر، هكذا العلم، أما غير ذلك فصحافة. أو كما يلقي القول إلقاء فى عبارات منها «إن الإسلام يظهر عداء لحرية الدين وبصفة خاصة عندما يتعلق الأمر بترك الإسلام»، هكذا دون أن يقدم تعريفاً بأن هذا الأمر مختلف عليه بين الفرق الإسلامية، وفى هذه الحال كان لابد من توضيح واضح كاف لتأييد وجهة نظره واختيارها دون وجهات النظر الأخرى، وهذه المؤيدات لابد أن تكون من أمهات كتب المكتبة العربية.. إلخ.. فهذه هى شروط العمل العلمى كى يكون علماً بالمعنى الدقيق للكلمة. لكن لو قال (المسلمين) فى مصر بدلاً من (الإسلام) إذن لجاز قبول القول ومناقشته. إذن صاحب الكتاب يعنى على المسلمين المصريين والدولة المصرية لأنها لاتأخذ بالعلمنة، لكن هل يوحى لنا هذا الكتاب بأن صاحبه يؤمن بالعلمنة حقاً؟ لقد ضربنا أمثلة لعدم الحرص على الدقة والصرامة العلمية، لنقول أن صاحب الكتاب كان مشغولاً معيناً بأمراً آخر غير العلم سنرى الآن أنه لا يختلف إطلاقاً عن مطالب الإسلام السياسى، وبالصيغة تك يا مصر بين أبنائك.

كنت مستعداً أن أفهم إذا لم يحدثنا الصوت القبطى عن دولة دستورها الإنجيل وأنا أرفض دولة دستورها القرآن!! وكنت بالتأكيد سأقف معه قلباً بقلب ويدا بيد وهو يرفض

تطبيق الشريعة الإسلامية في مصر، لما لذلك من مخاطر مؤكدة على وحدة الوطن وسلامته، لكنى أبدا لأفهم ماذا ستفعل بما يزيد على خمسين مليون مسلم مصري؟ نعم أقف معك ضد تطبيق الشريعة الإسلامية لأننا كيف سنحاكم المسيحي؟ هل نحاكمه بالقانون المدني؟ فنقطع يد حسن عندما يسرق، ونحبس جرجس ثلاثة شهور عندما يفعل ذات الفعل؟!، فيخرج من سجنه إلى الكنيسة ليقدم للعذراء شموع العرفان والشكر، لأن يده لم تقطع مثل حسن كنت أفهم أن يقف المسيحي ضد العقوبات حسب الشريعة الإسلامية لأنها ستؤذي مجتمع إخوانهم المسلمين، وربما تساءل المجتمع جميعه عندما يكتشف براءة حسن، عن كيفية إرجاع يده المقطوعة إليه. وربما كنت أتصور أن أخى القبطى وأنا سنقف معا ضد تطبيقها لأن الإنسانية قد تجاوزت مرحلة العقوبات البدنية إلى غير رجعة، وأن هذا هو سبيل الرقى البشرى، وأن أحكام تلك الشريعة إن لم تتكيف مع المتغيرات باجتهاد واضح فإنها ستؤول وحدها إلى الظل ثم إلى التعطل كما تعطلت أحكام آيات قرآنية أخرى تصل إلى حوالى ثلاث وعشرين آية، تتعلق بالرق والسبايا وملك اليمين، بعد أن ارتقى البشر عن تلك الوصمة التى لطخت جبين البشرية طويلا. لكن أن نستبدل القرآن بالإنجيل، فتلك والله قاصمة للظهر، ومنطق لاعلاقة له بالإخلاص للوطن.

والكتاب الذى بين يديك بطول صفحاته جميعا يكرس لاتخاذ المسيحية وطنا وهوية، ويضع ذلك فى إطار التمسك بمصر الوطن. غير مدرك أى تناقض فصيح يكمن فى منهج تفكيره الذى يعبر عن منهج جميع مسيحي مصر تقريبا، لأن الحالات التى أقابلها وتؤمن حقا بمجتمع مصرى مُعلمن من بين المسيحيين، تعد على أصابع اليد الواحدة، وأنا من الشخصيات العامة فى مصر ذات العلاقات الواسعة، وشهادتى تقوم على قياس دقيق للعينات. إن المسيحيين يملأون بقاع الأرض فهل من حق كل واحد منهم قطعة فى مصر مادامت مصر تعادل المسيحية.

إن الحل الذى لم يره هذا الكتاب ليس فى تمصير المسألة بالمسيحية أو بالمرحلة القبطية وحدها لكن بالمصرية. والمصرية تجمع ثقافة مصر القديمة وثقافة الحقبة القبطية وثقافة الحقبة العربية جميعا. فى تضافر ينطق به السلوك والعادات والتقاليد والكرنفالات الاحتفالية المشتركة، وهو موروث قديم من الثقافات الثلاث، متغشيات فى بعضها البعض.

والمصرية تعنى عدم تغليب ثقافة من تلك الثقافات على الأخرى لأننا لو أردنا مصر مسيحية لأنها كانت كذلك قبل الفتح العربى، وأن المسألة مسألة عراقية وتواجد أسبق، فالأولى أن نعود إلى الإله آمون، لأنه بهذا القياس الأعرج سيكون أعرق من إله المسيحية وأعرق من إله الإسلام، ولأنه عاش مقدسا بين الناس عمرا يعادل عمر الإلهين مجتمعين، وظل يعبد طوال تلك الحقبة الطويلة كرب رسمى لإمبراطورية عظيمة عزيزة مقتدرة، بل كانت فى أحيان كثيرة الدولة العظمى الوحيدة فى العالم دون منازع، وإذا كان المقياس بمدى بركات الرب على شعبه، فكرامات آمون واضحة، فقط هوينوء بفضيحة آل إليها أولاده من بعده بين الأمم. وإذا كان لابد من صبغ المواطنة بالدين فلدينا أديان مصرية قديمة من فرز واقعنا الوطنى الجغرافى والاجتماعى والسياسى والاقتصادى، فرزيتق وأذواقنا ومنطق فهمنا الزراعى للحياة، أديان للنيل وللوادى وللمواسم وللزراع وللزهر وللحب وللعدالة والوداعة ولننقى الأديان البدوية الواردة. إن خطابا كهذا يستدعى خطابا كذلك، وكل منهما لا يمكن تصنيفه ضمن الخطاب العلمى إطلاقا، بل ولا هو خطاب وطنى بالمرّة.

وسيلاحظ القارئ أن صاحب كتابنا يبدأ تاريخ مصر من الحقبة القبطية، وهو فى ذلك مثل المسلم المتطرف الذى يبدأ تاريخ مصر من لحظة دخول عمرو بن العاص إليها.

انظر معى الكاتب ص (١٠) ومابعدا كيف يبخرس وينفى الآخر من مذاهب مسيحية مخالفة لاعتقاد المؤلف ومذهبه، مستخدما للنفى مفردات لاهوتية كنسية ولايسوق مناقشة علمية. فقط مبرر نفيا أنها كانت آراء وثنية أو مذاهب هرطقية ؟ أى أن الصحيح هو الإيمان المسيحى الذى استقر فقط ؟ أليس ذلك إفصاحا عن عدم احترام داخل للبادئ التى ينادى بها صاحب الكتاب ؟ إنه يتخذ موقفه من تقييم المواقف المخالفة من أرضية اعتقادية بحتة، وأن الأنا هو الصح والآخر هو المخالف المارق الزنديق المهرطق الوثنى ؟ وكان النفى كما سنقرأ لأسباب دينية وليست وطنية، سالت فيها الدماء الزكية أنهارا حتى استقرت المذاهب المنتصرة القائمة للآن. وهى قائمة ليس لأنها الأصوب إيماننا بالضرورة، لكن لأنها التى انتصرت . ومن على مقعد المنتصر يحدثنا مؤلف الكتاب.

انظر مثلا موقفه مع حرمان الأريوسيين مع عدم تطرقه ولو بالإشارة إلى الاضطهاد المخيف الذى وقع عليهم ومدى عنفه، أو وقوفه مع المذهب المنتصر بالعنف ضد ما أسماه

«هرطقة نسطور» التى تم اضطهاد أصحابها بدورهم والتكيل بهم، دون مبرر علمى واحد يبرر له اتخاذ هذا الموقف المنحاز سلفاً، اللهم اعتقاده أنه هو وظائفه على العقيدة الصحيحة وحده، وهذا فى حد ذاته ذات التفكير الإسلامى المتعصب الذى لا يرى أحداً يملك الحقيقة النهائية والمطلقة سواء.

صاحب هذه الحقيقة المطلقة يتبع كنيسة ذات تراتب وظائفى وكهنوتى شديد التعقيد، ويهتم بدوره بهذا الأمر الذى لا يشغل أحداً صفحات طويلة، لكن الدرس الذى تخرج به بعد هذا الملل شديد الأهمية، لأنه يوضح أى منهج عتيق وبال ومعقد وبلا معنى يصير عليه القبطى المصرى. فالمؤلف حسب عنوان كتابه عن حقوق الإنسان وحول ص ٦٦ يحدثنا عن حقوق النساء ودورهن فيها مثلاً: «الشماسات والمكرسات يقمن بحفظ النظام بين النساء أثناء أداء الطقوس ولا سيما فى القرى. أما دور الشماسات خلال تنصير (تعميد) النساء، فيقتصر على قيامهن بالشرح للنساء عما ينبغى عليهن عمله، ولكنهن لا يساعدن الكاهن فى التنصير أو عمله فى سر الميرون، حيث إن ذلك يقتصر أداؤه على الكاهن». أنظر معى الكارثة العالمية التى ستترتب على ذلك :

«وهذا يعنى أن الشماسات لا يستطعن حمل القربان المقدس الذى يُتناول فى الكنيسة إلى منازل النساء المريضات لأن ذلك من وظيفة الكهنة دون غيرهم».

ما علينا من هذه الهموم الغريبة التى تشغل بال إخواننا الأقباط، لكننا فقط نرتعب لو تصورنا أنفسنا محكومين بالإنجيل بطقوس ورتب كهنوتية كذلك المعروضة أمامنا، وتمر آلاف السنين حتى يسمح للمرأة بدور غير كامل. فما بالناس لو كان ذلك فى مجتمع يحكمه كهنة الكنيسة؟.

وهكذا بطول كتابه يسلم الكاتب المقولات الكنسية، ويقف مع مفردات غاية فى الصغرى جوار القضية الكبرى التى يتناولها، ويدعم وجهة نظره بتبريرات لاهوتية لاعلاقة لها بحقوق الإنسان. أنظره يقول ص ٦٨: «إن مسألة الطابع المذكور للكاهن الذى يقوم بأسرار الكنيسة تدخل فى البحث بصورة بارزة فى التوازن القائم فى الكنيسة بين دراسة المسيح (الكيرىستولوجيا) ودراسة الظواهر الروحية (النيوماتولوجيا) وهناك من الأمثلة ما يدعم هذا النظر، فى أن المسيح لم يختار أبداً بين حواريه امرأة، كما أن العذراء مريم أم الكلمة

المتجسدة لم تقم أبدا بأية وظيفة كهنوتية فى الكنيسة، ولو كان مسموحا للمرأة بأن تمارس أية خدمة كهنوتية لكان واجبا أن تشغل وظيفة الكهنوت أولا، ولكن التقليد الرسولى لم يتضمن مطلقا سيامة المرأة كاهنة.

وهنا يتقدم كاتبنا يطلب حق المرأة فى الكنيسة لكنه يتواضع فى طلبه فيقول ص ٦٩: «إن إتاحة وصول النساء إلى مراتب السيامة الأدنى مثل مساعدة الشماس والقارئة والمرتلة والمعلمة وغيرها من مراتب السيامة هى مسألة تستحق الدراسة لإبراز كرامة المرأة ومكانتها على نحو محدد، وللاعترااف الصريح بمشاركتها فى العمل الكنسى».

- فإذا كان هذا نموذج القضايا الخاصة بالحقوق الإنسانية وكانت تلك طرق علاجها عبر مؤسسة عجوز قديمة معقدة، فكيف يمكن الحديث عن حقوق أقباط أمام أغلبية مسلمة؟ إن كارثة مصر أن كل من فيها مسلم أم مسيحي لا يرى أخاه المخالف فى الملة إطلاقا؛ وكل منهم يعتقد أنه يملك الحقيقة المطلقة، والكارثة العظمى أن كلا منهما يمزج مصر الوطن بعقيدته.

انظر كيف يتعامل صاحب هذه الرسالة العلمية مع التاريخ وبأى منطق، عندما كان يحكى عن حسم الصراع المذهبى فى أثيوبيا لصالح المذهب الأرثوذكسى المصرى. وبدلا من أن يحدثنا الكاتب عن هذا النصر المصرى فى بلاد الأحباش بحسبانه نصرا وطنيا يضع دولة أخرى فى تبعية ثقافية لواحدة من الثقافات المصرية هى الثقافة القبطية، فإنه يفجعنا بالقول «ويعتبر انتصار الإنجيل فى أثيوبيا واحدا من أهم الأحداث العظيمة» وهكذا يند عن الرجل مجموعة من الاعترافات الضمنية المذهلة، لعل أوضحها أنه مشغول بانتصار الكنيسة أكثر مما هو مشغول بمصر، وأن انتصار الكنيسة المصرية يعنى انتصار الإنجيل ولم يقل انتصار مصر، رغم أن الذين هزموا وتراجعوا بالحشة كانوا أتباع الإنجيل أيضا، كل ما فى الأمر أنهم كانوا يخالفون المذهب المصرى الأرثوذكسى. لكن الرجل لا يرى الآخرين المخالفين مذهبيا أتباعا للإنجيل لأنه هو الذى يعرف الانجيل الصحيح، وهو الإنجيل الذى انتصر فى أثيوبيا.

بأى حق نلوم المتطرفين المسلمين إذن؟

وينشغل كاتبنا أيضا انشغال بكل شىء عدا مصر التى قبعث فى سطور منزوية برسالته،

فهو مثلاً مشغول بالدفاع عن أمر عجب فى ص ٧٨، إذ قام بشرح ويبرر أن انفصال كنيسة الإسكندرية عن روما ليس قطيعة تامة، بل يوجد تقارب بين الكنيستين يمكن أن يؤدى فى النهاية إلى الوحدة المسيحية !!؟

وبالطبع ستكون كنيسة روما هى ذات اليد العليا فى تلك الوحدة المسيحية المنتظرة. لكن كاتبنا لا يتكلم بنفس الحماس عن وحدة وطنية فى مصر بين عنصريها، تشغله الوحدة المسيحية أكثر. فلماذا إذن ينزعج أقباط مصر وهذا منهجهم من الوحدة الإسلامية؟! وهل فى سبيل الوحدة المسيحية المنتظرة يمكن التضحية باستقلال الكنيسة المصرية الذى نعهده جميعاً مصدر فخر للمسلم والمسيحى، لأنها مصدر فخر مصرى وطنى. هل يمكن أن نضحى بالاستقلال من أجل وحدة طائفية عالمية؟ لماذا إذن ننزعج من مطالب دعاة الوحدة العربية التى هى أقرب إلى المقبول على كل المستويات فى حال المقارنة.

والأنكى والأمر أنه يطالب فى ص (٩٧) بحرية الوالدين فى تنشئة أطفالهم دينياً لأنها من أساس حقوق الإنسان وهو «حق الوالدين فى تنشئة أطفالهم على الديانة التى يختارونها!». وكنت أظنه سيقول بعدم التدخل إطلاقاً فى فرض أية وصايا على عقل الطفل وروحه حتى يختار بكل حرية أى دين أو لا يختار أى دين، إذن لكان الكلام موحياً بمدى الاحترام والفهم لحقوق الإنسان.

وهكذا كنا فى منتهى الصدق عندما قلنا أن هذا الكتاب يدق جرس إنذار لأمر عظيم، رغم أنه لم يخرج عن ذات المنهج الأصولى فى رؤية الأمور، المنهج الذى يحكم الشارعين المسيحى والإسلامى فى مصر. ولاخلاص من هذا كله إلا بسعى حقيقى دائب لا يفتر ولا يكل من أجل إقامة دولة مدنية مؤسساتية حقاً وصدقاً، وقبل ذلك مَدِينَةُ العقل المصرى وعلمته وتعليمه معانى الحريات وتدريبه عليها فى ممارسات ديمقراطية سليمة. أو لنا أن نختار غير ذلك، فهناك طريق آخر جاهز لدينا، وهو طريق امتلاك الأساطير وأوهام الحقيقة المطلقة، وهو الطريق المعلوم فى التاريخ، وسبق أن سارت فيه عمورة وسدوم وأعاد وثمود والهنود الحمر.

فتلك سكة السلامة وهذه سكة الندامة، فإن أصررنا على مناهجنا السلفية العتيقة الواحدية الدموية الأسطورية، فلن يخسر العالم شيئاً باختفائنا من على صفحة التاريخ، بل

ربما خرج كاسبا بعد انقراض أفواه تأكل ولا تنتج..، بل تشيع فى الأرض العدوانية والوحشية، وتعيش عائلة على الدنيا، وترى أنها شعوب مختارة وهى فى أدنى درجات سلم التطور الإنسانى. وساعتها لن يندم أحد، وربما كانت لنا فائدة واحدة فى تلك الحالة، وهى أننا سنكون فى مستقبل الأيام درسا وعظة عند الذكرى، وماعدا ذلك فهو تاريخ نوع من القردة العليا توقف عن التطور والتكيف مع المتغيرات، فأنقرض وآل أمره إلى المتاحف وعلماء الآثار.

الهرم فى ٣٠ أكتوبر ١٩٩٧

المحتويات

الصفحة	الموضوع
٩	مقدمة (على سبيل التقديم)
١٩	١ لماذا لانحاكم الإمام الغزالي .. إذن ؟!
٢٧	٢ السؤال الآخر في قضية نصر أبو زيد
٣٥	٣ قتل أمة بسيف التكفير
٤٣	٤ الكوارث الإلهية
٤٩	٥ أى علم وأى إيمان ؟
٥٧	٦ مرض المنهج : محاولة للتشخيص المبسط
٦٧	٧ خاتم الأنبياء وبزوغ عصر العقل
٧٣	٨ الإسلام والقضية الإسرائيلية
٨٣	٩ الثقافة الصالحة لكل زمان ومكان حكمة تحتاج إلى مراجعة
٩١	١٠ حول ما هو أهم من تصريحات (الأب الروحي) المشهور
٩٩	١١ تعقيب على لقاء نتانيا هو بالمثقفين المصريين
١٠٧	١٢ حدود الاجتهاد : مناظرة تليفزيونية (١)
١٣٩	١٣ حدود الاجتهاد : مناظرة تليفزيونية (٢)
١٦٣	١٤ قصة الخلق نموذجاً (محاضرة)
١٨٧	١٥ معارك فكرية
٢١٥	١٦ أزمة الأقباط

من أعمال المؤلف :

- ١ - الموجز الفلسفى .
- ٢ - مشكلات فلسفية .
- ٣ - (رب الثورة) : أوزيريس وعقيدة الخلود فى مصر القديمة .
- ٤ - الحزب الهاشمى وتأسيس الدولة الإسلامية .
- ٥ - النبى إبراهيم والتاريخ المجهول .
- ٦ - الأسطورة والتراث .
- ٧ - حروب دولة الرسول / ٢ ج
- ٨ - قصة الخلق : منابع سفر التكوين .
- ٩ - إسرائيل : التوراة والتاريخ والتفصيل .
- ١٠ - رب الزمان .
- ١١ - النبى موسى وآخر تل العمارنة .
- ١٢ - السؤال الآخر

السؤال الآخر - د. سيد محمود القمى

رقم الإيداع	٩٨/٤٠٢٦
-------------	---------

طبع فى مطابع روزاليوسف الجديدة

السؤال الآخر!!



السؤال الآخر هنا يخوض في أعوص المناطق وأكثرها وعورة، ويسير فوق كل جحور الأفاعى دفعة واحدة، رغم أنه لم يتعرض لثوابت غيبية، إنما كان يتوجه مباشرة وبوضوح - ربما كان صادما - نحو المناطق التي تتعلق بمعاشنا وحياتنا. حتى يمكن إضاءة المساحات المخفية والمحجوبة والمسكوت عنها، لأن استمرار السكوت مع الوعي والمعرفة هو لون من ألوان خيانة الوطن بلا جدال، بعد أن جاء المنهج السائد بعدو البلاد عام ١٩٦٧ إلى حدود الدلتا الشرقية، وانتهى بنا الآن إلى مقلب نفايات الأمم.

ولأن هذا الشعب كثير الدهشة - دائما - ولا يخشى ملامة طرح السؤال، فقد كان على لسانه المثل قاعدة أتت بدورها في صيغة سؤال يقول دهشا مستنكرا: (هوه السؤال حُرْم؟!). وهو ذات الشعب الذى كان يرفض الأوضاع الخاطئة في المجتمع، كما يرفض في ذات الوقت الرشوة المقدسة بالحوار والخمور في عالم الأبدية، في مثله البسيط السائر (المحتاج يبيع نصيبه في الجنة). لكن ما حدث هو مجموعة من المتغيرات والأسباب المتعددة كان منها دور مؤسسات التثقيف الرسمية، التي قامت عن عمد وسبق إصرار بتزييف وعى الجماهير، مما أقرز لدى المواطن المصرى وعيا زائفاً لعلاقة له بالفرز الطبيعى للوطن، لذلك كان طبيعيا أن تخرج علينا جماعات الإرهاب المسلح بعد أن غاب مفهوم الوطن وقيمه لصالح ذوى المصالح، الذين عمدوا إلى إبراز مذهبيات دينية بدوية، برزت معها بالضرورة الدول التي ترعاها.

إن هذا الكتاب الذى بين يديك يطرح تساؤلات أن لها أن تطرح أيا كانت العواقب على شخص الكاتب، تساؤلات تُصر وتكرر مطالبيها بين موضوع وآخر، وهى المطالبات التى لن تتحقق إلا إذا سمحنا للسؤال الآخر بالمرور، واعتدنا سماع الرأى الجديد أو المخالف، وبفتح النوافذ على العقل دون تقييد أو قمع، وأن تناقش الفكرة الأخرى ولاتطالب بمصادرتها أو تكفيرها. أن نحقق العلمنة على مساحة الثقافى على الأقل وهو أدنى المطالب. ساعتها يمكن القول أن هناك أملا في أننا سوف نكون.

الكتاب الذهبي

115.00